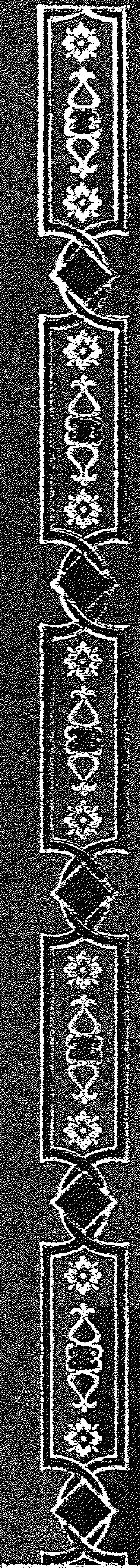
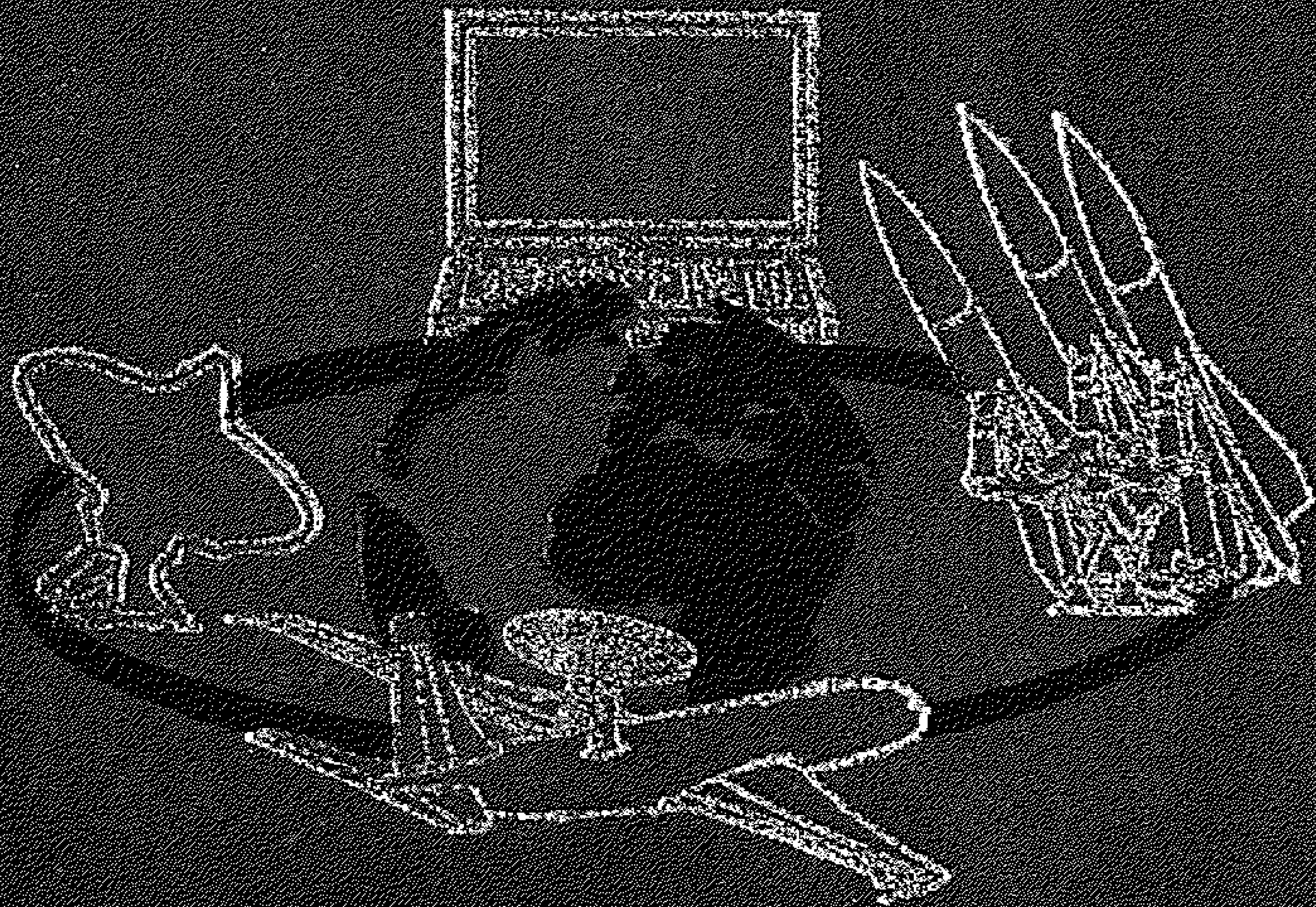
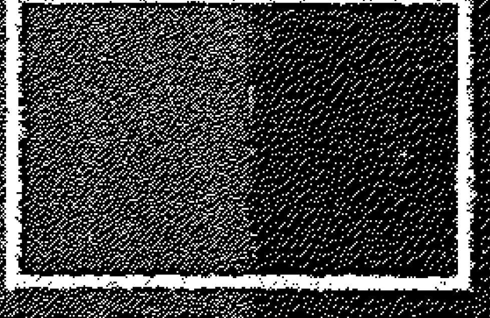
موسوعة
عالم المخابرات
كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم







موسوعة عَالم المخابَرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

العملاء المزدوجون

أسعَد مفرِّج

ولجَنة من البَاحثين

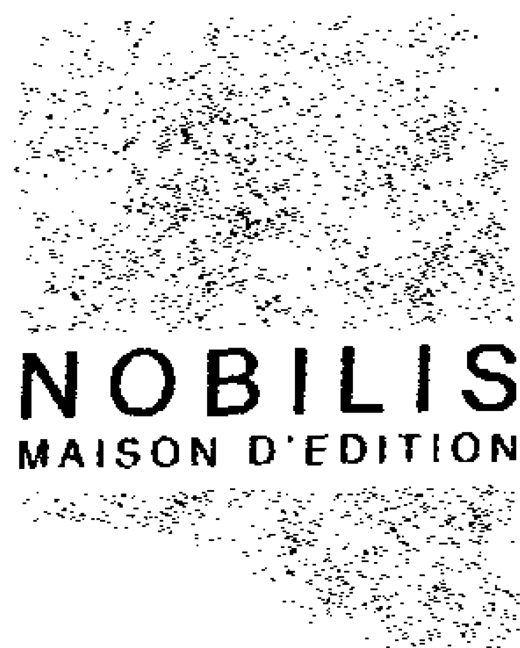
موسُوعَة

عَالَـــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجزء الحادي والعشرون

العمَلاء المزدوجُون



إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : العمَلاَء المزدَوجُون

الجِزء : الحادي والعشرون

المؤلّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

العميل المزدَوج

العاملون في الظلام، هو الوصف المعتمد للعملاء المزدوجين. فإذا كـان عميـل مـا يعمل في العلن لصالح الدولة ألف، وفي السرّ لصالح الدولة باء، فهو عامل في الظـلام لصالح الدولة باء. وهو بالتالي عميل مزدوج.

أنطوني بلانت: الرجُل الأوَّل في مجموعَة الخمسَة

ربّما من الصعب العثور علـى مثـل أشدّ وضوحـًا مـن المؤسّسة البريطانيّـة مـن "أنطوني بلانت"، الذي كان أبوه واحدًا من رجال الدين، وفي حقبـة معيّنـة قسّيسًا لـدى السفارة البريطانيّة في باريس، بينما كانت أمّه واحدة من أقـارب الملكـة الأمّ إلـيزابيث. وهذه الحقيقة جعلت تجنيده كجاسوس يعمـل فـي الظـلام لحسـاب جهـاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB أمرًا غامضًا.

مثلـه كمثـل الأعضـاء الآخريـن فـي "مجموعـة الخمسـة"، وهـو مصطلـح جهـاز الاستخبارات السـوفياتيّ KGB فـي التعبـير عـن شـبكته الرئيسـيّة مـن الجواسـيس البريطانيّن. فإنّ بلانت درس في جامعة كامبريدج في الحقبة اللاحقـة للحـرب العالميّـة الأولى، وهي الحقبة التي شهدت تخلّصًا من الأوهام وغموضًا في احتمالات المسـتقبل،

كما شهدت تعزيزًا وانتعاشًا في الأيديولوجيّة الماركسيّة. ومثله كمثل الآخرين من طلاّب جامعة كامبريدج، فإنّ بلانت انضمّ إلى الحزب الشيوعيّ، غير أنّه على العكس من معظم الآخرين، اتّخذ الخطوة الخطيرة في الانتقال من مرحلة القناعة السياسيّة إلى مرحلة التجسّس.

مع أنّ بلانت نفسه لم يفصح أبدًا، فمن المعتقد أنّه جرى تجنيده في جهاز الاستخبارات السوفياتي في سنة ١٩٣٣ أثناء وجوده في جامعة كامبريدج، وهو لذلك يعتبر بمثابة "الرجل الأوّل" في "مجموعة الخمسة"، وهم الجواسيس الخمسة العاملون في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ في بريطانيا العظمى: فيلبي، وماكلين، وبيرغيس، وأنطوني بلانت، وجون كيرنكروس. وكان بلانت هو الذي تحدّى الماركسيّين الشباب في "أن يفعلوا شيئًا" بشأن انزلاق بريطانيا والنظام الرأسمالي نحو الكارثة، وأكّد على ضرورة الحاجة إلى مساعدة ما زعم أنّه منارة الخلاص في العالم: الإتّحاد السوفياتيّ.

الرجل الأوّل الذي قام بلانت بتجنيده هو "غاي بيرغيس"، الشاذ جنسيًّا على نحو ملتهب، وكانت تربطه علاقة حبّ ببلانت الشاذ أيضًا. ثمّ أعقبه آخرون، في مجال التجنيد طبعًا، وعلى الأخصّ "دونالد ماكلين"، و"ميشال سترايت"، وهو طالب أميركيّ برهن على أنّ التجنيد تجاوز في أهميّته ما كان يتصوّره عنه بلانت نفسه... وكانت هناك حدود مزعجة لدور بلانت في اكتشاف المواهب: كان بلانت في الغالب يستخدم الابتزاز الجنسيّ في ممارسة الضغوط على المجندبن الجدد لإجبارهم على التعاون، وذلك من خلال تهديدهم بإفشاء أسرار شذوذهم الجنسيّ. وفي تلك الأيّام التي كان فيها الشذوذ الجنسيّ تهمة كبرى في بريطانيا، فلم يكن هذا تهديدًا عديم الجدوى.

من أوّل وهلة، فإنّ جهود جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في تجنيد الخريج في جامعة كمبريدج، ومؤرّخ الأدب الإنكليزي، بالإضافة إلى الرجال الآخرين المغمورين الذين قام بدوره بتجنيدهم، تبدو جهودًا حمقاء...

ماذا كان يمكن أن يقدّم هؤلاء الجواسيس إلى جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB؟ ولكنّ المظاهر العامّة كانت خادعة، ذلك أنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ في حقيقة الأمر كان يختار جواسيسه على نحو مقصود ومدروس. والسبب في ذلك هو أنّ الحكومة البريطانيّة كانت تستمدّ زعماءها السياسيّين المستقبليّين والموظّفين المدنيّين وعملاء الاستخبارات من جامعتي كامبريدج وأوكسفورد. ومن خلال الغرس المبكّر، وإقناع صغارهم بتسخير قناعاتهم الماركسيّة في التغلغل إلى المؤسّسة التي يتوقون إلى تحطيمها باسم البروليتاريا، فإنّ جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB زرع بالفعل خلايا إنشطاريّة في الجسم السياسي البريطاني...

كان هناك سبب آخر لتجنيد أنطوني بلانت، ذلك أنّه كان شخصيّة هامّة في الجماعة البريطانيّة الشاذّة جنسيًّا، الأمر الذي أتاح له فرصة تكوين شبكة من الاتّصالات لا تقدّر بثمن امتدّت إلى المؤسّسة الحاكمة البريطانيّة برمّتها.

وكما كان يعرف جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، فإنّ أحد أقرب أصدقاء أنطوني بلانت، والحبيب المفترض، كان رجلاً يدعى "غاي ليديل"، وهو مسؤول بارز في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 الذي عمل على نحو ناشط على تجنيد وحماية زملائه الشاذّين جنسيًّا. وكان جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB حريصًا على نحو كاف على عدم اللجوء إلى محاولة ابتزاز غاي ليديل، والسبب في ذلك هو أنّ هناك أعمالاً أخرى أهمّ كانت تنتظره: تسهيل انضمام الجواسيس الشاذّين جنسيًّا إلى

الاستخبارات البريطانيّة، مع حماية مثل هؤلاء الرجال من أيّ أسئلة محرجة حول اهتمامتهم الماركسيّة السابقة ونزعاته الجنسيّة.

وبناء على إلحاح جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، حاول أنطوني بلانت الانضمام إلى الاستخبارات البريطانيّة مع اندلاع الحرب العالميّة الثانية وانضمّ إلى الأمن الميدانيّ في الاستخبارات العسكريّة، ولكنّه طرد حينما عرف المحقّقون الأمنيّون خلفيّته الشيوعيّة. وعاد الشجاع أنطوني بلانت عندئذ إلى صديقه غاي ليديل، الذي قام بتعيينه في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5، وفي ذلك الوقت تقريبًا، نجح غاي بيرغيس في الانضمام إلى جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6. وبعد ذلك، قام بتجنيد "هارولد فيلبي"، وهذا يعني أنّ جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB نجح في زرع ثلاثة جواسيس في الاستخبارات البريطانيّة. وفي غضون ذلك، انضمّ "دونالد ماكلين" إلى وزارة الخارجيّة، وبذلك حقّقت عمليّات جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في تجنيد العملاء في السنوات السابقة نتائجها.

حقّق أنطوني بلانت نجاحًا نسبيًّا خلال مدّة زمنيّة قصيرة، ذلك أنّه تولّى مسؤوليّة عمليّات فتح الحقائب الدبلوماسيّة الخاصّة بالسفارات المحايدة في لندن على نحو سرّي، وفي الأعمّ الأغلب عن طريق إغواء الأشخاص المكلّفين بخدمة السائحين بتقاضي رواتب دائمة. وكان جهاز الاستخبارات البيرطانيّ MI-5 يشعر بابتهاج بالغ تجاه مجموعة الأوراق السريّة التي تمكّن أنطوني بلانت من تصويرها من حقائب المسافرين، كذلك كان جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB مبتهجًا أيضًا لأنّه حصل بدوره على نسخة خاصّة به. وفي الوقت نفسه، فإنّ أنطوني بلانت جعل موسكو عليمة بأنظمة عدد من المنفيّين الحكوميّين في لندن الذين أبدى السوفيات إهتمامًا خاصًّا بهم، وعلى الأخصّ المنفيّين من بولندا وتشيكوسلوفاكيا.

في عام ١٩٤٤، جرت تسمية أنطوني بلانت ضابط اتّصال في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 لدى المقرّ الأعلى لقوّات الحلفاء العسكريّة، حيث قيادة الحلفاء العليا في أوروبّا، وهي خطوة حاسمة، ليس بسبب أنّها سمحت له بالاطّلاع على العمليّة البالغة السريّة البريطانيّة "أولترا" لفكّ رموز الشيفرة الألمانيّة، بل أيضًا الاطّلاع على الخطط العمليّاتيّة الرفيعة المستوى، بما فيها غزو شواطئ النورماندي. وليس من المعروف ماهيّة الخدمات الأخرى التي تمكّن أنطوني بلانت من تقديمها إلى جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، ولكن مع نهاية الحرب، قام بتنفيذ عمليّة لا تتّصل بالحرب أو بجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، بل تتّصل بوضع العائلة الملكيّة في ورطة.

خلال حقبة ثلاثينات القرن العشرين، كان البريطانيّون يشعرون بالقلق تجاه دوق وندسور، الذي كان مواليًا للنازيّة على نحو صاخب. وكان دوق وندسور تعرّض للضغوط من أجل التنازل عن عرش إنكلترا بعد اعتلاء العرش لمدّة قصيرة بسبب رفضه قطع علاقته مع المطلّقة الأميركيّة "والاس سيمبسون". وفي العام ١٩٣٧، عرفت الاستخبارات البريطانيّة أنّ الدوق، أثناء زيارة قام بها إلى ألمانيا، اجتمع إلى هتلر، وأعرب عن مشاعر متحمّسة موالية للنازيّة، حتّى أنّ الفوهرر فكّر في تعيينه رئيسًا لحكومة ألعوبة بعد قيام الألمان باحتلال بريطانيا. وفي وقت لاحق، أثناء الحرب، قام البريطانيّون بإبعاد الدوق عن طريق الإغواءات، وأسموه حاكمًا عامًّا في "بيرمودا" بعدما عرفوا أنّ هناك احتمالاً وشيكًا بهروبه إلى الألمان.

حرصت الحكومة البريطانيّة على جعل هذا كلّه سرًّا، ولكنّها كانت تعرف أنّ هناك مجموعة من الأوراق السريّة الضارّة، وهي عبارة عن رسائل من الدوق أعرب فيها عن آماله الكبيرة بانتصار ألمانيا النازيّة. ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه المجموعة

من الأوراق كان ينبغي استردادها مجدّدًا. وقام أنطوني بلانت بعمليّة الاسترداد بنجاح، وفي مقابل ذلك، عرضت العائلة الملكيّة الشاكرة عليه منصبًا: "باحث وحافظ الصور الملكيّة". ومُنح وسام الفارس سنة ١٩٥٦.

مع أنّ أنطوني بلانت استقال رسميًّا من جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 في نهاية الحرب، فإنّه ظلّ ذا أهميّة بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. ومنذ أيّام شبكة الفتى القديم، حرص أنطوني بلانت على البقاء على اتّصالاته الشخصيّة مع زملائه القدامى وعلى غدائه الأسبوعيّ مع كبار المسؤولين في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5، وغالبًا ما كان هذا يؤدّي إلى معرفة أنباء سارّة كافية لتمريرها إلى جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، وكان أنطوني بلانت ذا أهميّة أيضًا حينما أصبح جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 منهمكًا في الموجة الأولى من حالات الجاسوسيّة اللاحقة على الحرب. وفي سنة ١٩٥١، حينما هرب غاي بيرغيس مع دونالد ماكلين إلى موسكو، قام أنطوني بلانت بفعل أشياء عملت على زيادة الأمر تعقيدًا بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5، وذلك من خلال تسلّله إلى شقّة بيرغيس قبل وصول عملاء مكافحة الاستخبارات، وإزالة مجموعة كبيرة من أوراق الإدانة. وكان من بين هذه الأوراق ملاحظات بخطّ يد واحد من "مجموعة الخمسة"، وهو "جون كيرنكروس"، وبعض رسائل الحبّ العاطفيّة التي كتبها بيرغيس إلى واحد من أفضل أحبّائه الذكور: أنطوني بلانت.

ومع ذلك، فبالنظر إلى أنّه كان أحد أصدقاء غاي بيرغيس المعروفين، فمن الطبيعيّ أن تحوم الشبهات من حوله. وعرض عليه يوري مودين، رجل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ المسؤول عن الاتّصالات مع العملاء في لندن، إخراجه من بريطانيا إلى مكان آمن في الاتّحاد السوفياتيّ، ولكنّ أنطوني بلانت رفض. وفي

السنوات العديدة اللاحقة، خضع أنطوني بلانت للاستجواب ١١ مرّة من جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5، غير أنّه لم يكن هناك دليل قويّ ضدّه، وتلاشت أيّ دعوى ضدّه شيئًا فشيئًا.

في سنة ١٩٦٣، مع ذلك، قرّر واحد من الأشخاص الذين جنّدهم أنطوني بلانت، وهو الأميركيّ "ميشيل سترايت"، تقديم طلب للحصول على وظيفة فيديراليّة. ومن واقع شعوره بالقلق تجاه احتمالات أن تؤدّي التحقيقات المطلوبة في خلفيّته من جانب مكتب التحقيقات الفيديراليّ إلى كشف أسرار خلفيّته الغامضة، قدّم سترايت متطوّعًا معلومات مفادها أنّه جرى تجنيده للعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB من جانب أنطوني بلانت، وقام ببعض عمليّات التجسّس المحدودة قبل اتّخاذه قرار الانشقاق عن الحزب الشيوعيّ. وفي ظلّ معرفته لهذا الدليل المثبّت نهائيًّا، قرّر جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 مواجهة أنطوني بلانت، وعرض عليه صفقة: البوح بكلّ شيء في مقابل الحماية. ووافق أنطوني بلانت على الصفقة، ومع أنّ هناك بعض الأسئلة ما زالت باقية حول مدى ما كشف عنه أمام القائمين على الاستجواب، فإنّ عددًا من المسؤولين في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 ظنّوا أنّ أنطوني بلانت، وفق العادة المتّبعة عند عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، ربّما أدلى بمعلومات يعرفها جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 من قبل. ومع هذا، فإنّ أنطوني بلانت قدّم بعض المعلومات الهامّة، ذلك أنّه كشف أنّ "ليو لنغ"، الزميل في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 خلال الحرب، جرى تجنيده للعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB كمصدر للمعلومات، كما أكّد أيضًا شكوك جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 بأنّ "جون كيرنكروس" كان الرجل الخامس في "مجموعة الخمسة". وكشف أنطوني بلانت أيضًا عن أسماء عملاء جهاز الاستخبارات

السوفياتي KGB الذين عمل معهم، وعلى الأخصّ "يوري مودين"، الذي اعتبر بمثابة الاختصاصيّ البارز في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في التعامل مع العملاء الشاذّين جنسيًا. وفي ظلّ حقيقة مغادرة هؤلاء الروس الأراضي البريطانيّة منذ مدّة طويلة، فإنّ هذا الكشف كان محدود الأهميّة.

كانت الاستخبارات البريطانيّة تنوي أن تكون إجراءاتها مع أنطوني بلانت سريّة، ولكن في العام ١٩٧٩، قام بعض المسؤولين في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 بدافع الشعور بالغضب تجاه ما اعتبر معاملة مؤاتية لأحد أعمدة المؤسّسة البريطانيّة، بتسريب بعض تفاصيل الصفقة إلى المؤلّف "أنطوني بويل"، الذي أثار كتابه حول هذه الصفقة "الرجل الرابع" عاصفة عارمة. وكانت رئيسة الوزراء البريطانيّة "مارغريت تاتشر" إضطرّت إلى الاعتراف علانية بأنّ مثل هذه الصفقة عقدت بالفعل. ويبقى هناك نزاع مستمرّ حول ما إذا كان ينبغي أن يحصل رجل مثل أنطوني بلانت على وعد بالحماية، وذلك على الرغم من حقيقة أنّه بدون اعترافه، ما كان يمكن أن يكون هناك دليل واضح يسمح بإحالة قضيّة في التجسّس إلى المحكمة...

وبرغم ذلك، فإنّ أنطوني بلانت دفع ثمنًا، ذلك أنّه تعرّض للشتائم علانية، وجرى تجريده من وسام الفارس، وأخيرًا أسلم نفسه إلى الاعتزال الانفراديّ، وقلّما كان قادرًا على إظهار وجهه المعروف جيّدًا. ومات في سنة ١٩٨٣، من غير شعور بالندم على ما يبدو. وحينما سأل الأصدقاء هذا الرجل المولود في الثروة والجاه عن الأسباب التي اضطرّته إلى خيانة وطنه، أجاب بهذه الحكاية التاريخيّة: "الجيش الفلورنسيّ كان يحارب جيش البابا، وكان "بينفينيتو سيلليني" يحارب إلى الجانب الفلورنسيّ. وفي أثناء اهتياج في المعركة، جاء صوت من الخطوط البابويّة مناديًا: يا بينفينيتو... البابا يريدك أن تحارب معه... ورمى سيلليني سلاحه، وذهب إلى الجيش البابوي، وأصبح صائغ

الفضّة للبابا، وحينما انتهى من عمله، عاد إلى فلورنسا حيث استُقبل استقبالاً حافلاً لأنّه كان فنّانًا عظيمًا".

وكلّ من سمع هذه الحكاية كان يتمنّى لو يعرف أنّ عقل أنطوني بلانت الغريب رأى بالفعل تشابهًا بين خيانة سيلليني للفنّ وخيانته العظمى الخاصّة به[1]...

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩) ص٣٨ ـ ٤٤.

كيم فيلبي: أعظمُ العُملاء المزدَوجين

هو "هارولد أدريان راس فيلبي" المعروف عمومًا باسم "كيم فيلبي"، أعظم جواسيس المزدزجين على الإطلاق. وهو الذي قال قبل نهاية حياته: "حتّى تكون خائنًا، يجب أن تكون منتميًا، ولم أكن منتميًا في حياتي أبدًا".

مهما كان هذا القول غامضًا، فهذا هو التفسير الوحيد الذي قدّمه "فيلبي" في شرح مهنة ترقى إلى مرتبة أشدّ المهن غموضًا في تاريخ التجسّس كلّه.

كان فيلبي مثال الجاسوس المزدوج، أو الجاسوس العامل في الظلام. وهو الرجل الذي تغلغل، لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتّي، في صفوف جهاز الاستخبارات البريطاني، وخان أسراره لمدّة تقترب من ٣٠ عامًا. وكان فيلبي على وشك أن يصبح رئيسًا لذلك الجهاز من الاستخبارات، الأمر الذي كان يمكن أن يشكّل مهزلة في تاريخ التجسّس: رئيس جهاز استخبارات يعمل لحساب الآخرين، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من نتائج لا تظهر إلاّ في الأحلام... وكانت قصّة زاخرة بالأعمال البطوليّة وذات تأثير ملهم في ما يتّصل بأعمال الخيال العلميّ وأعمال الحقائق التاريخيّة العديدة التي حاولت تفسير ظاهرة فيلبي.

يميل المحلّلون لمسألة فيلبي إلى التركيز على نحو ثابت على حياته الأولى لمعرفة الدوافع التي جعلته يتّجه في هذا الاتّجاه.

كان فيلبي وُلد في الهند قبل الحرب العالميّة الأولى بوقت قصير، وتحديدًا في العام ١٩١٢، وكانت أمّه بريطانيّة، بينما كان أبوه شخصيّة غريبة في التاريخ البريطانيّ،

إنّه المستعرب "جون فيلبي". وكان فيلبي الأب شخصيّة تامّة النضج وغريبة الأطوار ومعروفة في الشرق الأوسط، حيث عمل لحساب الاستخبارات البريطانيّة في تحريك الثورة العربيّة ضدّ تركيا. وبعد الحرب، وإدراكًا منه أنّ بريطانيا خانت العرب، ذهب فيلبي الأب إلى المملكة العربيّة السعوديّة، حيث اعتنق الإسلام، وتزوّج امرأة عربيّة كزوجة ثانية، وحذّر ابنه من مغبّة تصديق كلمة الاستخبارات البريطانيّة...

كانت علاقة الأب والإبن علاقة قويّة، ولكن الأب لم يكن يملك أيّ تأثير على تحوّل ابنه السياسيّ نحو الشيوعيّة. وعمليّة التحوّل هذه بدأت حينما التحق فيلبي بجامعة كامبريدج سنة ١٩٢٩، حيث أصبح صديقًا حميمًا للماركسيَّين "غاي بيرغيس" و"دونالد ماكاين". وقام هذان الماركسيّان بترشيح فيلبي، الذي كان من المحتمل جدًّا أن يبقى مجرّد شيوعيّ آخر لولا تلك التجربة التي برهنت على كونها مشتملة على بذور تطوّر في حياته المستقبليّة.

خلال عطلاته السنويّة، أحبّ فيلبي أن يتجوّل في أنحاء أوروبّا، حيث عملت حقائق الرعب النازيّ على تعزيز تحوّله إلى شيوعيّ متحمّس، ولكن كانت فيينّا هي المكان الذي قرّر فيه فيلبي في صيف ١٩٣٤ أن يصبح "جنديًّا" على حدّ قوله في وقت لاحق، في الصراع ضدّ النازيّة.

وصل فيلبي إلى فيينّا في غمرة اضطرابات سياسيّة هناك، ذلك أنّ الحكومة اليمينيّة كانت منهمكة في صراع حياة أو موت ضدّ خصومها اليساريّين، وسجّل فيلبي إسمه متطوّعًا مع الثوريّين الاشتراكيّين، المدعومين من الشيوعيّين النمساويّين، وعمل في بادئ الأمر كحلقة وصل بين العناصر المختلفة المعادية للحكومة. وبمحض الصدفة، التقى فيلبي الفتاة "أليس فريدمان"، ووقع في حبّها. وكانت فريدمان، المعروفة باسم "ليتزي"، شيوعيّة نمساويّة، وكانت منهمكة على نحو عميق في الصراع الذي

زلزل المدينة النمساويّة، وبلغ ذروته حينما اضطرّت القوّات الحكوميّة إلى قصف مساكن العمّال وقتل المئات منهم. وعملت تجربة رؤية الحكومة وهي تذبح شعبها على مضاعفة راديكاليّة فيلبي.

وبالمصادفة بالنسبة للاتّحاد السوفياتيّ، ففي ذلك الوقت كان هناك اثنان من عملاء الاستخبارات السوفيات يعملان في المدينة: "ثيودور مالي" القسيس السابق الهنغاري الذي تحوّل إلى الشيوعيّة، و"جابور بيتر"، وهو شيوعيّ آخر... وعرف الاثنان في فيلبي قدرته النادرة على الجمع بين الاستخبارات والإخلاص الأعمى، وجرى ترشيحه لخدمة "قضيّة الثورة العالميّة". ولكنّه لم يعد معنيًّا بالبرهنة على التزامه تجاه القضيّة الشيوعيّة من خلال تهريب رسائل عبر نقاط التفتيش البوليسيّة، بل يجب، من الآن فصاعدًا، كما جرى إبلاغه، إخفاء قناعاته السياسيّة والتغلغل في الحكومة البريطانيّة، وعلى الأخصّ في جهاز الاستخبارات البريطانيّ، من خلال إحداث "ثقب من الداخل".

عند عودته إلى بريطانيا، تحرّك فيلبي فورًا لمحو ماضيه الشيوعيّ، وهي الخطوة الأولى الضروريّة لاختراق المؤسّسة البريطانيّة. وفي العلن، اتّجهت سياسته فجأة نحو اليمين، وانضمّ إلى الزمالة الأنغلو ـ ألمانيّة، وهي مجموعة يمينيّة تناصر فكرة التحالف مع ألمانيا النازيّة. وكخطوة أخرى نحو إخفاء قناعاته، قام فيلبي بطلاق زوجته أليس فريدمان.

جاء تغلغله في المؤسّسة في العام ١٩٣٦، وذلك حيث اشتغل لحساب جريدة "التايمز" اللندنيّة، كمراسل مدافع عن قضيّة "فرانكو" في الحرب الأهليّة الإسبانيّة. وكانت رسائله الإخباريّة للجريدة المناصرة على نحو صارخ لقضيّة فرانكو عملت على تعزيز فكرة يمينيّة فيلبي، وذلك على الرغم من قيامه في الوقت نفسه بتزويد جهاز الاستخبارات السوفياتيّ بمعلومات استخباراتيّة متدنّية الدرجة تمكّن من الحصول

عليها من بطانة فرانكو. وكادت مهنة فيلبي في الجاسوسيّة أن تنتهي قبل الأوان ذات يوم، وذلك حينما ألقى جنود وطنيّون القبض عليه للاستجواب... وفي ذلك الوقت، كان يحمل بعض الأوراق التي تضمّنت إدانات مؤكّدة ضدّه، وحينما طُلب منه أن يقدّم محفظة جيبه، رماها متعمّدًا تحت الطاولة، ولمّا اندفع الجنود نحوها، انتهز فيلبي الفرصة وقام بابتلاع بعض الأوراق الهامّة...

سنة ١٩٣٩، وبينما كان مراسلاً لجريدة التايمز اللندنيّة، تمكّن فيلبي من تحقيق ما كان يتطلّع إليه. وبفضل نفوذ زميله في الدراسة الجامعيّة، الرفيق الشيوعيّ غاي بيرغيس، الذي كان يعمل في الدائرة D، وهي دائرة "التخريب والدعاية" التابعة لجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، جرى ترشيح فيلبي للانضمام إلى المؤسّسة... وكما جرت العادة داخل جهاز الاستخبارات البريطانيّ يومئذ، فإنّ التدقيق في أمر ترشيح فيلبي كان روتينيًّا جدًّا. وحينما سئل والده عن ميوله الشيوعيّة المعروفة أثناء دراسته الجامعيّة في كامبريدج، قال: "أوه، كان ذلك مجرّد هراء سياسيّ في عمر الشباب... وانتهى الأمر عند هذا الحدّ". وبعد هذا التدقيق البسيط والمثير للدهشة في الخلفيّة السياسيّة، تمكّن فيلبي من تحقيق الهدف الذي وضعه له جهاز الاستخبارات السوفياتيّ قبل خمس سنوات: التغلغل في صفوف الاستخبارات البريطانيّة.

في بادئ الأمر، مع ذلك، لم يكن هذا التغلغل واعدًا، ذلك أنّه تقرّر حلّ دائرة D أي دائرة "التخريب والدعاية" في العام ١٩٤١، ولم يكن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 يعرف تمامًا ما يمكنه أن يفعل بشأن فيلبي. وهناك سبب واحد لذلك، وهو أنّ حياة فيلبي الطويلة تميّزت بالقيل والقال، الأمر الذي حرمه من فكرة تعيينه في منصب هام. وكان الحلّ، أخيرًا، هو تعيينه في وظيفة مكتبيّة في القسم الخامس، قسم "مكافحة التجسّس في البلدان الخارجيّة"، التابع لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 . وما كان

يمكن أن يكون هناك قرار أفضل من ذلك بالنسبة إلى فيلبي، وجهاز الاستخبارات السوفياتي، ذلك أنّ الوظيفة المكتبيّة جعلته مطّلعًا على سلسلة عريضة من التقارير الاستخباراتيّة، وهذا ما أعطاه فرصة أفضل للاطلاع بالمقارنة مع أيّ وظيفة أخرى.

كان فيلبي رجلاً محبوبًا في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. ولأنّه كان سكّيرًا كبيرًا مثل الكثيرين من زملائه العملاء، فإنّ فيلبي كان يملك أوراقًا كافية للثقة به من جانب الطبقات العليا المهيمنة على زعامة جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. ولكنّه كان أيضًا شخصيّة عاديّة على نحو كاف قادرة على التكيّف بسهولة مع "الرجال العاديّين" المهيمنين على الطبقات الدنيا في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، ولأنّه كان يلقّب باسم "كيم"، تيمّنًا بشخصيّة "روديارد كيبلينغ"، بسبب مولده في الهند، فإنّ فيلبي كان شخصيّة موهوبة في الاستخبارات، واعتُبر بمثابة "القادم الجديد" أو الرجل الذي يمكن أن يصبح يومًا رئيسًا لجهاز الاستخبارات كلّه.

في أواخر عام ١٩٤٤، حقّق فيلبي خبطة حظّ مذهلة أخرى، وذلك حينما تقرّر تسميته لإحياء القسم التاسع في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. وهذا القسم، المخصّص لمكافحة التخريب السوفياتيّ والعمليّات الاستخباراتيّة، ظلّ هاجعًا في سبات عميق على نحو فعليّ خلال مدّة الحرب التي كان فيها الاتّحاد السوفياتيّ حليفًا لبريطانيا. ومع هذا، فحينما اقتربت الحرب من النهاية، وأصبح من الواضح أنّ الإتّحاد السوفياتيّ ربّما يكون العدوّ القادم للغرب، قرّر جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 إحياءي هذا القسم برئاسة فيلبي، مع تخصيص مائة من عملاء الاستخبارات للعمل معه.

ليس هناك منصب يمكن أن يكون أفضل من هذا بالنسبة إلى جاسوس يعمل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ. وفي ما يتعلّق بالأسرار التي أفشاها

فيلبي إلى موسكو بالضبط، فهي غير معروفة يقينًا خارج نطاق أرشيف جهاز الاستخبارات السوفياتيّ، ولكن من المعروف أنّ فيلبي قدّم خدمتين حيويّتين إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ خلال الحرب، الخدمة الأولى هي الإحباط التلقائيّ لجهود المجموعة السريّة المعادية لألمانيا النازيّة الرامية إلى الحصول على دعم بريطانيا للإطاحة بنظام حكم هتلر، وكانت هذه المجموعة السريّة تشكّل الكابوس الأعظم بالنسبة إلى موسكو: أيّ حكومة ألمانيّة جديدة كان لا بدّ من أن تسعى إلى عقد سلام منفرد مع الغرب، مع ما ينطوي ذلك على نتائج كارثيّة بالنسبة إلى الاتّحاد السوفياتيّ في حالة قيام الألمان بتوجيه قوّتهم العسكريّة الكاملة نحو الشرق. ومن أجل إحباط هذا الاحتمال، قام فيلبي بصرف تقارير الألمان المعادين للنازيّة العاملين لحساب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 عن غايتها، وتشويه فاعليّة المعارضة المعادية لهتلر، وضمان جعل تقارير جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 تميل إلى وصف معارضة الألمان بأنّها غير مهمّة ولا تستحقّ التعامل معها؛ أمّا الخدمة الثانية التي قام بها فيلبي، فهي جعل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ عارفًا بأسماء الجواسيس النافعين الذين جنّدهم جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في أوروبّا الشرقيّة... وفي وقت لاحق، حينما تولّت موسكو السلطة المطلقة في المنطقة، جرى إلقاء القبض على هؤلاء الجواسيس. وفي الوقت نفسه، فإنّ فيلبي قام بإفشاء أسرار الشبكات المعادية للسوفيات التي أنشأها وتولّى رئاستها في القسم التاسع لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. وفي ظلّ معرفته بأسرار هذه الشبكات، تمكّن جهاز الاستخبارات السوفياتيّ من تمرير معلومات إستخباراتيّة مضلّلة كان من شأنها خداع الاستخبارات البريطانيّة لعدّة سنوات قادمة.

سنة ١٩٤٥، واجه فيلبي أزمة هدّدت بإنهاء مهنته. وفي وقت واحد تقريبًا، هرب عضوان من الاستخبارات السوفياتيّة إلى الغرب. أحدهما، "إيغور جوزينكو"، كاتب

الشيفرة في السفارة السوفياتيّة في أوتاوا بكندا، هرب مع مجموعة من برقيّات الاستخبارات السوفياتيّة السريّة جدًّا، علاوة على معلومات أخرى كانت في رأسه؛ والثاني، "قسطنطين فولكوف"، أحد كبار المسؤولين في جهاز الاستخبارات السوفياتي في استنبول، وهو في حقيقة الأمر لم يهرب، ولكنّه فاتح السفارة البريطانيّة بعرض للهروب، مشيرًا إلى أنّ لديه معلومات خاصّة عن قيام جهاز الاستخبارات السوفياتيّ باختراق الاستخبارات البريطانيّة. ولم يكن فولكوف يعرف الهويّات الحقيقيّة للجواسيس العاملين في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ، ولكنّه ذكر دلائل كثيرة، من بينها واحدة، ولو أمكن التحقّق منها على نحو كامل، فربّما كان يمكن أن تؤدّي في غاية الأمر إلى الكشف عن حقيقة فيلبي.

قام فيلبي باستشارة مسؤول الاتّصال، "يوري مودين"، رجل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ، المسؤول عن الاتّصالات مع العملاء في لندن، الذي تنبّأ بجائزة الاستخبارات السوفياتيّة الكبرى، وهي "مجموعة الخمسة"، من الجواسيس العاملين في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ في بريطانيا العظمى: فيلبي، وماكلين، وبيرجيس، وأنطوني بلانت، وجون كيرنكروس. وفي حسابات مودين، فإنّ فيلبي لم يكن قادرًا على معالجة هروب هذين الرجلين، وهكذا اضطرّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ إلى مواجهة الاختيار بين أهون الشرّين. وكان من الممكن أن يتمكّن أيّ من جوزينكو أو فولكوف من كشف حقيقة فيلبي، وربّما حقيقة آخرين أيضًا، ولكن من بين الرجلين كان فولكوف أشدّ خطورة. وعمل جوزينكو لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتيّة، وهي وكالة استخبارات مستقلّة تمامً، وبالتالي أمكن افتراض القول إنّه ربّما لم يكن يعرف هويّات الجواسيس العاملين في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ.

ومن ناحية أخرى، فإنّ فولكوف كان مسؤولاً بارزًا في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ. وكان، على ما يبدو، يعرف بعض الدلائل عن اختراق جهاز الاستخبارات السوفياتيّ للاستخبارات البريطانيّة. ولم يكن أمام مودين وفيلبي أيّ خيار: فولكوف كان الخطر الأعظم المحتمل، ولذلك، فبالنظر إلى أنّه كان يتولّى منصب رئيس القسم التاسع، قسم مكافحة التخريب والعمليّات الاستخباراتيّة، فإنّ فيلبي كان معنيًّا باستجواب فولكوف شخصيًّا. وفي غضون ذلك، تقرّر ترك عمليّة استجواب جوزينكو إلى مسؤولين آخرين، فيما عكف مودين وفيلبي على مراقبة الاستجواب.

في ظلّ معرفته المسبقة بمحاولة فولكوف الهروب، تمكّن جهاز الاستخبارات السوفياتيّ من القضاء على ذلك الخطر، فيما قضى وقتًا سعيدًا حين قيامه بجولة إلى استانبول. ولم يتمّ الكشف أبدًا عمّا تعرّض له فولكوف، ولكنّ الشاهدين على ذلك رأيا جثّة... ملفوفة بضماد من الرأس إلى القدم، في طريقها إلى طائرة مدنيّة سوفياتيّة في استانبول، في ذلك اليوم الذي اختفى فيه فولكوف فجأة. وردّ فيلبي قيام الروس بإلقاء القبض المزعوم على فولكوف إلى "إغفالهم للاعتبارات الأمنيّة".

وكما اتّضح في وقت لاحق، فإنّ جوزينكو لم يكن يملك أيّ فكرة حقيقيّة عن عمليّات جهاز الاستخبارات السوفياتيّ في بريطانيا العظمى، ولذلك فمع اختفاء فولكوف، أصبح فيلبي حرًّا في بلده.

وفي نهاية الحرب، صعد نجم فيلبي بثبات في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 الذي لم يكن يعرف شيئًا عن قيامه بتسريب معلومات إستخباراتيّة إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ عن عمليّات جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 لاختراق الكوماندوس المعادين للشيوعيّة في دول البلطيق. وكان هناك عدد آخر من عمليّات

استخباراتيّة مماثلة في أوروبّا الشرقيّة، ولكنّ أحدًا لم يجعل فيلبي مرتبطًا حتّى الآن على الأقلّ، بقائمة الكوارث الاستخباراتيّة المثيرة للاشمئزاز.

كان هناك حديث داخل جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 حول إمكانيّة قيام فيلبي بخلافة رئيسه "ستيوارت مينزيس"، وهو تسلسل أحداث أصبح مؤكّدًا في العام ١٩٤٩، حينما تقرّر تسمية فيلبي لواحد من أهمّ المناصب في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، وهو رئيس قسم واشنطن العاصمة. وهناك تضمّنت مهمّته القيام بمهامّ حلقة الاتّصال بين MI-6 والاستخبارات الأميركيّة. ولم يكن جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يحلم أبدًا بإمكانيّة حدوث مثل هذه الفرصة. ذلك أنّ فيلبي أصبح في وضع يمكّنه من تسريب ليس فقط أسرار جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، بل وأيضًا أسرار وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. ولم يكد فيلبي أن ينزل في بيت في واشنطن، حتّى عرف السرّ الأكبر في أميركا: الإسم الرمزي "فينونا"، وهو عمليّة فكّ رموز الشيفرة الموجّهة ضدّ حركة الاتّصالات المتراكمة وغير المنجزة للاستخبارات السوفياتيّة عن طريق الراديو خلال الحرب من لندن ونيو يورك وواشنطن. وظنّ الأميركيّون والبريطانيّون، وكانوا على حقّ في ظنّهم، أنّ هذا الحجم الكبير من الأعمال المتراكمة جاء بسبب عدم قدرة موسكو على تنظيم تدفّق المعلومات الاستخباراتيّة من جميع جواسيسها النافعين في وقت تعرّض فيه النظام الشيوعيّ لأعظم الأخطار. وهذه العمليّة بدأت مع إعادة كتابة دفتر رموز الشيفرة الذي احترق جزئيًّا في فينلندا. وهي العمليّة التي أدّت إلى توفير خيوط رئيسيّة عديدة نحو فكّ رموز شيفرة الاستخبارات السوفياتيّة. وكانت عمليّة طويلة ومملّة، حتّى أنّها استغرقت أكثر من ثلاثين عامًا، ولكنّ الدلائل المبكّرة كانت باعثة على الحذر: الروس على ما يبدو، لديهم مئات الجواسيس النافعين في الولايات المتّحدة وبريطانيا العظمى.

كان هؤلاء الجواسيس النافعون مسجّلين فقط بأسمائهم الرمزيّة، ولكنّ المسؤولين عن فكّ رموز الشيفرة كانوا قادرين على مقارنة الأسماء الرمزسّة بدلائل أخرى وردت في رسائل مختلفة. وهؤلاء المسؤولون ركّزوا جهودهم على العناصر الأهمّ، وعلى الأخصّ على ذلك الجاسوس النافع الذي سرّب معلومات عن مشروع القنبلة الذريّة، والذي اتّضح في وقت لاحق أنّه "كلاوس فوتش"، وأيضًا من وجهة نظر فيلبي الباعثة على الحذر، على ذلك الجاسوس النافع البريطانيّ صاحب المنصب الرفيع، الذي كان يحمل الإسم الرمزيّ "هومر"، والذي سرّب معلومات إستخباراتيّة رفيعة المستوى من وزارة الخارجيّة البريطانيّة. وهناك دليل غير مؤكّد جاء في رسالة، وهو أنّ هومر سافر إلى نيو يورك من واشنطن في وقت ما لزيارة زوجته الحامل والمريضة، وهو دليل أشار على نحو مباشر إلى دبلوماسيّ بريطانيّ يعمل في السفارة البريطانيّة في واشنطن: "دونالد ماكلين".

من واقع كونه رئيس مكتب الاتّصالات الاستخباراتيّة البريطانيّة في واشنطن، فإنّ فيلبي كان جزءًا من فريق الاستخبارات الذي عكف على مراقبة مدى تقدّم عمليّة "فينونا" لفكّ رموز الشيفرة السوفياتيّة، وبالتالي كان قادرًا على تحذير جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB من أنّه مع حلول سنة ١٩٥١، فإنّ المسؤولين عن حلّ رموز الشيفرة السوفياتيّة سوف يتمكّنون من توجيه الاتّهامات إلى ماكلين. وبهذا التحذير، قرّر "يوري مودين" أنّ ملكلين، الذي اقترب من حدّ الإصابة بانهيار عصبيّ نتيجة التوتّر الناشئ عن حياته المزدوجة، يجب ذهابه إلى موسكو قبل انهياره تحت ضغوط الاستجواب من جانب المسؤولين البريطانيّين عن مكافحة التجسّس. وقام مودين بترتيب هذا الذهاب جيّدًا، ولكن في غضون ذلك وقعت حادثة لم يكن يتوقّعها، وكان من شأنها وضع حدّ للاستفادة من جهود فيلبي.

طلب مودين من واحد من أهمّ جواسيسه النافعين، "غاي بيرغيس"، القيام بمهمّة إخراج ماكلين من بريطانيا العظمى. وكان بيرغيس صديقًا مقرّبًا من ماكلين، ولكنّه كان أيضًا صديقًا مقرّبًا من فيلبي. وكان نزل في بيت فيلبي لمدّة قصيرة من الوقت أثناء وجود فيلبي في مهمّته في واشنطن، وكان مثل هذا الارتباط سيّئًا للغاية، ولكن حينما قرّر بيرغيس فجأة وعلى نحو غامض مصاحبة ماكلين في ذهابه شرقًا، عمل هذا القرار على إثارة الريبة والشكّ من حول فيلبي على اعتبار أنّه "الرجل الثالث" المفترض الذي حذّر ماكلين من مغبّة إلقاء القبض عليه.

من وجهة نظر جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، فهذه كارثة حقيقيّة، ذلك أنّه في اللحظة التي تولّى فيها فيلبي منصبًا إستخباريًّا رفيعًا وكاد أن يصبح رئيسًا لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، فإنّ أفعال بيرغيس اللافتة للنظر لغرابتها أفشلت كلّ شيء. وبعد شهور قليلة، أرسل مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA "ولتر بيديل سميث" ملاحظة جافّة إلى مدير جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 "ستيوارت مينزيس": "إستدعِ فيلبي، وإلاّ فسوف نقطع العلاقات الاستخباراتيّة".

لذلك، أصبحت خدمة فيلبي الحقيقيّة لجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في نهايتها، وقام جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بوضع فيلبي تحت المراقبة، ولكن أيضًا تحت سحابة من الشكّ، ولم يعد في وضع يمكنّه من تزويد تلك المعلومات الاستخباراتيّة التي كان جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يتوقّعها. وبالإضافة إلى هذا، فإنّ فيلبي تعرّض لمهاجمة المسؤولين عن مكافحة الاستخبارات في بريطانيا وأميركا، الذين ظنّوا أنّه الجاسوس رفيع المستوى صاحب الإسم الرمزي "ستانلي" المذكور في عمليّة "فينونا" لفكّ رموز الشيفرة السوفياتيّة. والشيء الذي عمل على

زيادة الطين بلّة، هو أنّ عددًا كبيرًا من الهاربين السوفيات قدّموا دلائل كثيرة تشير إليه.

مع حلول عام ١٩٦١، أصبح من الواضح أنّ الشبكة بدأت تشتدّ ضيقًا، ذلك أنّ "جورج بلاك"، جاسوس الجائزة الثانية العامل في الظلام ولحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB داخل الاستخبارات البريطانيّة، جرى إلقاء القبض عليه، وأدلى باعترافات كاملة، وذكر بعض الدلائل التي تشير إلى فيلبي.

هنا جاء دور "مودين" في العمل. وفي ظلّ تلقّيه معلومات عن خطّة جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 لمواجهة فيلبي وتوفير الحماية له مقابل تقديم اعتراف كامل، ولكن أمر نقل هذه المعلومات الاستخباراتيّة الحيويّة إلى مودين يبقى مجهولاً... قرّر مودين التوجّه إلى بيروت، حيث كان فيلبي يعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 تحت غطاء مراسل صحافيّ، وقامت خطّة مودين على وجوب خضوع فيلبي لعمليّة استجواب يقوم بها جهاز MI-6 من أجل معرفة مدى صدق معلومات جهاز MI-6 عنه، ثمّ الهروب إلى موسكو بمجرّد قيام القائمين على الاستجواب برفع أوراقهم الواضحة. وقدّم فيلبي اعترافًا محدودًا، ذلك أنّه اعترف فقط بما عرف أن جهاز MI-6 كان قد عرفه من قبل. وفي ٢٣ كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٣، انسحب من حفل غداء واختفى. وبعد ستّة أسابيع، أعلنت موسكو عن منحه حقّ اللجوء السياسيّ...

لو كان فيلبي يظنّ أنّ هذا الهروب الأشدّ إثارة للحساسيّة في تاريخ التجسّس يمكن أن يؤدّي إلى نوع من منصب رفيع المستوى في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، فربّما كان تلقّى صحوة غير مهذّبة...

كان الروس على استعداد لتقديم شقّة كبيرة ومبلغًا كبيرًا من النقود لفيلبي للعيش عليه، ولكنّهم لم يكونوا يفكّرون في استخدام فيلبي في أيّ عمليّة إستخباراتيّة. والحقيقة البسيطة هي أنّهم لم يكونوا يثقون به على نحو تام. وفي حسابات جهاز الاستخبارات السوفياتيّ، فلم يكن هناك أيّ ضمان يؤكّد أنّ فيلبي لا يفكّر في التحوّل إلى الطرف الآخر، وأنّه لا يمرّ في مرحلة محاولة تكرار تجربة ما قدّمه إلى موسكو مع الغرب... وبناء على ذلك، أصبح فيلبي منفيًّا بريطانيًّا، يتجوّل في أنحاء موسكو مع نسخة من جريدة "التايمز" اللندنيّة، وهي محاولة مقصودة من جانب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB لجعل فيلبي منهمكًا في مباريات لعبة الكركيت البريطانيّة التي يشجّعها... وكان فيلبي شخصيّة مهذّبة وسكّيرًا مدمنًا، ومبديًا استعدادًا دائمًا لإجراء مقابلات صحافيّة مع المراسلين الصحافيّين الزائرين. وعاش فيلبي في ظلّ الاحترام الكبير الذي أظهره جميع المسؤولين السوفيات تجاهه.

أبقى فيلبي على مراسلات ناشطة مع بعض أصدقائه السابقين البريطانيّين، وعلى الأخصّ الروائي والزميل السابق لفيلبي في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 "غرهام غرين"، الذي جعل شخصيّة فيلبي الشخصيّة الرئيسيّة في رواياته "العامل الإنساني".

بقيت علاقة فيلبي مع جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB على حالها حتّى سنة ١٩٨٠، وذلك حينما قام رئيس جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB "يوري أندروبوف" بتوجيه دعوة إليه كمستشار للعمليّات الاستخباراتيّة في بريطانيا العظمى... وليس من المعروف ماهيّة النصيحة التي تمكّن فيلبي من تقديمها، ولكن فرصة العودة مرّة أخرى إلى لعبة الاستخبارات بدت كأنّها عملت على تقوية عزيمته، ولو أنّ ذلك كان لمدّة قصيرة من الوقت. وأصبح فيلبي مريضًا، ولم يظهر في أيّ مكان بدون زوج من

القفازات البيضاء لحماية يديه من حساسيّة شديدة في الجلد. وكان ذلك واحدًا من بين أمراض أخرى أضعفت قوّته تدريجًا، ومات في أيّار - مايو ١٩٨٨.

لم يدّخر السوفيات أيّ جهود لتكريم أعظم الجواسيس المزدوجين، أو العاملين في الظلام، في تاريخهم... وكانت هناك صلاة جنازة حضرها كلّ مسؤول سياسيّ واستخباراتي بارز في الاتّحاد السوفياتيّ، ثمّ صلاة قبر مع تكريم عسكريّ كامل. وكان فيلبي أصرّ من قبل على دفن جثّته في التراب السوفياتيّ، وجرى إنزال جثّته في القبر مع ميداليّات على صدره، على الطريقة الروسيّة.

كان من أهمّ تلك الميداليّات "وسام لينين"، وهو أعلى وسام في الاتّحاد السوفياتيّ. وفي سنواته الأخيرة، كان فيلبي مغرمًا بالتفاخر بميداليّاته، ولكن مثله مثل الرجل الإنكليزي، فهو ظلّ ينتظر موته، وعرف يقينًا أنّ الموت أدنى منزلة من كرامة الإنسان[1]...

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص٢٦ ـ ٣٧؛ Page Bruce, Knightley Phillip, Leitch David, *Philby, L'Intelligence Service aux Mains d'un Agent Soviétique*, Ed. Robert Lafont (Paris,1968)

فريتز كودرز: الرَّجُل المُخَادع

من خلال أسلوبه المهذّب في التعامل مع الأفراد، القائم على التملّق والمداهنة، وسحره النمساويّ، أصبح هذا الرجل القصير القامة، والممتلئ الجسم، وصاحب الشعر المتموّج، نموذجًا للرجل الأوروبّي المعروف في ألمانيا بالرجل المخادع. ومع حلول العام ١٩٣٩، أصبح فريتز كودرز، الرجل الذي عاش خفيف الظلّ خلال الجزء الأعظم من الستّة وثلاثين عامًا الأولى من حياته، واحدًا من أعظم المخادعين في أوروبّا. وكان كودرز مستعدًّا لتطوير أسلوبه في العمل، وهو أسلوب تحوّل إلى أعظم أساليب الخداع في تاريخ التجسّس.

في ما يتعلّق بخلفيّته، فإنّ فريتز كودرز بدا رجلاً مثاليًّا في عالم التجسّس الأوروبّي البيزنطي السابق على الحرب العالميّة الثانية. وكودرز ولد في فيينّا سنة ١٩٠٣ من أمّ يهوديّة وأب كاثوليكيّ (وهي حقيقة سوف تنطوي على أهميّة بالغة في وقت لاحق)... واشتغل صحافيًّا في حقبة الشباب في عشرينات القرن العشرين. ومع ذلك، فما لبث أن وجد أنّ هناك نقودًا كثيرة يمكن تكوينها من طريق الخداع والكسب غير المشروع: عقد صفقات تجاريّة وهميّة، وبيع بطاقات هويّات مزوّرة، وإقناع عدد كبير من المسؤولين في البلدان الأوروبيّة بالفساد والرشوة مقابل جزء من النقود... ولأنّ فريتز كودرز كان يقوم بزيارات متكرّرة إلى معظم عواصم أوروبّا، من واقع تنشيط صفقاته التجاريّة العديدة، فمن الطبيعيّ أن يتمكّن من تكوين شبكة من الاتّصالات الحكوميّة من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسّط.

لم يمض زمن طويل حتّى سعى جهاز استخبارات أو آخر إلى اختيار هذا الرجل المخادع جاسوسًا نافعًا. وجاءت اللحظة في سنة ١٩٣٩ حينما قامت شخصيّة غامضة، "أندريه تورخول"، بترشيح كودرز إلى عضويّة شبكته، وهي شبكة كبيرة تضمّ بالدرجة الأولى الأشخاص المبعدين من روسيا البيضاء، وتقوم بجمع المعلومات الاستخباريّة من كافّة أنحاء أوروبّا، وحتّى من داخل الاتّحاد السوفياتيّ نفسه، أو هذا على الأقلّ ما زعمه تورخول أمام صاحب العمل الظاهريّ، وهو وكالة الاستخبارات الألمانيّة. وفي واقع الأمر، فإنّ ولاء تورخول الحقيقيّ كان للاستخبارات السوفياتيّة التي اختارته قبل حوالى ٢٠ عامًا... وكان تورخول يُطلع موسكو باستمرار على عمليّات الاستخبارات الألمانيّة، غير أنّ اختيار كودرز جعل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ يفكّر في أمر لعبة أعظم، وهي خداع ألمانيا النازيّة بمظهر كاذب.

هذا الأمر، استدعى وضع خطّة جريئة وطويلة الأجل: خلال مدّة زمنيّة معيّنة يجب مشاركة كودرز في المصدر الرئيسيّ للمعلومات الاستخباراتيّة في وكالة الاستخبارات الألمانيّة حول الشؤون السوفياتيّة. وفي بادئ الأمر، يجب تزويده بمعلومات استخباراتيّة متدنّية الدرجة من موسكو، وذلك إلى الحدّ الذي يتمكّن معه من بناء الثقة الألمانيّة به. وفي اللحظة المناسبة، يتمّ تزويده بمعلومات إستخباراتيّة رئيسيّة مخادعة، بحيث يتعذّر على الاستخبارات الألمانيّة تجاهلها. ولم يكن أيّ من تورخول أو كودرز يعرف مدى النتائج التي يمكن أن تنشأ عن مثل هذه المعلومات الاستخباراتيّة المخادعة.

سعى تورخول شيئًا فشيئًا إلى تثبيت أقدام كودرز، الذي عمل تحت الإسم المستعار "ريتشارد كلات"، كرجل أعمال. وبمساعدة من موسكو بدأ كودرز في تقديم تيّار من معلومات إستخباراتيّة من الدرجة المتوسّطة إلى وكالة الاستخبارات الألمانيّة،

وقام كودرز بتعزيز سمعته المتنامية من خلال بعض العمليّات التي اخترعها بنفسه، بما فيها عمليّة سرقة أوراق دبلوماسيّة هامّة من مكتب القنصل الأميركيّ في زغرب في يوغوسلافيا...

في هذه الأثناء، كان كودرز يتقاضى راتبًا شهريًّا كبيرًا من وكالة الاستخبارات الألمانيّة، ولكن، كما الألمان يعرفون، فإنّ كودرز أراد شيئًا آخر: ورقة لا تقدّر بثمن، وهذه الورقة هي "شهادة الانتماء إلى الجنس الآرّي"... وهي وثيقة تصدرها الحكومة الألمانيّة وتشهد على أنّ حاملها، الذي يفترض أن يكون يهوديًّا، خضع للتحقيق من جانب خبراء في "العلاقات العرقيّة"، واتّضح أنّه ينتمي في الواقع إلى "الجنس الآرّي"... وفي ما يتعلّق بالأشخاص المولودين من زواج مختلط، مثل كودرز، فإنّ مثل هذه الورقة يمكن أن تصون حياته، وبدونها، يمكن أن يتعرّض في أيّ لحظة إلى إلقاء القبض عليه وإرساله إلى معسكرات الموت...

لم يكن هذا مطلبًا سهلاً، ذلك أنّ النازيّين أخذوا مسألة تحديد من هو اليهوديّ على محمل الجدّ، حتّى أنّ كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات الألمانيّة لم يملكوا نفوذًا في هذه المسائل. ولم يكن باستطاعة وكالة الاستخبارات الألمانيّة تسهيل حصول كودرز على مثل هذه الشهادة، ولكن كان باستطاعتها أن تحميه من الغستابو، البوليس السرّي النازيّ، وفي ذلك انتهاك لأشدّ القيود في ألمانيا النازيّة: عدم السماح لليهود بالعمل في أيّ وكالة استخبارات ألمانيّة... والغريب في الأمر هو أنّ كودرز لم يتمتّع بحماية وكالة الاستخبارات الألمانيّة فحسب، بل تمتّع هذا الجاسوس أيضًا بحماية وكالة الاستخبارات النازيّة في ألمانيا...

لم يكن من الصعب التفكير في هذا الأمر ومعرفة الأسباب الموجبة إلى ذلك. وببساطة، فإنّ كودرز اعتبر بمثابة واحد من أهمّ مصادر الاستخبارات الألمانيّة في

الشؤون السوفياتيّة، وهو مصدر على جانب كبير من حيث الأهميّة، حتّى أنّ المخاطرة بتوظيف يهوديّ، وهي مخاطرة قاتلة في ألمانيا النازيّة، كان لها ما يبرّرها في ما يتّصل بالنتائج المتوقّعة. واستمدّ كودرز سمعته الجيّدة من خلال خطّة على مراحل وضعها تورخول، الذي زعم أمام المسؤولين في وكالة الاستخبارات الألمانيّة أنّ كودرز لديه شبكة من الاتّصالات داخل الاتّحاد السوفياتيّ تمتدّ إلى مستوى القيادة العسكريّة السوفياتيّة العليا. وكان توقيت هذا الخداع حاسمًا، ذلك أنّ الألمان قاموا باجتياح الاتّحاد السوفياتيّ، وكانوا في أشدّ الحاجة إلى أيّ معلومات استخباراتيّة عن العسكريّين السوفيات. وقال كودرز إنّه يمكنه توفير مثل هذه المعلومات، ولكن شريطة استخدام جهاز إرسال خاصّ به، وتقديم المعلومات إلى كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات الألمانيّة مباشرة ودون وجود وسطاء، وعدم وجوب الإفصاح عن مصادر تلك المعلومات...

وافقت وكالة الاستخبارات الألمانيّة شاكرة على هذه الشروط، وقامت بإرسال كودرز إلى صوفيا في بلغاريا مع جهاز الإرسال الخاصّ به. ومنذ اللحظة الأولى، برهن كودرز، صاحب الإسم الرمزيّ "ماكس"، على كونه ذخرًا عظيمًا، وقام بتزويد وكالة الاستخبارات الألمانيّة بسلسلة متكاملة من التقارير حول التشكيلات والمواقع العسكريّة السوفياتيّة. وما أثار دهشة الألمان هو أنّ هذه التقارير كانت صحيحة على نحو صادق، حتّى أنّهم تمكّنوا بسببها من تحقيق انتصارات تكتيكيّة رائعة عديدة.

مع حلول عام ١٩٤٢، أصبح كودرز المصدر الوحيد والأهمّ للمعلومات الاستخباراتيّة الألمانيّة في الشؤون العسكريّة السوفياتيّة، حتّى أنّ زعماء الاستخبارات العسكريّة في الجيش الألمانيّ، و"ولهيلم كناريس" من وكالة الاستخبارات الألمانيّة، وصفوا "ماكس" بأنّه ذهب خالص.

مع هذا، لم يكن جميع المسؤولين الألمان في وكالة الاستخبارات الألمانيّة في صوفيا مرتاحين لكودرز، بل إنّ بعضهم تشكّك في أمره منذ البداية، وتعاظمت شكوكهم تجاهه حينما فكّروا في أمر عمليّاته: من أين يأتي بكلّ هذه المعلومات الاستخباراتيّة؟ وكان كودرز يزعم أنّ مصادره تشمل كبار الضبّاط في القيادة السوفياتيّة العليا، كما أنّ لديه مصادر مقرّبة من ستالين نفسه... وهذه المصادر كانت ترسل معلومات إستخباراتيّة شديدة السريّة إلى كودرز، وفي الغالب بعد لحظات من اتّخاذ القرارات داخل مجلس الحرب الستالينيّ.

في نظر أيّ مسؤول في وكالة الاستخبارات الألمانيّة لديه خبرة في شؤون دولة ستالين البوليسيّة، بإجراءاتها الأمنيّة التي لم يسبق لها مثيل، وعلى الأخصّ في أوقات الحرب، فإنّ مزاعم كودرز كانت تبدو جوفاء. وقام مسؤولون في وكالة الاستخبارات الألمانيّة في صوفيا بمراقبة المعلومات الاستخباراتيّة التي كان يرسلها كودرز، واتّضح لهم أنّ كميّة المعلومات الاستخباراتيّة لا تتناسب مع حجم المعلومات الاستخباراتيّة التي يزعم كودرز أنّه يستلمها... وعلاوة على ذلك، فإنّ الفكرة القائلة بأنّ الخائنين في القيادة العليا السوفياتيّة يرتكبون غلطة قاتلة حين إرسال خياناتهم من الكرملين مباشرة ربّما تعمل على تقليص الثقة بهم...

انتهى رجال وكالة الاستخبارات الألمانيّة في صوفيا في غاية الأمر إلى استنتاج مؤدّاه أنّ كودرز جاسوس سوفياتيّ يعمل في الظلام، ومزروع في الاستخبارات الألمانيّة بهدف محدّد، وهو تمرير خدعة إستخبارانيّة إستراتيجيّة رفيعة الدرجة.

ولكن بالرغم من شكواهم إلى برلين، فإنّ ثقة المسؤولين في الاستخبارات الألمانيّة بالمعلومات الاستخباراتيّة التي يرسلها كودرز لهم ظلّت ثابتة. وحتّى أشدّ الناقدين له

في صوفيا اضطرّوا إلى الاعتراف بأنّ معلوماته الاستخباراتيّة، أيًّا كان مصدرها، لا يرقى إليها الشكّ. أين الخداع إذن؟

لم يكن الألمان يعرفون أنّ الروس يفكّرون في أشياء أخرى، وينتظرون اللحظة المناسبة. وكان الروس قرّروا بدم بارد التضحية بوحدات عسكريّة كاملة من أجل تعزيز مكانة ماكس، وأبدوا استعدادًا للتضحية بخطوط دفاعيّة عسكريّة كاملة بهدف تهيئة الظروف لتنفيذ المؤامرة الاستخباراتيّة الكبرى. وفي أواخر شتاء عام ١٩٤٢، تحرّك الروس أخيرًا: كودرز أرسل معلومات إستخباراتيّة مفادها أنّ مصادره أبلغته أنّ هناك خطّة روسيّة لمواجهة الجيش السادس الألمانيّ في ستالينغراد، وأنّ أوامر ستالين قضت بوجوب الصمود أيًّا كانت التكاليف. وأرسل كودرز تفاصيل أخرى: العدد الفعليّ للوحدات العسكريّة السوفياتيّة المخصّصة للمعركة، وخطّة إرسال وحدات عسكريّة محمولة عبر نهر الفولغا في الليل، وأسماء الجنرالات المسؤولين عن مهمّة طرد الألمان من المدينة...

بدت هذه المعلومات الاستخباراتيّة على جانب كبير من الأهميّة، ولكنّها، كما اكتشفت وكالة الاستخبارات الألمانيّة، معلومات ناقصة:

كودرز لم يكن يعرف، بطريقة ما، أنّ الخطّة السوفياتيّة تضمّنت حركة التفاف ضخمة لاجتياح المواقع العسكريّة في غرب وشرق المدينة حيث الجبهات الضعيفة من القوّات الهنغاريّة والرومانيّة المتحالفة مع الألمان، وتطويق الجيش السادس الألمانيّ وقوامه ربع مليون رجل. وفي غضون شهر، تمكّنت القوّات السوفياتيّة من تطويق ستالينغراد، وإجبار ما بقي من الجيش السادس الألمانيّ فيها على الاستسلام، وهي هزيمة ذاقت ألمانيا النازيّة مرارتها، ولم يكتب لها الشفاء منها.

برغم هذه الكارثة، ظلّت مكانة ماكس عالية. ولكن في العام ١٩٤٤، أسفرت عمليّة تقديم معلومات إستخباراتيّة مخادعة أخرى بالغة الأهميّة عن نهاية مهنة كودرز كجاسوس سرّي لألمانيا. وتعلّقت هذه العمليّة بقرار القيادة العليا السوفياتيّة القيام بهجوم عسكريّ رئيس يستهدف أخيرًا تشتيت القوّة العسكريّة الألمانيّة في الشرق. وكشف ماكس عن أنّ اتّجاه هذا الهجوم هو المناطق الجنوبيّة من أوكرانيا، وهدفه النهائيّ هو احتلال البلقان. وبالنتيجة، حشد الألمان قوّاتهم في الجنوب، ولكن حينما وقعت الضربة، جاءت في الجبهة الوسطى، على بعد أكثر من ٤٠٠ ميل، وقُتل حوالى نصف مليون جندي ألمانيّ في هذه المذبحة، ولم تنته حتّى شقّ الروس طريقهم نحو برلين بعد شهور قليلة...

في هذه الأثناء، بدا كودرز منهكًا ومترنّحًا عند الحافّة، على الأقلّ أمام المسؤولين الألمان في صوفيا، ذلك أنّهم اكتشفوا أنّ كودرز يدير عمليّات تجاريّة خاصّة إلى جانب عمله، ويقدّم رشاوى للبوليس الغنغاري للتستّر على بعض عمليّاته المشبوهة، وهذا أمر أجبرهم على إعادة النظر في كلّ عمليّات ماكس... وفي النهاية، لم يعد هناك شكّ: ماكس، جاسوس سوفياتيّ يعمل في الظلام.

من المثير للانتباه هو أنّ هناك جهاز استخبارات واحد خارج الاتّحاد السوفياتيّ انتهى في العام ١٩٤٣ إلى الاستنتاج نفسه: جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6. وبفضل استخدام عمليّة "أولترا" لفكّ الرموز، تمكّن البريطانيّون من قراءة المعلومات الاستخباراتيّة الألمانيّة المتدفّقة بين صوفيا وبرلين. وفي بادئ الأمر، شعر البريطانيّون بالقلق، ذلك أنّ تفاصيل الأسرار العسكريّة السوفياتيّة أشارت إلى أنّ الألمان لديهم مصدر، أو مصادر، عند أعلى المستويات في القيادة العسكريّة السوفياتيّة، يقوم بتقديم معلومات إستخباراتيّة رفيعة الدرجة عن طريق الراديو إلى صوفيا، حيث يقوم عميل

آخر من وكالة الاستخبارات الألمانيّة، المعروف باسم ماكس، فقط، بنقلها إلى برلين... وبسبب شعورهم بالقلق، قام المسؤولون في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بإبلاغ السوفيات أنّ هناك تسربًا في المعلومات الاستخباراتيّة، غير أنّ موسكو لم تظهر اكتراثًا بهذا الأمر... وتوصّل جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 إلى استنتاج، وهو على صواب في استنتاجه، مؤدّاه أنّ عدم الاكتراث السوفياتيّ لا يعني غير أنّ ماكس كان جزءًا من عمليّة خداع سوفياتيّة متكاملة.

لم تكن وكالة الاستخبارات الألمانيّة تملك ميزة استخدام عمليّة "أولترا" لفكّ الرموز، ولكنّها مع ذلك استنتجت أنّ ماكس يعمل لصالح الروس. وفي ظلّ الظروف العاديّة، فإنّ هذا يعني الحكم على كودرز بالموت... وفي ذلك الوقت، مع ذلك، أمكن إنقاذ حياته، وذلك لأنّ الاستخبارات الألمانيّة كانت في تلك الحقبة في حالة ارتباك. والسبب في ذلك هو أنّه بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ضدّ هتلر، في تمّوز - يوليو ١٩٤٤، وهي محاولة شارك فيها كناريس نفسه، تقرّر حلّ وكالة الاستخبارات الألمانيّة، وتولّت وكالة الاستخبارات النازيّة مسؤوليّاتها. ومن الغريب هو أنّ وكالة الاستخبارات النازيّة استمرّت في الاعتقاد بأنّ كودرز رجل صادق، وعقدت العزم على إنقاذ حياته، ونقلته إلى محطّة الاستخبارات في هنغاريا في محاولة للتهرّب من القانون الذي يحظّر توظيف العملاء اليهود في أجهزة الاستخبارات الألمانيّة. ولكن هذه المحاولة فشلت، ذلك أنّ هتلر، حينما عرف بتوظيف عميل يهوديّ، أمر بإرسال كودرز إلى معسكر الاعتقال... واستدعى هذا الأمر تدخّلاً شخصيًّا من جانب الجنرال "هانز غودريان" رئيس الأركان العامّة، لإلغائه، وتقرّر وضع كودرز في أحد السجون العسكريّة الألمانيّة في محاولة للمحافظة على حياته. وفي أيّار - مايو ١٩٤٥، وفي وقت بدأت فيه ألمانيا النازيّة في الانهيار، أُطلق سراح كودرز، وهرب إلى النمسا

تحت حماية تورخول، وبعد بضعة أسابيع، أُلقي القبض عليه مرّة أخرى، من جانب الأميركيّين هذه المرّة، بوصفه عميلاً نازيًّا...

كانت سنوات حياة الخداع الطويلة أعدّت كودرز إلى مثل هذه الاحتمالات... وفي غضون عام، لم يعمل كودرز على إطلاق سراحه فحسب، بل تمكّن أيضًا من إقناع مكتب الخدمات الاستراتيجيّة باستخدامه في عمليّات ضدّ الاستخبارات السوفياتيّة في النمسا. ولم يشعر السوفيات بالارتياح تجاه هذا التحوّل المفاجئ حينما أبلغهم تورخول بذلك، وفي شباط ـ فبراير ١٩٤٦، حاولوا اختطافه، مستخدمين في ذلك مجموعة من العملاء بملابس البوليس الأميركيّ، ولكنّ عملاء الاستخبارات الأميركيّة أحبطوا المحاولة، وفهم كودرز الرسالة... واختفى.

سنة ١٩٤٦، ظهر كودرز مجدّدًا في فيينّا لكي يعرض خدماته على وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، ولكنّ المسؤولين في الوكالة المتشكّكين في أمره، رفضوا عرضه، واضطرّ كودرز إلى الاختفاء مرّة أخرى.

بعد مضيّ سنوات قليلة، وإثر تحليل سجلّات الاستخبارات الألمانيّة التي أمكن الاستيلاء عليها، عرف الأميركيّون أنّ كودرز كان ماكس المخادع، الجاسوس العامل في الظلام الذي فعل الكثير لإفشال العمليّات العسكريّة الألمانيّة في الجبهة الشرقيّة.

أدّى اختفاء كودرز إلى ترك أسئلة كثيرة متّصلة بعمليّاته الاستخباراتيّة بدون أجوبة، وأهمّها كانت الدوافع إلى ذلك: لماذا وضع كودرز رأسه في فم الأسد لتنفيذ عمليّات إستخباراتيّة مخادعة في وقت كان يعرف فيه حتميّة اكتشاف أمره؟ وليست هناك أيّ دلائل تشير إلى وجود نزعات شيوعيّة عنده، ولذلك فمن الواضح أنّه لم تكن هناك أيّ دوافع سياسيّة محرّكة له. وهل وافق على المساعدة في تدمير ألمانيا النازيّة لأنّه كان يهوديًّا وعاقدًا العزم على الانتقام من محرقة هتلر ضدّ اليهود؟ ربّما، وذلك

على الرغم من أنّه لم يكن يهوديًّا متديّنًا، وكان يصرّ على القول دائمًا إنّه كاثوليكيّ. وهل هي النقود؟ ربّما، وذلك على الرغم من أنّ الأموال السخيّة التي حصل عليها من الألمان شكّلت تعويضًا ضئيلاً لرصاصة ألمانيّة مؤكّدة في الرأس لو اكتشفوا عمليّات المخادعة التي كان يمارسها. وربّما يكون الجواب ببساطة هو أنّ كودرز، الرجل الذي عاش حياته كلّها مخادعًا، لم يستطع مقاومة أسلوبه في العمل. وكودرز نفسه يعرف الجواب، أينما كان[1]!

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص١٧ ـ ٢٥.

أوليغ بنكوفسكي: جنديّ من أجل السَّلام

في مساء آب ـ أغسطس ١٩٦٠، بدأ فصل غير عـاديّ مـن فصـول التجسّس فـي الحرب الباردة بين الدولتين العظميين، الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتي، فوق جسر في موسكو، وذلك حينما اقترب رجل قصير القامة، وممتلئ الجسم، وأحمر الشعر، من اثنين من السائحين الأميركيّين، وأعطاهما ظرفين، وأبلغهما بنقل هذين الظرفين "إلـى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA"، ثمّ اختفى في ظلام الليل.

كان هذان السائحان الشابّان غير واثقين من صـدق نوايا هـذا الرجـل، ذلـك أنّهمـا تلقّيا من قبل تحذيرات مفادها أنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يسعى في بعـض الأحيان إلى خداع السائحين بمثل هـذه اللعبـة المـاكرة، وذلـك مـن خـلال وضـع أشياء مشبوهة في أيديهم، ثمّ إلقاء القبض عليهم بتهمة التجسّس. وبعد التفكير في هـذا الأمـر مليًّا، قرّر هذان السائحان تسليم الظرفين، غير مفتوحين، إلى السفارة الأميركيّة.

وفي السفارة الأميركيّة في موسكو، أدرك الدبلوماسيّ الذي فتح الظرفين أنّ هنـاك شيئًا غير دبلوماسيّ في الأمر. وتضمّنت الرسالة الأولى، التي حملت توقيع "الكولونيـل أوليغ بنكوفسكي"، اقتراحًا بالتجسّس لحسـاب الأمـيركيّين، وذكـرت بعـض المعلومـات العسكريّة... وتضمّنت الرسالة الثانية إرشادات كاملة حول كيفيّة الاتّصال به.

حينما جرى تمرير الرسالتين إلى محطّة وكالة الاسـتخبارات المركزيّـة الأميركيّـة CIA في السفارة، اعتُبرتا في بادئ الأمر بمثابة استفزاز صريح، وربّما محاولة لـزرع

جاسوس زائف في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. ولا ريب في أنّ التحقّق في خلفيّة بنكوفسكي أشار إلى وجوب توخّي الحذر، والسبب في ذلك هو أنّه يمثّل مثلاً يحتذى به لمنهج عمل موظّف سوفياتيّ ملتزم.

انضمّ بنكوفسكي، المولود سنة ١٩١٩ في القوقاز، وابن مهندس مناجم الفحم الحجريّ، إلى الجيش الأحمر في العام ١٩٣٩، وكعضو في الحزب الشيوعيّ بسجلّ نظيف، أصبح مسؤولاً في الحزب عن بثّ المبادئ الحزبيّة في وحدة من الوحدات العسكريّة والتأكّد من صدق ولاء أفرادها للحزب. وحارب في الحروب الروسيّة ـ الفنلنديّة في العام ١٩٤٠، ثمّ خدم خلال الحرب العالميّة الثانية في سلاح المدفعيّة، وعانى من إصابة بجروح جسيمة في حزيران ـ يونيو ١٩٤٤. وبعد سنتين، جرى تجنيد بنكوفسكي الذي اعتُبر واحدًا من ألمع ضبّاط الجيش، للعمل لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU. ومع حلول العام ١٩٥٥، أصبح بنكوفسكي مسؤولاً مقيمًا في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU في أنقرة بتركيا تحت غطاء عسكريّ.

لم يكن من المتصوّر أنّ رجلاً بهذا النوع من سجلّ الإخلاص الشديد للقضيّة السوفياتيّة كان يمكن أن يرغب في أن يصبح جاسوسًا يعمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. وبناء عليه، مضت الوكالة في طريقها بحذر، غير أنّ كلّ الشكوك المبكرة أمكن إزالتها حينما بدأ بنكوفسكي في إرسال فيض من المعلومات الاستخباراتيّة. وبقوله إنّه أراد أن يكون "جنديًا من أجل السلام"، فإنّ بنكوفسكي لم يقم بتصوير كلّ وثيقة سريّة عثر عليها فحسب، بل أضاف كلّ معلوماته الدقيقة الخاصّة به عن التكنولوجيا العسكريّة السوفياتيّة. وإلى حدّ بعيد، قدّم بنكوفسكي معلومات عن أنظمة الكتابة بالشيفرة المعمول بها في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة

GRU، وكشف عن أسماء مئات الأشخاص العاملين لحساب وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU في أنحاء العالم.

كان مجال المعلومات التي كشف عنها بنكوفسكي واسعًا، حتّى أنّ عمليّات وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، أصبحت متشاركة في مصلحة واحدة مع جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، الذي عرض بدوره أحد جواسيسه النافعين، وهو رجل أعمال بريطانيّ يدعى "غريفيل واين"، للعمل كحلقة اتّصال فاصلة للمعلومات الاستخباراتيّة الهائلة التي يقدّمها بنكوفسكي.

قال "مورس أولدفيلد"، رئيس محطّة جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في واشنطن العاصمة، عن بنكوفسكي إنّه "الاستجابة للصلاة"، ولكنّه كان مبالغًا في هذا القول. وجاء ظهور بنكوفسكي في مرحلة صعبة لدى الاستخبارات الغربيّة، وهي مرحلة تميّزت بمواجهة صعوبات متزايدة في تحديد مدى القوّة العسكريّة السوفياتيّة المتعاظمة. وعلى الرغم من التقدّم الذي أمكن إحرازه في عدد الطلعات الجويّة الاستطلاعيّة، فكان هناك جدل مستمرّ حول حجم ومجال وأهميّة القوّة العسكريّة السوفياتيّة. وكان الاهتمام الرئيسيّ منصبًّا على برنامج الصواريخ السوفياتيّة، ذلك أنّ إنجازات موسكو الفضائيّة أشارت إلى حدوث تقدّم في تصميم سلسلة الصواريخ العابرة للقارّات، وكما كان يعرف الجميع، فإنّ الصاروخ القادر على وضع قمر اصطناعيّ أو رجل في الفضاء، يكون قادرًا أيضًا على حمل رؤوس نوويّة ذات قوّة إنفجاريّة هائلة إلى آلاف الأميال. وفي حقيقة الأمر، فإنّ الفكرة المأخوذة عن الصواريخ السوفياتيّة ذات الرؤوس النوويّة، التي عزّزها تباهي رئيس الوزراء السوفياتيّ "نيكيتا خروشوف" بأنّ صواريخه يمكنها "إصابة ذبابة في الفضاء"، أشارت إلى وجود قوّة هائلة أقوى بكثير وأكثر عددًا من قوّة الصواريخ البالستيّة الأميركيّة

العابرة للقارّات. وكانت المزاعم بوجود "فجوة صواريخ" هي التي ساعدت على انتخاب "جون كينيدي" في انتخابات الرئاسة الأميركيّة عام ١٩٦٠.

ما أثار شعورًا بالصدمة عند هؤلاء الذين استخلصوا المعلومات الهامّة في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، من بين المعلومات الاستخباراتيّة الرئيسيّة التي قدّمها بنكوفسكي، هو تلك المعلومات التي أشارت إلى أنّ "فجوة الصواريخ" محض خرافة. وفي حقيقة الأمر، فإنّ ما كشف عنه بنكوفسكي هو أنّ قوّة الصواريخ السوفياتيّة تتألّف من عدد قليل من الصواريخ ولا يعمل أيّ منها في مكان آخر يتجاوز نطاق تصميمها. وتعبير بنكوفسكي الروسيّ غير المهذّب: "هذه الصواريخ لا تستطيع أن تضرب مؤخّرة ثور برؤوسها".

حدثت هذه النظرة العميقة في الوضع الحقيقيّ للصواريخ السوفياتيّة في لندن، حيث جرى إرسال بنكوفسكي في أوائل عام ١٩٦١ كرئيس لوفد تجاريّ سوفياتيّ، وفي الحقيقة كان هذا الوفد عبارة عن مجموعة من رجال وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU المعنيّين بجمع المعلومات الاستخباراتيّة عن التكنولوجيا والصناعة البريطانيّة.

ومع أنّ رجال جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 جعلوا الوفد مشغولاً ببرنامج مرهق من الزيارات إلى المواقع الصناعيّة البريطانيّة خلال جولتهم التي استغرقت ستّة أيّام، فإنّ بنكوفسكي كان ينسحب في كلّ ليلة من الوفد ويلتقي في جناح فندق مع رجال جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ورجال وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA الذين كانوا يقومون باستخلاص المعلومات المفيدة منه. وهناك كان بنكوفسكي يقضي بعض الساعات في تخليص نفسه من عبء أسرار موسكو العسكريّة الأشدّ حيويّة.

وكان رجال الاستخبارات البريطانيّة والأميركيّة أسقطوا من حسابهم من قبل فكرة إمكانيّة أن يكون بنكوفسكي جاسوسًا سوفياتيًّا مزروعًا، والسبب في ذلك هو ذلك الحجم الكبير من المعلومات الاستخباراتيّة الحيويّة التي نقلها إليهم. وهذه الحقيقة أفسحت المجال أمام البحث في دوافع بنكوفسكي المفضية إلى ذلك. وكما اكتشف رجال الاستخبارات البريطانيّة والأميركيّة، فبرغم سجلّه الخالي من الأخطاء، فإنّ بنكوفسكي كان في الواقع يعاني من متاعب خطيرة.

هذه المتاعب بدأت بهدوء كافٍ... وكجزء من البحث الشامل في خلفيّة بنكوفسكي إثر تولية مناصب هامّة في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU، قام رجال مكافحة الاستخبارات في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بالبحث في خلفيّته العائليّة. وما أثار شعورًا بخيبة الأمل عند بنكوفسكي هو أنّهم اكتشفوا أنّ أباه، الذي زعم أنّه مات في العام ١٩٢٠ بسبب إصابته بالتيفوس، كما أبلغته أمّه، مات في الحقيقة أثناء قتاله في صفوف الجيش الأبيض في الحرب الأهليّة الروسيّة سنة ١٩١٩. وتوصّلت العقول الميّالة إلى الشكّ والارتياب في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB إلى استنتاجين، ولم يكن أيّهما يخدم بنكوفسكي: الأوّل هو أنّ حقيقة معاداة الأب للشيوعيّة أثارت تكهّنات حول إمكانيّة عدم إخلاص وولاء الإبن للشيوعيّة؛ والثاني هو أنّ حقيقة حرص بنكوفسكي على إخفاء ظروف موت أبيه أثارت احتمالات وجود دوافع أخرى أشدّ خطورة...

كنتيجة لهذه الشكوك، توقّفت مهنة بنكوفسكي عن الاستمراريّة، وتقرّر إلغاء مهمّة كانت مقرّرة من قبل إلى الهند، كما واجه نتائج أشدّ خطورة من ذلك... وفي ظلّ تخلّصه المتعاظم من أوهام النظام السوفياتيّ، بدأ بنكوفسكي في غرس شعور بكراهية شديدة تجاه النظام، وهي كراهية حملته على اتّباع منهج خطير في العمل. وكما أبلغ

بنكوفسكي رجال الاستخبارات البريطانيّة والأميركيّة الذين قاموا باستخلاص المعلومات المفيدة منه، فهو أصبح مقتنعًا شيئًا فشيئًا بأنّ الحكومة السوفياتيّة تنوي الاستعداد للقيام بحرب هجوميّة في وقت ما في المستقبل، وحينما يشعر السوفيات بأنّهم مستعدّون عسكريًّا، فسوف يواجهون الغرب في معركة فاصلة كبرى لتحديد ما إذا كانت الشيوعيّة أم الرأسماليّة هي التي سوف تحكم العالم.

أثارت هذه الحماسة التي تميّزت بها رؤية بنكوفسكي الرائعة إلى الأشياء، ودوره الذي تصوّره في كيفيّة إنقاذ العالم، إنتباه الحاضرين إلى عدالة هذه الصفة من جنون العظمة. وهناك دلائل أخرى على خيانة بنكوفسكي: فإنّ بنكوفسكي طلب عقد اجتماع إلى الملكة إليزابيث، وقد حُرم من مثل هذا الاجتماع مع أنّه سُمح له باجتماع قصير إلى رئيس جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 وقتئذ "ديك وايت"، ثمّ طلب عقد اجتماع وجه لوجه مع الرئيس الأميركيّ جون كينيدي، وقد حُرم من مثل هذا الاجتماع بحجّة ضيق الوقت... وكمحاولة لاسترضائه، قرّر رجال الاستخبارات في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA تفصيل بدلتين عسكريّتين برتبة كولونيل في الجيش البريطاني والجيش الأميركيّ وتقديمهما كهديّة إلى بنكوفسكي، والتقاط صور تذكاريّة له مع رجال الاستخبارات البريطانيّة والأميركيّة الذين قاموا باستخلاص المعلومات المفيدة منه. وفي واقع الأمر، فإنّ بنكوفسكي وقّع عقدًا مع جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، وفيه وافق على أن يصبح "جنديًّا في العالم الحرّ"، وعلى وجوب تخليصه مع عائلته من أيّ محنة يتعرّض لها في الاتّحاد السوفياتيّ في حالة بدء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بتشديد الخناق عليه.

بلغت قيمة هذا كلّه ثمناً ضئيلاً، ذلك أنّ تكاليف عمليّة بنكوفسكي لم تتجاوز مبلغ ٨٢,٠٠٠ دولار ... مقابل المعلومات الاستخباراتيّة التي قدّمها بنكوفسكي. ولكنّ قيمة بنكوفسكي الحقيقيّة أوجدت مشكلة عمليّاتيّة: سفره إلى الخارج جرى تقييده، ولذلك كان ينبغي إيجاد وسيلة للحصول على معلوماته الاستخباراتيّة في موسكو، حيث كان يعيش ويعمل.

بدت الوسيلة التي توصّل إليها جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA في هذا المجال آمنة. وكان من بين رجال الاستخبارات البريطانيّة MI-6 العاملين في موسكو تحت غطاء دبلوماسيّ هناك "رودريك شيشولم"، وزوجته "جانيت"، التي كانت تعمل كسكرتيرة لدى جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، وتعيش معه في موسكو. وفي يوم من كلّ أسبوع، كانت السيدة شيشولم تأخذ ولديها الصغيرين إلى حديقة عامّة. وفي وقت معيّن، كان بنكوفسكي يأتي إليها، ويجاملها معربًا عن إعجابه بجمال ولديها، ويقدّم لهما حلوى من علبة. ثمّ تأخذ السيّدة شيشولم الحلوى، وهي في الواقع عبارة عن ميكروفيلم... وفي مناسبات أخرى كانت السيّدة شيشولم وبنكوفسكي يتبادلان الرسائل في مكان معيّن يقع خلف شبكة أنابيب تدفئة مركزيّة في الطبقة الأولى من عمارة سكنيّة. وفي الوقت نفسه كان "غريفيل واين"، تحت غطاء رجل أعمال يحاول عقد صفقة تجاريّة مع الاتّحاد السوفياتيّ، يُستخدم كصندوق رسائل كلّما قام بزيارة إلى موسكو.

ومن هذه الحلوى التي كانت السيّدة شيشولم تقوم باستلامها، حصل جهاز الاستخبارات البريطانيّة MI-6، ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، على منجم ذهبيّ من المعلومات الاستخباراتيّة حول وضع قوّات الصواريخ السوفياتيّة، وهو مجال تخصّص بنكوفسكي في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU. ووصلت معلومات

في وقت حاسم، وهي معلومات لم تكن معروفة لدى بنكوفسكي والمتعاملين معه، ذلك أنّ خروشوف قرّر أن ينشر صواريخ هجوميّة في كوبا. وكانت المعلومات الاستخباراتيّة المبكّرة لدى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA حول بناء منصّات للصواريخ في كوبا واجهت تبريرًا سوفياتيًّا قام على الزعم بأنّ عمليّة البناء استهدفت نشر صواريخ للدفاع الجوّي لحماية منشآت عسكريّة كوبيّة وكتيبة سوفياتيّة مرابطة في كوبا. ولكنّ هذا التبرير السوفياتيّ انهار حين أجريت مقارنة بين معلومات بنكوفسكي الاستخباراتيّة والمزاعم السوفياتيّة الرسميّة. وكان بنكوفسكي قد قدّم معلومات إستخباراتيّة دقيقة حول عمليّة بناء ونشر صواريخ SS4، وهي صواريخ نوويّة سوفياتيّة متوسّطة المدى. ولم تدع المعلومات الاستخباراتيّة الآتية من رجلهم في موسكو مجالاً للشكّ في عقول رجال الاستخبارات في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA في أنّ عمليّة البناء في كوبا كانت لأغراض نشر صواريخ نوويّة هجوميّة.

كانت تلك فقط هي الاستفادة الأولى من معلومات بنكوفسكي الاستخباراتيّة. وهو أيضًا أبلغ المتعاملين معه عن المدّة الزمنيّة الضروريّة التي استغرقتها العمليّة كلّها من البناء إلى النشر الفعليّ لصواريخ SS4، وهي معلومات جعلت الأميركيّين يعرفون بالضبط الوقت اللازم لإزالة هذه الصواريخ من أماكنها. والأهمّ من هذا كلّه، فإنّ بنكوفسكي قدّم للرئيس الأميركيّ جون كينيدي الورقة الرابحة في لعبة الخداع الدوليّ التي أصبحت معروفة بأزمة الصواريخ الكوبيّة. وإدراكًا منه أنّ قوّة صواريخ خروتشوف البالستيّة العابرة للقارّات كانت مجرّد خدعة، فإنّ كينيدي عرف أنّه يمكنه إجبار السوفيات على بلوغ حافّة الحرب النوويّة مع معرفته اليقينيّة بتراجعهم في غاية الأمر. ولم يكن السوفيات في وضع قادرين فيه على تحدّي الولايات المتّحدة في حرب

نوويّة، ولو فعلوا ذلك لأصبحت الأراضي السوفياتيّة مسرحًا للتفوّق النوويّ الأميركيّ الهائل.

في تلك الأثناء التي كانت فيها أزمة الصواريخ جارية، انتهت مهمّة بنكوفسكي كجاسوس يعمل في الظلام. ومع نهاية صيف ١٩٦٢، أصبح بنكوفسكي عارفًا أنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB عكف على مراقبته. وتقرّر فجأة عدم السماح له بدخول مكتبة وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU، حيث قام من قبل بتصوير عدّة وثائق، وأثناء إحدى مقابلاته مع جانيت شيشولم، لاحظ سيّارة ورجالاً يراقبونه. وفي ٢٢ تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٦٢، حينما كانت أزمة الصواريخ الكوبيّة في ذروتها، أُلقي القبض على بنكوفسكي.

كيف تمكّن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB من اكتشاف أمر بنكوفسكي؟ ...

كانت هذه مسألة على جانب كبير من الأهميّة، ذلك أنّ كلاًّ من وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA وجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 اتّخذ إجراءات مسبقة وقائيّة واستثنائيّة لحماية بنكوفسكي، وكانت هناك حفنة صغيرة فقط من المسؤولين على جانب الأطلنطي يعرفون هويّته الحقيقيّة، كما كان هناك عدد أكبر من ذلك بقليل فقط يملكون حريّة الاطّلاع على المعلومات الاستخباراتيّة التي يقدّمها. وأشار إلقاء القبض على هذا المصدر الهام من المعلومات الاستخباراتيّة إلى ما هو أسوأ من كلّ كوابيس الاستخبارات: هناك جاسوس يعمل في الظلام على مستوى رفيع في أيّ من جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، أو وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA...

ومع ذلك، فإنّ عمليّة إلقاء القبض على بنكوفسكي، جاءت من واقع جملة الاعتبارات: أعمال جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB المجتهدة في مكافحة

الاستخبارات، ورقيب مخمور في الجيش الأميركيّ، وغلطة عمليّاتيّة فادحة من جانب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6.

مع أوائل عام ١٩٦١، أصبح جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB عارفًا أنّ هناك أسرارًا عسكريّة سوفياتيّة رفيعة المستوى تجد طريقها إلى الغرب. وكان هذا الجهاز تمكّن من تجنيد رقيب مخمور في الجيش الألاميركيّ يدعى "جاك دانلاب"، وهو مجنّد متواضع المستوى حقّق نتائج غير متوقّعة حينما عهدت إليه مهمّة القيام بأعمال جاسوس سائق مكلّف بخدمة السائحين في وكالة الأمن الوطنيّ، وهي وكالة أميركيّة معنيّة بفكّ رموز الشيفرة. وبرغم منصبه المتواضع، فإنّ دانلاب تمكّن من الوصول إلى الكثير من الوثائق التي وقعت بين يديه، والتي باعها من جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. يشار إلى أنّ دانلاب هذا قد انتحر حينما بدأ عملاء مكتب التحقيقات الفيديراليّ FBI في ملاحقته.

شعر رجال الاستخبارات في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بالذعر حينما ألقوا نظرة على بعض وثائق دانلاب، التي لم تترك مجالاً للشكّ في أنّ أشدّ المعلومات العسكريّة حساسيّة تشقّ طريقها إلى الغرب. وهذا المصدر أمكن التستّر عليه على نحو جيّد، ولكنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB انتهى إلى استنتاج مؤدّاه أنّ أيًّا من وكالة الاستخبارات المركزيّة CIA أو جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 أو الإثنين معًا، لديه جاسوس رفيع المستوى يعمل في الظلام في مكان ما بين كبار العسكريّين السوفيات... ولكن، من هو؟ ووفق تقديرات جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB فهناك حوالى ١,٠٠٠ مسؤول يملكون حريّة الوصول إلى تلك المعلومات التي تشقّ طريقها إلى الغرب، وهم يشكّلون في مجموعهم مهمّة مثبّطة للعزيمة، ذلك أنّ كلّ واحد من هؤلاء الألف شخص، ومن بينهم بنكوفسكي بالطبع، ينبغي التحقيق معهم.

في الوقت نفسه، انتهى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB إلى استنتاج مؤدّاه أنّ المعلومات ربّما جرى تمريرها في موسكو، حيث مقارّ المؤسّسة العسكريّة السوفياتيّة. وهذا يعني أنّ هناك عميلاً في وكالة الاستخبارات المركزيّة CIA أو جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 تحت غطاء دباوماسيّ ربّما قام باستلامها. وهكذا، قام جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بإجراء استطلاع شامل لجميع عملاء وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA وجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 المعروفين العاملين تحت غطاء دبلوماسيّ في موسكو. وكانت كلمة السرّ هي "معروف"، ذلك أنّه ليس كلّ عميل غربيّ في موسكو كان معروفًا. ولكنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB كان يعرف بالفعل رودريك شيشولم، بسبب جاسوسه العامل في الظلام داخل جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 جورج بلاك، الذي خدم مع شيشولم في محطّة برلين التابعة لجاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، وفي أواخر خمسينات القرن العشرين، قدّم إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB قائمة كاملة بأسماء جميع عملاء جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 في برلين. وكانت مهمّة شيشولم الأخيرة في موسكو بمثابة غلطة فادحة، ذلك أنّ جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 كان يعرف تمامًا أنّ مهمّته انتهت: جورج بلاك أُلقي القبض عليه من جانب جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 في أوائل عام ١٩٦١، واعترف بالكشف عن أسماء عملاء جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 الذين كان يعرفهم...

وهكذا، فحينما بدأ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB استطلاعه الشامل في موسكو، كان من بين أهدافه رودريك شيشولم وزوجته جانيت شيشولم. وكان جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يعرف أنّ جانيت شيشولم خدمت كسكرتيرة في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 في برلين. وكانت الأحداث الباقية بمثابة نهاية لعبة

حقيقيّة: مباغتة جانيت شيشولم أثناء محادثة مع كولونيل في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU يدعى "أوليغ بنكوفسكي"، ومراقبة بنكوفسكي وهو يدخل بسرعة ويغادر شقّة سكنيّة مجاورة، هي حلقة اتّصال فاصلة واضحة، وزيارات بنكوفسكي غير العاديّة إلى مكتبة وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU. وكمحاولة للتوصّل إلى دليل نهائيّ، قام عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بوضع شمع مسموم على قاعدة كرسي بنكوفسكي الذي يستخدمه في الجلوس عليه أثناء العمل في شقّته. وهذا السمّ أدّى إلى إدخال بنكوفسكي إلى المستشفى لمدّة أسبوع، واستخدم جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB هذه المدّة لوضع كاميرا خفيّة في مصباح الطاولة فوق مكتبه. وحينما عاد بنكوفسكي إلى البيت، سجّلت الكاميرا ما كتبه من معلومات سريّة قبل إرسالها إلى "حلقة الاتّصال الفاصلة".

في أوائل العام ١٩٦٣، جرت محاكمة بنكوفسكي، علاوة على "غريفيل واين"، وهو إجراء كان بمثابة ممارسة دعائيّة لإقامة الدليل على خيانته. وإدراكًا منه للنتيجة الحتميّة، قدّم بنكوفسكي اعترافه العلنيّ بهدوء. وبعد بضعة شهور، جرى إعدامه، على ما يبدو وفق طريقة الاتّحاد السوفياتيّ الخاصّة به في معاقبة أخطر الخائنين: تقديمه شيئًا فشيئًا إلى فوهة نار فرن، تحت عيون بعض زملائه المقرّبين السابقين[1]...

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص٤٥ ـ ٥٥.

داسكو بوبوف: جيمس بوند الحقيقي

منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها المكتب الموقر الخاص بمدير مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، إدغار هوفر، في ذلك اليوم من شهر آب ـ أغسطس ١٩٤١، عرف داسكو بوبوف أنّه ربما يلقى ترحيبًا شبيهًا بنوبة جرعة السم. وهذا ما حدث بالضبط، ذلك أن هوفر لم يشأ حتىالنهوض من مقعده والترحيب به.

من وجهة نظر هوفر، فإن المشكلة لم تكن أعمال بوبوف البطولية في التجسس. وكان بوبوف، النجم والعميل المزدوج في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5، جرى إرساله من جانب الجهاز البريطاني إلى هوفر من أجل مناقشة جزء من شريط ميكروفيلم مثير للاهتمام كان حصل عليه من جهاز الاستخبارات الألماني قبل بضعة أسابيع في البرتغال. وكان جهاز الأستخبارات الألماني، تحت وهم أن بوبوف عميلهم، أرسل بوبوف إلى الولايات المتحدة حاملاً معه قائمة بالمعلومات الاستخباراتية المطلوبة: معلومات عن الإنشاءات العسكرية الأميركية التي يفترض أن يعرف بوبوف عنها أكبر قدر ممكن.

كان هوفر يبدي إستعدادًا للإعراب عن إحترامه لتقدير جهاز الاستخبارات البريطاني، MI-5 لشخصية بوبوف كنجم وعميل مزدوج، غير أن نزعته القوية المفضية إلى التمسك الشديد بالفضلية والمبادئ الحميدة حملته على إبداء تحفظات شديدة تجاه شخصية بوبوف. وكان لهذا الموقف المعادي نتائج خطيرة. كان بوبوف يمثل كل ما يكره هوفر. ومن واقع دفاعه الخالص عن القول إن اللذة هي الخير

الأوحد في الحياة، قرر جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 منحه الاسم الرمزي "ترايساكل"، تغبيرًا عن الإعجاب بنزعته إلى أخذ إمرأتين إلى غرفة النوم في المرة الواحدة. وكان ذلك مجرد واحدة عن عدد من الرذائل التي ارتكبها بوبوف في حياته التي كرسها للخمر والنساء والطرب، وذلك على الرغم من حقيقة أنّ مهنته الظاهرية تتصل بالقانون التجاري. وكان بوبوف، المولود لأسرة غنية إلى حد ما في يوغوسلافيا، درس القانون في ألمانيا، وفي ١٩٣٩ إستأجرته مجموعة البنوك اليوغوسلافية لتمثيل مصالحها في لشبونة - البرتغال.

استقر بوبوف، المحامي الشاب البالغ من العمر ٢٧ عامًا وقتئذٍ، في لشبونة، التي كانت في الأصل، باعتبارها عاصمة محايدة، بمثابة مفترق طرق للتجسس الدولي. وفي ظل فصاحته اللغوية في لغات عديدة، واتصالاته التجارية في كل أنحاء أوروبا، كان بوبوف مجنّدًا طبيعيًّا لأيّ من عشرات وكالات التجسس العاملة في ذلك الوقت في المدينة. وقام جهاز الاستخبارات الألماني بالمفاتحة الأولى، ذلك أن أحد زملائه القدامى في الجامعة، الضابط وقتئذٍ في جهاز الاستخبارات الألماني، قام بتجنيده لأغراض جمع المعلومات الاستخباراتية السياسية والاقتصادية عن بريطانيا. ولم يكن الألمان يعرفون أن بوبوف بدأ يشعر بالكراهية تجاه النازيين، وبعد تجنيده مباشرة، فاتح البريطانيين وتطوع كعميل مزدوج.

وكما اكتشف الجانبان في وقت لاحق، فإن بوبوف كان مسألة باهظة التكاليف. ومع أنه يتمتع باكتفاء إقتصادي، فهو كان في حاجة إلى المزيد من النقود لتغطية مصاريف أسلوب حياته على المطاعم والنساء والنوادي الليلية. وتعهد الجانبان طواعية بتقديم العون المالي لمثل هذا المستوى المرتفع من الحياة، والسبب في ذلك هو أنه، في نظرهما، نجم سوبر في عالم التجسس. وفي نظر جهاز الاستخبارات الألماني، فإن

الجاسوس النافع الذي اختاروا له الاسم الرمزي "إيفان" كان كنزًا وينبوعًا من المعلومات الاستخباراتية حول كل شيء، ابتداء من الأحداث السياسية في لندن وانتهاء بالخطط العملياتية العسكرية. (وكلها كانت مقترحة باهتمام، و"مطبوخة" بلغة إستخباراتية، من جانب الاستخبارات البريطانية، ومعدة بذكاء من مزيج من المعلومات الحقيقية والزائفة). وفي نظر البريطانيين، فإن بوبوف كان يشكل تيّارًا متدفقًا إلى واحدة من أهم المحطات الاستخباراتية التابعة لجهاز الاستخبارات الألماني، وكمصدر خاضع للرقابة في الأصل، فمن الممكن إستخدامه في تمرير كافة أنواع المعلومات الاستخباراتية المخادعة إلى الاتجاه العام للاستخبارات الألمانية، وفي الوقت نفسه فهو في وضع يمكنه فيه من معرفة جميع رجال الاستخبارات الألمان الذين يتعامل معهم.

في هذه المرحلة، إجتاز بوبوف بنجاح واحدة من عمليات مكافحة التجسس على الاطلاق، وهي العملية المعروفة باسم "نظام المقاصد المتعارضة" الخاصة بجهاز الاستخبرارات البريطاني MI-5.

قامت هذه العملية على الاستفادة من ميزة السر العظيم عند الاستخبارات البريطانية والمصدر الأعظم لقوتها: القدرة على حل رموز الشيفرة الألمانية. وهذا الإنجاز الفذ، المعروف بالاسم الرمزي "أولترا"، جعل البريطانيين قادرين على قراءة حركة المعلومات الاستخباراتية الألمانية وتحقيق ميزة مزدوجة. الميزة الأولى هي أن البريطانيين عرفوا من الرسائل ذات الرموز المحلولة أسماء العملاء والجواسيس النافعين الذي يجري إرسالهم إلى أيّ نقطة معينة. والميزة الثانية هي أن البريطانيين تمكنوا من قراءة تقارير العملاء الذاهبة إلى مقر الاستخبارات الالمانية في برلين. وفي ما يتعلق بدور عميل مزدوج مثل بوبوف، فإن البريطانيين تمكنوا من مراقبة مدى التأثيرات التي تحدثها المعلومات الاستخباراتية المخادعة في برلين.

وهذه الميزة الثانية أفضت إلى فكرة رائعة: إذا كان البريطانيون قادرين على مراقبة المعلومات الاستخبراتية الذاهبة إلى برلين، فلماذا لا يحاولون حمل العملاء والجواسيس النافعين الألمان علىالإرتداد بدلاً من مجرد إلقاء القبض عليهم وإعدامهم؟ ومن هنا، جاء نظام المقاصد المتعارضة إلى حيز الوجود. وكان جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 قادرًا على معرفة كل عميل أو جاسوس نافع يتم إرساله من ألمانيا. وكان هؤلاء الذين يرسلون إلى الأراضي البريطانية يتعرضون للملاحقة والتقييم كجواسيس مزدوجين، وكل من كان يرفض منهم أو يبدو غير مناسب للمهمة يتم إعدامه. وكان هناك إثنان من نجوم الجواسيس النافعين، أحدهما يدعى والف شميدت، والآخر جوان باجول.

شميدت، الذي ألقى القبض عليه بعد هبوطه بالمظلة في بريطانيا في أحد ليالي سنة ١٩٤٠، جرى حمله على الارتداد واستخدامه في إرسال معلومات إستخباراتيّة مضلّلة عن طريق الراديو الخاص إلى ألمانيا. وجاء انتصاره الأعظم في ١٩٤٤ حينما أرسل معلومات إستخباراتية مزيفة عن مكان إنزال الصواريخ الألمانية من طراز "في ٢٠٠"، وأدت "تعديلاته" إلى جعل الألمان يعيدون توجيه صواريخهم بعيدًا عن الأهداف الأشد قابلية للتعرض للأخطار في لندن.

باجول، الاسباني العامل في لشبونة، جرى إكتشاف عمله لحساب جهاز الاستخبارات الألماني عن طريق نظام أولترا لحل رموز الشيفرة. وبعد نجاح جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 في حمله على الإرتداد، عكف على إرسال معلومات إستخباراتية مضللة إلى جهاز الاستخبارات الألماني حتى ١٩٤٥. ومن بين هذه المعلومات هناك معلومة خطيرة جدًا: باجول تمكن من إقناع جهاز الاستخبارات الألماني بأن عمليات الإنزال التي تقوم بها دول الحلفاء على الشاطئ الغربي في

أوروبا سوف تكون في ممر كاليه وليس في شاطئ النورماندي. ونتيجة لذلك، أبقى هتلر قوات الاحتياط أربعة أيام حاسمة بالقرب من ممر كاليه، مقتنعًا بأن عمليات الإنزال في النورماندي مجرد خدعة...

وكان بوبوف يعتبر بمثابة النجم اللاعب في نظام المقاصد المتعارضة. وبسبب تمتعه بثقة الألمان التامة، حرص جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 على إستخدامه بحذر شديد، وعلى الأخص في مجال الاستخبارات السياسية رفيعة المستوى. واتصلت أعظم إنجازات بوبوف بإقناع الألمان، عن طريق وثائق مطبوخة، بأن البريطانيين أقوياء عسكريًا بأكثر مما يظن الألمان (مع أن الحقيقة هي أن البريطانيين لم يكونوا يملكون قوة حقيقية لصد غزو ألماني في ١٩٤٠). وقامت هذه المعلومة بدور غير صغير في قرار هتلر النهائي بالتخلي عن "أسد البحر"، وهي الغزو المخطط له للجزر البريطانية.

عمل هذا الانتصار الاستخباراتي "المتصورً" على تعزيز مكانة بوبوف لدى جهاز الاستخبارات الألماني، الذي قرر في ١٩٤١ إستخدامه في عملية رئيسية: التسلل إلى الولايات المتحدة لجمع المعلومات الاستخباراتية عن القوة العسكرية للدولة التي اعتقد جهاز الاستخبارات الألماني أنها سوف تدخل الحرب قريبًا. وجرى إعطاء بوبوف قائمة بالمعلومات الاستخباراتية المطلوبة التي قدمها بدوره إلى هوفر في وقت لاحق.

ولكن هوفر المتزمت، الذي لم يعجبه مظهر بوبوف الخارجي، بملابسه المرتدية على عجل وحاملته للسيجارة المصنوعة من العاج ومجوهراته الماسية وروائحه الحادة، لم يلتفت باهتمام شديد لقائمة المعلومات الاستخباراتية المطلوبة. وكان ينبغي أن يفعل، ذلك انها اشتملت على دلائل إستخباراتية حيوية: بناء على طلب من الاستخبارات اليابانية، فإن جهاز الاستخبارات الألماني أراد من بوبوف أن يعرف أكثر

ما يمكن عن "بيرل هاربر"، وعلى الأخص أنظمة الدفاع المضادة للطائرات وماهية السفن الحربية الراسية في العادة هناك. وقام هوفر على نحو روتيني بتمرير الرسالة إلى الاستخبارات العسكرية دون التوقف للتفكير في الأسباب التي جعلت اليابانيين مهتمين على هذا النحو في مسألة بيرل هابر. (وكما تبين في وقت لاحق، فإن الاستخبارات العسكرية لم تتوقف أيضًا للتفكير في هذا الأمر الذي انطوى على نتائج مدمرة).

في ظل تزمت هوفر، لم يكن هناك أيّ وسيلة من شأنها تمكين جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 من ضمان تعاونه في عملية إستخباراتية مدروسة: تسهيل مهمة بوبوف في إرسال معلومات إستخباراتية مضللة عن الإستعدادات العسكرية الأميركية إلى ألمانيا. وتوقف جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5 عن المحاولة، وعاد بوبوف إلى لشبونة، حيث عكف على تلفيق حكاية مدروسة حول فشله في تنفيذ مهمته في الولايات المتحدة. وعلى ما يبدو، فإن جهاز الاستخبارات الألماني كان يصدقه، مع أنه كانت هناك إشارة خفية للشك: هل يمكن أن يكون بوبوف يعمل لحساب البريطانيين؟ وكمحاولة لتسوية هذه المسألة، قرر الألمان إرسال بوبوف إلى لندن، حاملاً تعليمات بجمع معلومات إستخباراتية رفيعة المستوى حول خطط البريطانيين الحربية.

عند وصوله إلى بريطانيا، بدأ بوبوف في إرسال تيار ثابت من تقارير الاستخبارات المطبوخة إلى لشبونة، ولكن كما عرف خبراء أولترا في حل رموز الشيفرة من قراءة حركة الرسائل اللاحقة عبر لشبونة - برلين، فإن الألمان بدأوا في اعتبار بوبوف رجلاً غير موثوق به. ومع هذا، استمرت اللعبة حتى إنتهاء الحرب، وعلى الرغم من شعور الألمان بالقلق، فإن برلين إستمرت على الأقل في تصديق بعض الرسائل التي كان بوبوف يرسلها.

ومع انتهاء الحرب، إنتهت مهمة بوبوف، ورفض عرضًا بالحصول على المواطنية من الحكومة البريطانية الشاكرة، واستقر في جنوب فرنسا لكتابة مذكراته المسلية جدًا (ولكنها غير الدقيقة). ولم يمض بضع سنوات على انتهاء الحرب، حين تمّ الكشف عن بعض السجلات، حتى كشف النقاب عن دور بوبوف كنجم في "نظام المقاصد المتعارضة". وفي وقت لاحق أيضًا، ترامى إلى الأسماع كيف قدم بوبوف دلائل حيوية كان يمكن أن تمنع حدوث عملية بيرل هاربر، لو أن الأميركيين إلتفتوا إليها.

وتوقفت سنوات حياة الترف التي عاشها بوبوف في غاية الأمر في ١٩٨١، حينما مات، رجلاً سعيدًا، كما قال أصدقاؤه عنه[١].

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص١٤٩ ـ ١٥٤.

جُورج بلاك: أغرب حكَايَة تجَسُّس في كُلِّ الأزمَنة

بدا ذلك الرجل النحيف بمعطفه الصينيّ، صاحب البنية التي كانت ممتلئة الجسم سابقًا، الذي عبر خطّ الحدود صباح أحد أيّام الربيع في العام ١٩٥٣، كأنّه جاء لتوّه من كابوس. وبطريقة ما، فإنّ هذا الرجل، وهو نائب القنصل العام "جورج بلاك"، بالإضافة إلى زملائه الآخرين من الدبلوماسيّين البريطانيّين، أُطلق سراحهم أخيرًا في أعقاب حوالى ثلاث سنوات من الوجود في الأسر في كوريا الشماليّة ومنشوريا.

كان قد جرى استقبال بلاك عند نقطة تبادل السجناء من جانب اثنين من عملاء جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 من بين آخرين، اللذين قاما بأخذه باليد للاستجواب العاجل. وكانت مهمّة بلاك كنائب للقنصل العام مجرّد غطاء، ذلك أنّه في حقيقة الأمر كان عميلاً في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6، وذهب في العام ١٩٤٨ إلى سيول لافتتاح أوّل محطّة للاستخبارات البريطانيّة في كوريا. وفي العام ١٩٥٠، أسفر الغزو الكوري الشمالي عن اجتياح سيول، ولم يتمكّن جورج بلاك وزملاؤه الدبلوماسيّون من الهروب، وجرى أخذهم إلى شقاء الأَسر في كوريا الشماليّة ثمّ إلى منشوريا في وقت لاحق.

كان لدى جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 سؤال ملحّ، وأراد بلاك الإجابة عليه: هل اكتشف الشيوعيّون ارتباطاته الاستخباراتيّة؟ لا، وهذا ما حرص بلاك على تأكيده لهم... وخلال مدّة وجوده في الأسر، افترض الشيوعيّون القول إنّه نائب القنصل العام جورج بلاك فقط. وقد تحدّث زملاؤه في الأسر بإعجاب عن بلاك،

معيدين إلى الأذهان أنّه تصرّف "على نحو رفيع من الشجاعة والجلد"، وأنّه عمل كمصدر للإلهام بالنسبة للأسرى الآخرين. وكانت هناك عمليّات استجواب أخرى قام بها جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 حينما كان بلاك في حقبة الاستجمام والراحة في هونغ كونغ، ولكنّ جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 لم يكن يعرف أنّ بلاك ذات ليلة اجتمع إلى ممثّلين عن جهاز استخبارات آخر، هو جهاز الاستخبارات الذي كان بلاك يكنّ له ولاء حقيقيًّا: جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB.

ربّما كان من غير المتصوّر أن يظلّ ولاء بلاك للقضيّة الشيوعيّة على حاله بعد تجربته في الأسر في منشوريا. ولكنّ هذا الأمر كان واحدًا من جملة تناقضات ارتبطت بهذا الرجل الذي يمثّل بلا ريب أغرب حكاية تجسّس في كلّ الأزمنة.

من أجل فهم حقيقة بلاك، من الضروريّ قبل كلّ شيء معرفة أنّه وُلد في العام ١٩٢٢ تحت إسم "جورج بيهار"، وهو إبن واحدة من العائلات اليهوديّة العريقة والمتميّزة في أمستردام. ومات بيهار الأب حينما كان الإبن بعمر الرابعة عشرة. وتنفيذًا لرغبة الأب، جرى إرسال الإبن للالتحاق بالمدرسة الانكليزيّة المعروفة في القاهرة. وعاش الإبن مع الأقارب، وأمضى الجزء الأكبر من وقته مع خاله "هنري كوربيل"، الذي لم يكن شخصيّة رئيسيّة في الحزب الشيوعي المصري فحسب، بل كان أيضًا جاسوسًا نافعًا عمل منذ مدّة طويلة لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وكان كوربيل يعرف الطاقة الكامنة في شخصيّة الطفل الواعدة بأنّه سيكون عميلاً ممتازًا. ولكنّه لم يحاول أن يسابق الزمن... وفي غضون ذلك كان مقتنعًا بتلقين ابن أخته مبادئ النظريّة الشيوعيّة.

حين عودته إلى أمستردام، كان بيهار الصغير شيوعيًّا ناشئًا. وكان ملتحقًا في المدرسة الثانويّة في أمستردام حينما قام الألمان باجتياح البلد في العام ١٩٤٠. وهربت

أمّه وشقيقتاه إلى إنكلترا، وقرّر بيهار البقاء في هولندا، وأصبح واحدًا من الأعضاء الأوائل في المقاومة الهولنديّة تحت الإسم المستعار "ماكس دوفري"، ولكن حينما بدأ البوليس السرّي النازي "الغستابو" في ملاحقته، هرب إلى لندن عن طريق بلجيكا، متنكّرًا كواحد من الرهبان اللاترابيّين الممتنعين عن الكلام. وفي إنكلترا، قرّر أن يغيّر اسمه إلى "جورج بلاك"، وتطوّع في البحريّة الملكيّة، مؤكّدًا رغبته في الاشتغال بالعمليّات الاستخباراتيّة.

حقّق جورج بلاك رغبته، غير أنّ ما أثار شعوره بالإحباط والاشمئزاز هو أنّه تولّى وظيفة مكتبيّة. ولكن خلال تولّيه هذه الوظيفة المكتبيّة، خاض تجربة شكّلت نقطة تحوّل فاصلة في حياته، ذلك أنّه وقع مجنونًا في حبّ سكرتيرة في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 تدعى "إريس بيك"، وهي التي ستصبح في وقت لاحق الليدي المقرّبة من الملكة إليزابيث.

ففي أعقاب مغازلة عاطفيّة ملتهبة في زمن الحرب، قرّر الإثنان الزواج. ولكنّ عائلة بيك اعترضت على الزواج، ولم يكن هناك أيّ وسيلة يمكن من خلالها أن تسمح واحدة من أعرق العائلات البريطانيّة بزواج ابنتها من شابّ يهوديّ. وهكذا، أذعنت بتردّد للضغوط، وانهارت العلاقة...

شعر بلاك إذذاك بالدمار... وفي ظلّ تعاظم شعوره بالغضب الشديد والإحباط، أخذ على نفسه عهدًا بالانتقام من المؤسّسة المتغطرسة التي تسبّبت في ضياع الحبّ في حياته. واستمع أحد أقرب أقاربه والرجل الذي يحظى بالثقة، الخال هنري كورييل، باهتمام شديد إلى غضب ابن أخته، واقترح الانتقام: بلاك يجب أن يعمل لحساب "قضيّة الثورة العالميّة"، وهذا يعني وجوب قيامه بالتغلغل في صفوف الاستخبارات البريطانيّة، وفي اللحظة المناسبة يكون في وضع يمكّنه من تنفيذ انتقامه...

لم يمض وقت طويل حتّى حقّق بلاك هدفه الرئيسيّ، وهو الدخول إلى جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6. وفي نهاية الحرب، وفي وقت كان يعمل فيه لحساب قسم الاستخبارات البحريّة البريطانيّة، جرى إرساله إلى هامبورغ كرئيس لوحدة صغيرة كانت ألقت القبض على قادة ركّاب القوارب من العسكريّين وأجرت استجوابهم. وبعد مضيّ عام، نجح بلاك في التغلغل إلى صفوف جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6. ومع حلول العام ١٩٤٨، جرى تعيين بلاك في أوّل مهمّة رئيسيّة له، وهي مهمّة رئيس محطّة جديدة لجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 في سيول.

من المثير للإعجاب في أمر اعتزام بلاك على العمل هو أنّ ثلاث سنوات من الأسر لم تعمل، حتّى للحظة واحدة، على إضعاف اعتزامه على إلحاق الأذى بالمؤسّسة البريطانيّة. ومثل هذه الفرصة لم تتحقّق حتّى العام ١٩٥٥، وذلك حينما جرى تعيين بلاك، بعد عامين من العمل في وظيفة مكتبيّة في مقرّ القيادة العليا، للقيام بمهمّة رئيسيّة في واحدة من أهمّ محطّات جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 وهي محطّة برلين.

لم يكن هناك مهمّة أفضل من مهمّة برلين بالنسبة لأيّ جاسوس يعمل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في الخمسينات. وكانت برلين بمثابة مفترق طرق فعليّ في عمليّات التجسّس بين الشرق والغرب ومليئة بالعملاء من جميع الأوصاف، ومحطّة حيويّة لعشرات من وكالات الاستخبارات على الأقلّ. ولم يعمل بلاك لحساب هذه المحطّة الهامّة من الاستخبارات البريطانيّة فحسب، بل عمل أيضًا كواحد من الممثّلين البريطانيّين في لجنة جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA المشتركة التي كانت تشرف على عمليّات الاستخبارات الرئيسيّة المختلفة التي انهمك بها كلّ من الوكالتين المعنيّتين.

بعد وصوله إلى برلين مباشرة، حقّق بلاك أوّل فرصة كبيرة بالنسبة إليه، ذلك أنّه عرف أنّ جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA يعكفان على تنفيذ "عمليّة ذهبيّة"، وهي عبارة عن خطّة تقوم على حفر نفق تحت حدود برلين الشرقيّة والغربيّة، واختراق خطوط الاتّصالات الروسيّة الرئيسيّة، وتسجيل المكالمات الاستخباراتيّة والدبلوماسيّة والعسكريّة. وافترض الروس أنّ هذه الخطوط آمنة، ذلك أنّ كلّ هواتفهم كانت لديها أجهزة تشويش. ولكنّ الفنيّين في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA اخترعوا آداة تكنولوجيّة رائعة مكّنتهم من التقاط المكالمات من إشارات مشوّشة. وجرى تركيب هذه الألإداة التكنولوجيّة الجديدة في النفق وتوصيلها بجهاز تسجيل منشّط للصوت قادر على التقاط كلّ إشارة في خطوط الهاتف الروسيّة.

في ظلّ تلقّيه معلومات تحذيريّة عن هذه العمليّة عن طريق حلقة الاتّصال الفاصلة في برلين، وهي حلقة بلاك الرئيسيّة مع الروس، قام جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بإنهاء فصول هذه اللعبة بحذر شديد، حتّى لا يعرّض للخطر مصدره الحيويّ في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6. وسمح جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بحفر النفق، ولكنّه حرص على عدم نقل معلومات شديدة الحساسية أو هامّة عن طريق تلك الخطوط. وفي غضون ذلك، فإنّ وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA التي وافقت على تمويل تكاليف العمليّة، قامت بتجنيد كتائب من المترجمين، بملايين الدولارات، للاستماع إلى المكالمات الهاتفيّة. واعتبرت وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA عمليّة النفق بمثابة عمل ناجح، مع أنّها بدأت في التساؤل عن أسباب عدم التمكن من الحصول على فائدة حقيقيّة من وراء عمليّة التنصّت. وقبل استغراق وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA في تساؤلاتها، قام جهاز الاستخبارات

السوفياتيّ KGB بإغلاق النفق من خلال جعل بعض الحرّاس من الألمان الشرقيّين يقومون باكتشافه "بالصدفة".

واصل بلاك خيانته لعمليّة النفق من خلال الكشف عن أسماء جميع الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA في محطّة برلين. وأيًّا كانت درجة الفائدة على جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، ذلك أنّ عمليّات جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA خلف الستار الحديديّ أصبحت مشلولة بالفعل، فإنّ هذه الخيانة في مجموعها للجواسيس النافعين الغربيّين لفتت الانتباه على نحو حتميّ إلى إمكانيّة وجود جاسوس يعمل في الظلام في محطّة برلين. ونجح بلاك في تجاوز محنة الاستفسارات المتشكّكة في أمره على نحو متزايد، وذلك حتى كشف "هورست آيتز"، وهو جاسوس نافع ألمانيّ في محطّة برلين، أنّه كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وألمح إلى أنّ بلاك ربّما كان جاسوسًا أيضًا. وشرح بلاك أنّه كان يتظاهر في بعض الأحيان بأنّه متعاطف مع جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB من أجل اكتشاف الجواسيس النافعين الألمان في المحطّة الذين يعملون أيضًا فيها كعملاء مزدوجين لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB.

لمّا بدأ يشعر بخطورة الوضع، قدّم بلاك طلبًا للقيام بمهمّة أخرى. وبناء على اقتراح كوربيل له، أبلغ جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 أنّه يريد أن يعمل في الشرق الأوسط. ووافق جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6... وفي العام ١٩٦٠ قام بإرساله إلى لبنان للدراسة في كليّة الشرق الأوسط للدراسات العربيّة تمهيدًا للقيام بمهمّة في محطّة بيروت التابعة لجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 . ولم يكن بلاك يعرف طبيعة هذه المهمّة، ولكنّ عالمه الخاصّ كان في سبيله نحو الانهيار.

حينما وصل بلاك إلى لبنان، بدأ مسؤول في الاستخبارات البولنديّة، كان يعمل أيضًا كجاسوس نافع لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في إرسال معلومات إستخباراتيّة رفيعة المستوى إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، ومن بين أشياء أخرى كشف عنها، قال إنّ محطّة برلين التابعة للاستخبارات البريطانيّة والأميركيّة تغلغل إليها جاسوس يعمل في الظلام يدعى جورج بلاك... وفي كانون الثاني - يناير ١٩٦١، هرب عميل الاستخبارات البولنديّة، الذي تبيّن في وقت لاحق أنّه يدعى "ميخائيل غولينفسكي"، إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، وحمل معه دليلاً غير قابل للنقض حصل عليه من ملفّات جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB: وثائق تمكّن بلاك من الوصول إليها ونقلها إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB.

حين استدعائه إلى لندن بحجّة أنّ المسؤولين في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 أرادوا مناقشة مهمّته الاستخباراتيّة المقبلة، وصل بلاك، الذي لم يكن يشعر بالاشتباه به، إلى مقرّ قيادة جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 حيث واجه الدليل ضدّه. وما أثار دهشة القائمين على عمليّة استجوابه هو أنّ بلاك اعترف فورًا. وقدّم بلاك صورة مروّعة عن الأذى الذي كان سببًا فيه، بما فيه الكشف عن أسماء ٤٢ جاسوسًا نافعًا على الأقلّ، وقد جرى إعدامهم جميعًا.

في العام ١٩٥٢، رمى "بوبوف"، الذي كان يومها كولونيل يعمل في فيينّا لصالح وكالة الاستخبارات السوفياتيّة، رسالة في سيّارة دبلوماسي أميركيّ تضمّنت تطوّعًا من جانب بوبوف بتقديم خدماته لحساب وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، التي سرعان ما عرفت لأنّ بوبوف أصبح متخلّصًا من أوهامه تجاه النظام السوفياتيّ، ومصمّمًا على تدميره. ومن واقع أنّه واحد من أبناء الفلاّحين، فهو أصبح غاضبًا تجاه

المزايا التي يتمتّع بها المسؤولون السوفيات في وقت كان فيه الجزء الأعظم من السوفيات يعيشونى عند حافّة الفقر. وهو قد تقبّل مبلغًا صغيرًا من المال مقابل خدماته من وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA ثمّ أُعطي هذا المبلغ لشراء بقرة.

لم تكن عمليّات بوبوف الاستخباراتيّة خالية من الحساسيّة، ذلك أنّه قدّم رؤية دقيقة عن عالم العسكريّين السوفيات المغلق: الأسلحة الجديدة، وانتشار القوّات السوفياتيّة في أوروبّا الشرقيّة، وكيف خطّط السوفيات لخوض حرب نوويّة في حالة نشوب حرب مع الغرب... وفي سنة ١٩٥٦، انتقل إلى محطّة وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU في برلين الشرقيّة، وهذا يعني أنّ الرقابة العمليّاتيّة على أفعاله كانت تحدث عن طريق محطّة برلين التابعة لجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 ووكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA.

جرى استدعاء بوبوف إلى موسكو من أجل التشاور وأُلقي القبض عليه. ولكن بدلاً من إعدامه، سعى جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB الإبقاء عليه... وتحت التهديد بقتل عائلته، تلقّى أمرًا بوضع جهاز تسجيل لاصق على الجلد وإجراء مقابلة مع عميل وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA الجديد الذي يفترض فيه أن يكون معنيًّا باستلام المعلومات الاستخباراتيّة منه في موسكو. وفي اجتماعهما الأوّل في غرفة الرجال، قام بوبوف دون أن ينطق بكلمة، بإزالة بعض الضماد الذي يغطّي إحدى يديه حتّى يكشف عن كلمة "تعذيب" المكتوبة بالحبر على راحة يده. وبعدئذ قام بحركة مفهومة باليدين، محذّرًا رجل وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA بأنّه يضع شريطًا معدنيًّا...

عمل توخّي جانب الحذر من جانب رجل وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA في الاجتماعات اللاحقة على جعل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB مقتنعًا

بأنّ بوبوف، بطريقة أو بأخرى، حذّره من المصيدة. وقرّر جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB أخيرًا التوقّف عن اللعبة، وحينما أجرى بوبوف ورجل وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA إتّصالاً عاجلاً في أحد أوتوبيسات موسكو في يوم ما في تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٥٩، جرى إلقاء القبض على الرجلين. ولكن ليس قبل أن يتمكّن بوبوف من إرسال تحذير بأنّ العسكريّين السوفيات استطاعوا اكتشاف طلعات طائرات U-2 التي تحلّق على ارتفاع شاهق وصمّموا على إسقاط إحدى هذه الطائرات... وتقرّر طرد رجل وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، الذي كان يتمتّع بالحصانة الدبلوماسيّة، من البلاد. ولكنّ بوبوف عانى من ذلك الذي أصبح مصيرًا معروفًا عند الخائنين في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU: تقديمه على مهل إلى فوهة فرن مشتعل تحت عيون زملائه...

كانت خيانة بوبوف مجرّد حكاية واحدة في سلسلة حكايات طويلة جرى استعراضها حينما عقد قضاة المحكمة العليا البريطانيّة جلساتهم لاتّخاذ قرار بشأن معاقبة بلاك. وقلّما طرأ تحسّن على مزاجهم العام حينما رأوا متّهمًا بدت عليه دلائل الاعتزاز تجاه ذلك الأذى الذي ألحقه بمؤسّسة يكرهها بشدّة. وبناء على ذلك، حكمت المحكمة العليا على بلاك بالسجن لمدّة ٤٢ عامًا، وهو حكم شديد القساوة ولم يسبق له مثيل في تاريخ التجسّس في أوقات السلم.

هذا الحكم بالسجن مدى الحياة، إذ كان بلاك يبلغ من العمر ٣٩ عامًا في ذلك الوقت، يبدو كأنّه الفصل الأخير في حكاية بلاك، ولكنّ الحقيقة هي أنّ تطوّرًا آخر أشدّ إثارة قد حصل...

سنة ١٩٦٧، بعد قضاء ستّ سنوات في السجن، هرب بلاك. ومع أنّه جرى افتراض القول إنّ عمليّة الهروب كانت بفعل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، فإنّ

الحقيقة هي أنّ العمليّة كانت من صنع ناشط في الجيش الجمهوريّ الإيرلندي، وهو أحد زملاء بلاك السابقين، ويدعى "سان بورك". وكان بورك خبّأ بلاك لبضعة أسابيع في وقت كانت فيه حملة تفتيش واسعة النطاق في البلاد جارية، ثمّ اتّصل مع الروس، الذين قاموا بدورهم بتهريبه إلى موسكو. وذهب بروك إلى موسكو أيضًا، ولكن بعد بضعة شهور، ومن واقع شعوره بالإحباط تجاه ما أثار في نفسه شعورًا بالاشمئزاز في المدينة، عاد إلى موطنه إيرلندا. وأصرّ بروك على القول حتّى موته بعد بضع سنوات إنّه قام بتدبير هروب بلاك بدافع صداقته مع جاسوس متّهم، دون تدخّل من جانب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وقليل من الناس صدّقوا هذا القول، ولكن لو كان بروك في الحقيقة يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، فهو أخذ ذلك السرّ معه إلى القبر.

في ما يتعلّق بأمر جورج بلاك، فقد حصل على بيت مريح من جانب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB حيث قرأ، بشيء من التسلية، رواية "ريتشارد كوندون": "مرشّح منشوريا"، التي استندت إلى قضيّته... وتزوّج بلاك إمرأة روسيّة هاجرًا زوجته وولديه في بريطانيا. وفي العام ١٩٩٠، أجرت معه التلفزة السوفياتيّة مقابلة، أعرب فيها عن تفاخره بخيانة ٦٠٠ عميل في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA وجهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6[١]...

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص٥٦ ـ ٦٤.

بوبوف: مستعدّ لتحمّل أيّ عقوبة بما فيها الموت

غضب هارفي عندما علم بأنّ العقيد بوبوف من المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ مهدّد بالضياع، وهو المتسلّل الوحيد لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة في داخل الاستخبارات السوفياتيّة. كانت قد مضت ستّ سنوات تقريبًا على الالتقاء المنتظم وبسريّة تامّة منذ عام ١٩٥٣ عندما وضع الروسيّ بطاقة على المقعد الأماميّ في سيّارة لدبلوماسيّ أميركيّ في فيينّا، عارضًا فيها خدماته على وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة.

كان انشقاق بوبوف بمثابة ضربة حظّ هائلة من حيث أنّه كان مصدرًا هائلاً للمعلومات ذات قيمة أعظم من تلك التي حصلت عليها وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بواسطة نفق برلين. إذ إنّ هذا النفق كلّف الخزينة الأميركيّة مبلغًا يتراوح بين ٢٥ و٣٥ مليون دولار. أمّا بوبوف فلم يكن يتلقّى إلاّ مائة دولار شهريًّا لم تكن تُدفع له أو إلى ورثته إلاّ إذا استطاع المرور إلى الغرب.

إنقضت سنون من الدراسات والمشاريع والأعمال المنفّذة حتّى تمّ تحقيق النفق ولم يعمل إلاّ أقلّ من سنة. أمّا بوبوف فهو الذي تجنّد بمحض إرادته وبقي مدّة ستّة أعوام يقدّم خدمات هائلة لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة. وخلال تلك السنوات لم تكن له إلاّ رغبة جامحة واحدة هي الحصول على قارب مطّاطيّ ليقوم بنزهات فيه مع عشيقته، لكنّ وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة رفضت تلبية طلبه تفاديًا لتعرّض بوبوف للاستجواب عن كيفيّة حصوله على القارب.

ومقابل أجره التافه كان بوبوف يقدّم معلومات من الدرجة الأولى إذ إنّه أعطى لائحة بالأسماء الرمزيّة لثلاثمائة وسبعين سوفياتيًا كانوا عملاء متسلّلين في الغرب. واعتقدت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة لفترة من الزمن أنّها وجدت مفتاح الرموز عندما تعرّف أحد الضبّاط على واحد من هؤلاء الثلاثمائة والسبعين عميلاً. وكان اسمه الرمزيّ كاسمه العاديّ معكوس الأحرف. لكنّ ذلك لم يكن ينطبق على الـ ٣٦٩ الباقين. ومع ذلك فإنّ بوبوف كشف الهويّات الحقيقيّة للعملاء الذين كانوا تابعين له الأمر الذي أدهش هارفي.

كان بوبوف قد أتى، هذه المرّة، إلى اللقاء حاملاً معه حقيبة تحتوي على تشكيلة من الملابس النسائيّة ومستحضرات التجميل كلّها من صنع أميركيّ، وكان الوجه الداخليّ من الحقيبة مجهّزًا بمرآة تخفي مبلغ عشرين ألف دولار، هو المبلغ اللازم لنشاطات آخر عميل وُضع تحت إدارته. وكان من المفروض أن تذهب الحلاّقة "تايروفا" للإقامة في نيويورك مدّعية أنّها زوجة لأحد المقيمين في الولايات المتّحدة، وهو أيضًا عميل للسوفيات.

لاحظ الأميركيّ "جورج كيسفالتر" بأنّ قياسات الملابس واسعة بالنسبة لامرأة تشتري ملابسها الداخليّة من مخزن "مايسيز" الشهير في نيويورك، وأخرج بوبوف من جيبه جواز سفر لامرأة فتيّة مقيمة في شيكاغو كانت قد أضاعته أثناء زيارتها لوطنها الأصليّ بولّندا، كان قد استبدل صورتها بصورة تايروفا.

تلك كانت المرّة الأولى التي يرسل فيها بوبوف عميلاً له إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، وكان كيسفالتر يفضّل، ألف مرّة، ألاّ يكون قد أُطلع على الأمر، لأنّه لا يستطيع إخبار مكتب التحقيقات الفدراليّ FBI، لأنّ "إدغار هوفر" مدير هذا المكتب سيعمد إلى توقيفها وستبدأ التحقيقات في المكتب

المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ عن سبب الفشل وسيكون بوبوف أولّ المشكوك بأمرهم.

ضمّ هارفي وكيسفالتر جهودهما لدمج برقيّة تمّ إرسالها إلى واشنطن ومزّقا ثلاث مسودّات قبل أن يستقرّا على نصّ محدّد لم يكن جارحًا، لكنّه يوضّح الموقف الحرج بشكل صريح. وبعد وصول البرقيّة إلى رئيس الـCIA آلن دالاس قام رئيس فرع الكتلة السوفياتيّة "جون موري" بعرض فكرته بألاّ يجري إعلام مكتب التحقيقات الفدراليّ بالقضيّة، وكان دالاس مستعدًّا للموافقة التي كانت مستحيلة تمامًا. لكنّ أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة لاحظ أنّ تايروفا كانت ملاحقة بدزّينة من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي منذ نزولها من الطائرة، ومع ذلك فقد نجحت وكالة المخابرات المركزيّة، سرًّا، بالحصول على نسخ من تقارير المراقبة.

كانت تايروفا محطّ مراقبة عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي مذ حطّت طائرة اير فرانس في مطار "إيدلوايد" في نيويورك حيث بدّلت نقدها الفرنسيّ بالدولارات وركبت الباص إلى الجهة الشرقيّة من مانهاتن، ثمّ استقلّت سيّارة أجرة أوصلتها إلى المحطّة المركزيّة الكبرى حيث صعدت في المترو باتّجاه الفندق في حيّ "برونكس".

في اليوم التالي استغلّ العملاء خروجها من الفندق فدخلوا غرفتها وفتّشوا حقائبها التي وجدوا فيها المبلغ الذي تحدّث عنه بوبوف ومقداره عشرون ألف دولار.

لاحظت تايروفا ذلك التفتيش ما دفع بها إلى اتّخاذ أقصى درجات الحذر في تنقّلاتها داخل المدينة. فعندما كانت تريد الصعود إلى الطابق الثالث في أحد المخازن الكبرى كانت تستقلّ المصعد حتّى الطابق الثاني ثمّ تنزل السلالم إلى الطابق الأولّ لتصعد من جديد بالمصعد إلى الطابق الثالث. لكنّ ملاحقتها كانت مستمرّة فرآها أحد العملاء تلتقي زوجها في إحدى دور السينما واتّجها معًا إلى بيت الزوج في مانهاتن

حيث كانت قد وُضعت مجسّمات التنصّت في الشقّة، فضلاً عن أنّ الهاتف كان موضوعًا تحت المراقبة، وكان كلّ ما يحصل في منزل الزوجين يُسجّل في مركز للمراقبة والتنصّت قائم في المنزل المقابل.

في صباح أحد الأيّام تزامن انفلات الطيور مع اختفاء رجل من مدينة "هافر" في فرنسا كان قد تقاعد عن العمل كحلاّق على باخرة "يونايتد ستيتس" العاملة على الخطّ بين نيوريورك وفرنسا، وكان هو الآخر عميلاً سوفياتيًّا. وكما جرى التنبّؤ استدعي بوبوف إلى المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ إلى برلين حيث أعلمه المفتّش بأنّ تايروفا كانت معروفة بعمالتها منذ وصولها إلى نيويورك، وأنّ أحدًا من ثلاثة باعها إلى الأميركيّين قبل وصولها، وبوبوف أحدهم. لكنّ هذا الأخير استطاع أن يلقي باللوم على تايروفا التي أصيبت بالذعر من انكشاف أمرها فاتّهمته لتخفي جبنها. تظاهر المفتّش باكتفائه من الاستجواب لكنّه أعلم بوبوف بأنّ المخابرات السوفياتيّة تابعت العمليّة وتأكّد لها صدق تايروفا. بعد ذلك التقى بوبوف بكيسفالتر وقال له: ألم يكن بإمكان هؤلاء الأغبياء توقيف تايروفا ومنعها من العودة إلى الاتّحاد السوفياتيّ، قبل أن تفضح أمري؟.

إستُدعي بوبوف، مرّة أخرى، إلى موسكو. فهل كان عليه الذهاب أم الالتجاء إلى الغرب؟ إختار بوبوف الذهاب إلى موسكو وكان متيقّنًا من أنّه قادر على إثبات وجهة نظره. وكانت المخابرات السوفياتيّة قد توصّلت لتوّها إلى معرفة وجود خليلة لبوبوف فاهتمّت بهذا الموضوع الشخصيّ أكثر من اهتمامها بموضوع تايروفا. وهذا ما كان يدركه بوبوف أيضًا.

في موسكو بقيت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة على اتّصال ببوبوف بواسطة "راسل لانجيل" وهو ضابط في الوكالة يعمل تحت غطاء دبلوماسيّ.

وفي برلين كان كيسفالتر يستقبل بوبوف في شقّة تابعة للوكالة حيث كانا يتحدّثان لساعات طويلة.

أمّا في موسكو فكان ذلك مستحيلاً لعدم وجود مكان آخر غير السفارة الأميركيّة التي كانت محاطة بعشرين أو بثلاثين من رجال مركز المراقبة التابع للمخابرات السوفياتيّة.

إستمرّ لانجيل يتبادل الرسائل مع بوبوف طيلة صيف ١٩٥٩، لكنّ جودة المعلومات التي كان يعطيها بوبوف تشير إلى عدّة احتمالات وتساؤلات، فهو إمّا أصبح مراقبًا من قبل المخابرات السوفياتيّة، أو أنّ المركز الذي يحتلّه بوبوف بسيط لا يسمح له بالوصول إلى معرفة الأسرار العميقة والمهمّة، أو أن لانجيل لم يتمكّن من إقامة علاقة وطيدة كما فعل كيسفالتر. لكنّ هذه التساؤلات أصبحت يقينًا إذ، في صباح ١٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٥٩، فوجئ الرجلان، بالجرم المشهود، وهما يتبادلان البطاقات في حافلة مكتظّة، واقتيد لانجيل مكبّلاً في سيّارة تابعة للمخابرات السوفياتيّة واتّهم بالتجسّس وهُدّد بالسجن وبعقوبات جدّ قاسية إذا رفض التعاون، لكنّه لم ينبث ببنت شفة فأُطلق سراحه بعد ساعتَين.

إحتجّت الولايات المتّحدة مباشرة وأصدرت تكذيبًا رسميًّا للاتّهامات السوفياتيّة ضدّ الدبلوماسيّ الذي طُرد من موسكو، والذي وصل إلى واشنطن بعد أسبوع ليواجه الصحافيّين الذين ألحّوا في معرفة سبب توقيفه وفي ما إذا كان عمله يتضمّن، من بين أمور أخرى، جمع المعلومات مهما كان مصدرها، عن الاتّحاد السوفياتيّ، وأجاب على أسئلة الصحفيّين بالنفي دون أيّ مشاعر انفعاليّة.

أمّا في موسكو فقد أثارت صحيفة "الإزفستيا" مسألة خيانة بوبوف أو المقدّم "ب" الذي اعترف بكلّ أخطائه وباستعداده لتحمّل أيّ عقوبة بما فيها الموت. وعلّقت

الصحيفة على ذلك بالقول: هنالك جرائم تستحيل بعدها الحياة وإنّ الطلقة التي وضعت حدًّا لحياة ذلك التعيس ليست أداة للعقاب بل تمثّل عملاً من أعمال الرحمة.

أُصيبت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بخيبة أمل عظيمة بسبب ضياع ذلك العميل، وكان غضبها واضحًا على مكتب التحقيقات الفدراليّ الذي اعتبرته المسؤول المباشر عمّا حدث[١].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨) ص٢٧١ ـ ٢٧٥.

نيكولاي أرتامانوف: ازدوج فاختفى

بالنسبة إلى المسافرين بحرًا على امتداد الساحل السويدي الذين يعربون عن احترامهم الشديد لتقلبات وضراوة بحر البلطيق، فإن هذا العمل البطولي كان عملاً استثنائيًا. ومن خلال إبحارهما مع بوصلة فقط، تمكن هذا الرجل وزوجته بطريقة ما من قيادة قارب صغير في بحر هائج عبر البلطيق من بولندا إلى السويد.

كانت رحلة الكابتن البحري السوفياتي "نيكولاي أرتامانوف" وزوجته البولندية "إيفا" في حزيران - يونيو ١٩٥٩ موضوع حديث السويد لبضعة شهور. ومن واقع تحدرهم من سلاله الفايكنغ وتمجيدهم للأعمال البطولية البحرية، فإن السويديّين أعربوا عن إعجابهم الشديد تجاه كيفية قيام أرتامانوف، الذي عقد العزم على الهروب من النظام القمعي واللجوء إلى الحرب في الغرب، بتدبير حصوله على قارب، ثم قيادته إلى السويد على بعد مئات الأميال، متجنبًا قوارب الدورية البولندية والسوفياتية.

حين إبلاغها عن ارتداد أرتامانوف، أعربت السلطات الأميركية عن اهتمامها بالسماح له بدخول الولايات المتحدة. وتركز اهتمام الأميركيين على ما يمكن أن يبلغهم عنه أرتامانوف حول البحرية السوفياتية، التي كانت تجتاز مرحلة من البناء على نطاق واسع. وهكذا نُقل أرتامانوف إلى واشنطن، ومُنح هوية جديدة تحت اسم "نيكولاي شادرين"، وعين كمستشار لدى مكتب الاستخبارات البحرية ONI لملء فراغات الوكالة بشأن التكنولوجيا والتكتيكات البحرية السوفياتية.

في ظواهر الأمور، فإن هذا كله بدا كأنه مسألة إرتداد عادية جدًا ذات معاني استخباراتية متواضعة في حرب باردة... ولكن في النهاية تطور إلى لغز استخباراتي على نحو معقد وغير عادي. وحتى بعد مضي بضعة عقود، ظهر جزء فقط من الحقيقة الكاملة، وربما لن يكون الجزء الباقي معروفًا.

مع حلول عام ١٩٦٠، حينما استقر أرتامانوف في الولايات المتحدة، وأصبح مشغولاً في العمل مع مكتب الاستخبارات البحرية، بدأت تلك الضجة القصيرة المصاحبة للاهتمام العالمي بموضوع هروبه إلى الحرية في الخمود. وبدا المواطن الأميركي الجديد الذي يدعى نيكولاي شادرين كأي موظف حكومي آخر يذهب إلى مكان عمله من بيته المتواضع في ميريلاند. وفي غضون ذلك، عكفت زوجته على الدراسة لتأهيل نفسها للحصول على ترخيص كطبيبة أسنان أميركية. ولكن كانت هناك جهتان تبديان اهتمامًا بأمر هذا الرجل.

في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA، كان هناك البعض في قسم مكافحة التجسس في الوكالة الذين يبدون اهتمامًا بموضوع نيكولاي أرتامانوف. ومن واقع شعورهم بالقلق تجاه تغلغل سوفياتي في الاستخبارات الأميركية، فإنهم كانوا يميلون إلى الشك المستمر في أمر هذا الكابتن البحري السوفياتي. وفي نظر هؤلاء الأشخاص النزاعين إلى الشك، فإن هروب شادرين المفاجئ عبر البلطيق يأتي مغايرًا للصورة التي بدا عليها، ذلك أنهم راجعوا وأعادوا مراجعة الطريق، ثم عادوا من حيث جاءوا وحتى اقتنعوا أن حكاية شادرين مجرد كذبة. وبدأ هؤلاء الأشخاص في الظن أن شادرين في الحقيقة جاسوس مزروع، غير أن الهدف في ذلك الوقت كان غامضًا. وكما تكهن البعض، فربما كان جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB عقد الأمل على إمكانية ارتفاع شادرين إلى مستوى رفيع داخل مكتب الاستخبارات

البحرية ONI، إلى منصب بحيث يمكنه تقديم بعض المعلومات الاستخباراتية الرفيعة الدرجة.

من ناحية أخرى، فإن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB أيضًا كان يبدي اهتمامًا متزايدًا بموضوع شادرين. والسبب في ذلك الاهتمام غير معروف، ولكن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB أمر عملاءه في الولايات المتحدة بالبحث عن مكانه، تحت أيّ هوية جديدة يعيش، ولصالح أيّ وكالة حكومية يعمل.

لم يتم اتخاذ أيّ خطوة واضحة حتى حزيران - يونيو ١٩٦٦، حينما وقعت حادثة محيّرة، ذلك أن مدير وكالة الاستخبارات الأميركية CIA وقتئذٍ، ريتشارد هولمز، بينما كان يلعب الغولف في صباح الأحد في أحد الأندية في واشنطن، تلقى مكالمة تليفونية من رجل يدعى إيغور كوشنوف، الذي قال إنه أراد مقابلة المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA لمناقشة "مسألة هامة جدًا". وكان كوتشنوف شخصية معروفة لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA: وفي ذلك الوقت كان ضابطًا كبيرًا في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، وموجودًا تحت غطاء دبلوماسي في السفارة السوفياتية. وكان رئيس مكافحة التجسس في محطة جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في السفارة، ومخصصًا لمهمة مراقبة عمليات التغلغل من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA ومكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، ولكن هذا جزء فقط من خلفيته المثيرة للانتباه. وهو أيضًا زوج ابنة يازكترنينا فورتزيفا، وزيرة الثقافة السوفياتية، وواحدة من أقوى الشخصيات في السلطة السياسية السوفياتية برمتها (وهي زوجة نيكيتا خروشوف). وبالإضافة إلى ذلك، فإن والد زوجته كان صديقًا مقربًا من يوري أندروبوف، الرئيس المرتقب لجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB.

جملة القول، فربما كان الهدف من مكالمة كوتشنوف التليفونية الغربية إلى هولمز هو أن هذه الشخصية المثيرة للانتباه وعد برد الخدمة لو أمكن تجنيده في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA. وفي اجتماع لاحق مع كبار العملاء في الوكالة، عرض كوشنوف خدماته من خلال صفقة غريبة. وفي حقيقة الأمر، فإن كوتشنوف عرض أن يكون مصدر الاستخبارات المركزية الأميركية CIA في حصولها على المعلومات الاستخباراتية حول تغلغل جهاز الاستخبارات السوفياتي في الوكالة. وقال إنه عهدت إليه من جانب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB مهمة البحث عن شادرين وتحويله إلى عميل مزدوج. وقال كوشنوف إن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA لو ساعدته في هذه المهمة، الأمر الذي يسمح له بالحصول على نحو أفضل إلى نوعية المعلومات الاستخباراتية التي يمكن تمريرها إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA.

حين إلقاء نظرة شمولية إلى هذا الأمر، فإن هذا بدا عرضًا غريبًا، ولكن بعد مناقشة داخلية شاقة، جادل خلالها بعض المسؤولين في الوكالة بأن كوشنوف يقوم بتدبير خدعة سوفياتية على نحو لا يرقى إليه الشك، تقرر أن تقبل وكالة الاستخبارات الأميركية CIA العرض. وبناء عليه، جرت مفاتحة شادرين ودعوته إلى تقديم خدماته متطوعًا كعميل مزدوج زائف. وفي وقت لاحق، قام عميل من جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB بمفاتحته في الأمر.

من خلال إعطائه معلومات استخباراتية متدنية الدرجة (وهو ما يعرف بمفهوم "تلقيم الدجاجة" في تجارة التجسس) كمحاولة لجعل اهتمام جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB قائمًا، قام شادرين بدورة كمرتد سوفياتي أصبح متخلصًا من أوهامه تجاه الولايات المتحدة، ومستعدًا الآن لتقديم العون إلى الوطن الأم، على أمل العودة.

وكوشنوف، في غضون ذلك، من خلال عمله تحت الاسم الرمزي الجديد "كيتي كوك" الذي اختارته له الوكالة، بدأ في تلقيم وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA بمعلومات استخباراتية متدنية الدرجة أيضًا. وفي تشرين الأول - أكتوبر ١٩٦٦، انتهت مهمة كوشنوف في الولايات المتحدة، وعاد إلى موسكو، حيث جرت ترقيته واختياره لمهمة خاصة في الوكالة الذرية الدولية، وهي مرافقة (وهو ما يعني أيضًا مراقبة شديدة) المبعوثين السوفيات. وخلال السنوات اللاحقة، كانت هناك فقط اتصالات فترية قصيرة وسريعة بين "كيتي هوك" وعملاء الاستخبارات الأميركية في موسكو.

استمرت هذه الرقصة البطيئة الاستخباراتية طوال عام ١٩٧١، حينما قام جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB بإرسال شادرين إلى تشيكوسلوفاكيا لتلقي تدريبات خاصة في عملية تشغيل أجهزة اتصالات للتجسس عالية التكنولوجيا. وبدت الجهود المتعاظمة من جانب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB المرتبطة مع شادرين كأنها تشير إلى ثقة وكالات الاستخبارات المركزية الأميركية CIA الكاملة بصدق السوفيات. وهذه الثقة تعززت على نحو أفضل في العام ١٩٧٥، حينما طلب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB من شادرين الذهاب إلى فيينا للمشاركة في اجتماع رفيع المستوى مع كبار المسؤولين في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وكانت فيينا، وهي نقطة الارتكاز للتجسس بين الشرق والغرب، بمثابة المكان المفضل عند جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB لعقد اجتماعاته الأهم مع كبار جواسيسه النافعين الغربيين. ومن جانبها، فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA، إحساسًا منها بإمكانية حدوث تقدم مفاجئ، وافقت على خطة ذهاب شادرين إلى فيينا.

في ١٧ كانون الأول - ديسمبر، وصل شادرين بصحبة زوجته، إلى فيينا. وفي اليوم التالي، اجتمع مع اثنين من كبار الضباط في جهاز الاستخبارات السوفياتي

KGB، اللذين قالا له إن هناك اجتماعًا "هامًا جدًا" سوف يشارك فيه مسؤولون كبار من جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في العشرين من الشهر. وتحسبًا منها لاحتمالات قيام فريق مكافحة التجسس في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB باكتشاف أيّ محاولة من جانبها لمراقبة الاجتماع (وهذا من شأنه إظهار مدى خضوع شادرين لمراقبتها)، قررت الوكالة إرسال شادرين لحضور الاجتماع منفردًا. وفي ليلة ٢٠ كانون الأول ـ ديسمبر التقى شادرين مع اثنين من عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB أمام إحدى الكنائس. وركب الثلاثة سيارة سوداء. ومضت الساعات، بدون أيّ كلمة من شادرين. وجلست زوجته بالقرب من جهاز الهاتف في غرفة الفندق، منتظرة المكالمة التي وعد بها زوجها بمجرد الانتهاء من هذا "الفشل البسيط".

بعد مضي ٢٤ ساعة، أصبحت زوجة شادرين مريضة وعصبية المزاج. وجاءت امرأة عميلة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA للبقاء معها، غير أن محاولات تهدئة الزوجة كانت عديمة الجدوى. وبعد أربعة أيام، أصبح من الواضح أن شادرين، أينما كان، لن يعود. إنه اختفى عن وجه الأرض.

لم تكن هناك نهاية للآراء حول ما حدث بالضبط. وجادلت فئة في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA بأن شادرين كان خدعة سوفياتية طوال الوقت، ثم عاد إلى موسكو بعد انتهاء اللعبة. وجادلت فئة أخرى بأن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB اكتشف بطريقة ما دور شادرين كعميل مزدوج، ثم قام بإختطافه وإرساله إلى الاتحاد السوفياتي. ولم يقدم "كيتي هوك" أي عون، وزعم أنه أجرى الترتيبات للاجتماع فقط، كما زعم أنه لا يعرف شيئًا عن ما حدث بعد ذلك.

ولكن هذا تغير في العام ١٩٨٥، حينما ارتد فيتالي يورشينكو. ومن بين الأشياء الأولى التي كشف عنها إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA كان مصير

نيكولاس شادرين. ووفق قول يورشينكو، فإن خطة جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB قامت على تخدير شادرين وإرساله إلى موسكو، ولكن أحد العملاء المعنيين بالعملية حقنه بجرعة كبيرة من المخدر القاتل، ومات شادرين في الحال.

في ٢٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٥، ظهر اثنان من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI أمام باب بيت زوجة شادرين، ونقلا إليها أن زوجها، المفقود منذ عشر سنوات، بات في حكم المؤكد أنه ميت "بما لا يدع مجالاً للشك". ولكن كان هناك الكثير من الشك باقيًا. وبعد ثلاث سنوات من هذا الرأي الذي يفترض أنه النهائي، قام مصدر سوفياتي بإبلاغ وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA أن شادرين ما زال حيًا، ذلك أنه شوهد أثناء تشييع جنازة الأدميرال سيرجي جورشكوف، رئيس البحرية الروسية.

إذن هل كان ارتداد أرتامانوف ـ شادرين نوعًا من عملية مدروسة قام بها جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB من أجل زرع مصدر في الاستخبارات الأميركية وتضليل الأميركيين فيما يتصل بالقدرات البحرية السوفياتية؟ وهل كان مصدر وكالة الاستخبارات المركزية CIA على خطأ فيما يتعلق بمشاهدة شادرين بعد ثلاث سنوات من موته المفترض؟ وهل كان يورشينكو على خطأ (أو ربما قام بتمرير معلومات مضللة سوفياتية) حينما تحدث عن مصير شادرين؟ وهل كان إيغور كوتشنوف، "كيتي هوك" خدعة سوفياتية؟

في الوقت الحاضر، ليس هناك حل ممكن لهذه الألغاز الباقية، ذلك أنها تشكل في مجموعها نتيجة كلاسيكية لمفهوم "تعدد المرايا" في عمليات استخباراتية معينة، حيث تصبح كل الخطوط الفاصلة بين الحقيقة والكذب متعذرة الوضوح. ومع هذا، فهناك شيء واحد يبقى واضحًا: قضية شادرين جعلت وكالة الاستخبارات المركزية

الأميركيـة CIA تقلـع عـن فكـرة مشـاركة جهـاز الاسـتخبارات السـوفياتي KGB فـي ممارسة لعبة العميل المزدوج والثلاثي المعقدة الموجودة في الروايـات البوليسـية. ولا شك في أن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB يعمل في عـالم مختلـف تمامًـا، حيـث فكرة التضحية بالأشخاص، شادرين مثلاً، ضرورة عملياتيـة لهـا مـا يبررهـا. أمـا فـي عالم ديمقراطي، فإن قصّة شادرين تشكل مأساة حقيقية[1].

[1] - فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص٣٥٣ - ٣٥٩.

ميكال جولينيوفسكي: من الإزدواجيّة إلى الإنشقاق

وصلت رسالة إلى هنري تايلور، سفير الولايات المتّحدة في برن عاصمة سويسرا، تحمل ختم مدينة زوريخ بتاريخ آذار ـ مارس ١٩٥٩، فحوّل السفير الرسالة، دون أن يفتحها، إلى المسؤول المحلّيّ لوكالة المخابرات المركزيّة CIA، الذي وجد في داخلها ظرفًا آخر موجّهًا إلى "إدغار هوفر" مدير مكتب التحقيقات الفدراليّ يحتوي على رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة مكتوبة باللغة الألمانيّة وتحمل توقيع "Sniper" أي القنّاص، الذي يعرض فيها معلومات هامّة تتعلّق بنشاطات الجواسيس السوفيات في الغرب.

بدأت دراسة الرسالة من الناحية اللغويّة إذ من شأن بعض الدلائل أن تفصح عن جنسيّة المرسل. فالأسلوب يدلّ على أنّ اللغة الأمّ لهذا الشخص ليست الألمانيّة. وبما أنّ مصدر الرسالة كان من بولّندا فلا بدّ من أن يكون المرسل بولّنديًّا.

ثمّ جرت دراسة حروف الرسالة لمعرفة نوع الآلة الكاتبة وما إذا كانت مصنوعة في أوروبّا الشرقيّة. كما جرى تحليل الورق لمعرفة مصدره. أمّا أنغلتون فقد كان مصرًّا على أنّ "سنيبر" أو "القنّاص" عميل مدسوس لذلك أخذ على عاتقه مهمّة التأكّد من ذلك. لكنّ "القنّاص"، وتأكيدًا على مصداقيّته، أعطى معلومات قيّمة وصحيحة وتلك كانت المشكلة الكبرى: كم يستطيع الخصم أن يفضح من الأسرار ليهيّئ المناخ المناسب لخداعه؟

قامت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، وفقًا لتوجيهات "سنيبر" بنشر إعلان صغير في صحيفة محليّة من مدينة فرانكفورت. تلك كانت بداية أوّل عمل من المرسلات دام زهاء سنتَين، وكثيرًا ما كان يبقى شهورًا دون أن يروي عطش الأميركيّين إلى المعلومات. ومن ثمّ ازدادات شجاعته وأصبحت رسائله أكثر غزارة إذ بلغ عددها أربعة عشر في نهاية العامَين.

إستطاعت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، مستعملة نفس طريقة الإعلان، أن تقدّم له رقم صندوق بريد في برلين الغربيّة ليبعث منه الرسائل ويتلقّى أجوبة عليها من الوكالة. كما أُقيم صندوق رسائل آخر في الحمّامات العامّة في "تيرغارتين" ومن ثمّ أُعطي رقم هاتف يتّصل منه في حالات الضرورة القصوى.

كان رجال هارفي موكلين بفضّ رسائل "سنيبر" في مَركز برلين حيث كان يجري تصويرها وإرسالها إلى واشنطن لتحليلها وتحضير الأجوبة المناسبة لها.

كانت الرسائل شديدة الغموض لذلك كان تفسيرها يختلف بين شخص وآخر. فمنهم مَن رأى أنّ المعلومات الصادرة من "سنيبر" صالحة للاستعمال في نسبة أربعة في المائة فقط، بينما رأى آخرون أنّها غير قابلة للتفسير وبدون فائدة. فكثيرًا ما كان يسترسل سنيبر في الاهتمام، مثلاً، بتاجر مشهور في السوق السوداء يبيع الضبّاط السوفيات ساعات مهرّبة، لكنّه، في الواقع، يتجسّس لحساب الروس أو البولنديّين. وهذا التاجر سيتوجّه إلى فيينّا وهو يضع على رأسه فروة شعر مستعارة. لذا ينصح سنيبر وكالة المخابرات المركزيّة بأن تستأجر لها غرفة مجاورة لحجرة ذلك التاجر في الفندق الذي ينزل فيه وأن تنقب في الحائط الفاصل بينهما ثقبًا دقيقًا وتُدخل منه غازًا مميتًا فتتخلّص منه.

وبصورة عامّة، كانت رسائل سنيبر مليئة بمثل هذه المقترحات والتوجيهات. وفي ما بين سطرين كتب سنيبر يقول إنّ المخابرات السوفياتيّة قامت بعمليّة كبيرة في بولّندا جنّدت لها عميلاً بريطانيًّا. لكنّه لم يعط اسم العميل بل ذكر أنّ اسمه يشبه اسمًا هولّنديًّا مؤلّفًا من سبعة حروف ويبدأ بحرف H. وأنّه قد جُنّد من بين أعضاء مكاتب الملحق البحريّ البريطانيّ في وارسو. وبالرغم من النقصان الواضح في مثل هذه المعلومات، كثّفت وكالة المخابرات المركزيّة بحثها لمعرفة هذا الشخص وتوصّلت إلى الشرطيّ "هاري هاوتون" الموظّف في القاعدة البحريّة في بورتلاند فوضعته تحت المراقبة الشديدة. وفي حزيران - يونيو ١٩٦٠ رأى عملاء سكوتلانديارد "هاوتون" وصديقته "إتيل جي"، مقابل مسرح "أولدفيك" في لندن"، يسلّمان رزمة للمدعوّ "جوردن لونسديل" وهو تاجر صناديق الجوك، وهي صناديق للبيع بواسطة القطع النقديّة المعدنيّة. ومن حزيران - يونيو حتّى تشرين الثاني - نوفمبر كانت لقاءات مماثلة تتمّ في أول سبت من كلّ شهر. وكان "جوردن لونسديل"، بعد تسلّمه الرزمة، يذهب إلى "رويسلب" في ضاحية لندن إلى منزل "بيتر كروغر وزوجته هيلين".

لم تكن معظم السبل التي يحدّدها سنيبر سهلة المتابعة لكنّه، مع ذلك، حدّد مثلاً أنّ السوفيات استطاعوا الحصول على وثيقة من المخابرات البريطانيّة MI-6 تحتوي على لائحة بأسماء العملاء الذي يعملون لحساب البريطانيّين في وارسو. مثل هذه الوثيقة كانت قد وُزّعت على عدد محدود من المكاتب في لندن وأوروبّا، لكن لم يكن هناك أيّ دليل واحد للريب بأيّ كان. وبدلاً من مواجهة وجود خلد مثل "كيم فيلبي" فقد افتُرض أنّ المخابرات السوفياتيّة استطاعت الحصول على هذه الوثيقة من أحد هذه المكاتب.

فجأة، في نهاية عام ١٩٦٠ اتّصل سنيبر بالهاتف الذي خصّصته وكالة المخابرات المركزيّة للضرورة القصوى وقال: هل أنتم مستعدّون لتأمين الحماية لي ولزوجتي؟

على الفور كلّفت الوكالة هوارد رومان وضابطًا آخر من واشنطن بالذهاب لاستقباله. إلاّ أنّ ريتشارد هيلمز لم يخفِ شعوره بأنّ كلّ ذلك خدعة، ووافقه في هذا الشعور رومان، وأنغلتون الذي أبرق إلى برلين بعدم تضبيع الوقت بانتظار سنيبر. وفي ما بعد تبيّن أنّه يُدعى "ميكال جولينيوفسكي"، والمرأة التي طلب حمايتها معه كانت خليلته وليست زوجته، وكان ضابطًا مرموقًا في الاستخبارات السريّة البولنديّة، وعمل لحساب الروس ناقلاً إليهم كلّ ما كان يحاول زملاؤه الضبّاط البولنديّون إخفاءه عن أصدقائهم السوفيات. هكذا أصبح بالإمكان معرفة مصدر كلّ المعلومات المتعلّقة بالعمليّات السوفياتيّة.

لقد حضّر جولينيوفسكي انشقاقه بشكل جيّد. فخلال الأشهر التي سبقت الانشقاق كان قد صوّر مئات الصفحات من الوثائق وخبّأها في وارسو ضمن جذع شجرة مجوّفة كان يمرّ أمامها عند عودته من العمل كلّ مساء. كما أنّ انشقاقه حدث في بداية عطلة عيد الميلاد الطويلة، بحيث يبدو غيابه لعدّة أيّام طبيعيًّا.

عندما زال الخطر طلبت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة من أحد عملائها في وارسو أن يحصل على الوثائق المخبّأة في تلك الشجرة المجوّفة، وكانت نحو ٣٠٠ صفحة مطبوعة على أفلام مصغّرة، ولوائح إسميّة وخططًا عضويّة تنظيميّة، إلخ. واستطاعت وكالة المخابرات المركزيّة أن تحصل على أسماء عدّة مئات من العملاء البولنديّين.

منذ ذلك الحين أصبحت بريطانيا قادرة على مهاجمة شبكة التجسّس "الخلد" دون أن تخاطر بحياة المخبر. وفي السبت الأوّل من كانون الثاني - يناير، كما في السبوت السابقة، كان لونسديل وهاتون جي يمشيان على طريق واترلو متّجهين إلى مسرح أولدفيك متبوعَين بأحد رجال التحرّي. وعندما عرض لونسديل على سيّدة أن يحمل

عنها معطفها ظهرت عناصر السكوتلانديارد وألقوا القبض على الثلاثة. وفي نفس الوقت كانت عناصر تفتّش في منزل كروغر في روييسلوب، فوجدوا ولاّعة ذات قعر مضاعف تحتوي على مفكّرة للعام السابق يتحدّد فيها اليوم والساعة التي يصير فيها الإرسال باللاسلكيّ مع طول الموجات المستعملة، كما وجدوا هوائيًا طوله ٢٢,٥ مترًا حول ركيزة في التخشيبة، ووجدوا على باب أرضيّة المطبخ جهاز إرسال على الموجات القصيرة قوّته ١٥٠ واط، فتمّ توقيف أفراد عائلة كروغر وأُخذت بصماتهم فلوحظ تطابقها مع بصمات "موريس ولونا كوهين" من سكّان نيويورك، وكان مكتب التحقيقات الفدراليّ قد أعطى أوصافهما لمكتب الأعمال الإجراميّة في سكوتلانديارد عام ١٩٥٧ بعد أن وجدت صورًا لهما بين الأغراض الشخصيّة العائدة للعقيد "رودولف أبل" رئيس شبكة التجسّس السوفياتيّة في الولايات المتّحدة، وكان مكتب التحقيقات الفدراليّ يبحث عنهما منذ عام ١٩٥١. أمّا جواز سفر لونسديل فكان يحدّد مولده في ١٧ آب ـ أغسطس ١٩٢٤ في كيركلاندليك في كندا، وباشرت الشرطة الكنديّة الأبحاث لتكتشف في الملفّ الطبيّ لمَن يحمل هذا الإسم أنّه خضع لعمليّة الختان، علمًا بأنّ الموقوف لم يكن كذلك. والواقع أنّ لونسديل هذا مولود في الاتّحاد السوفياتيّ باسم "كونون مولودي" وهو مدرّب لسنوات عديدة ليصبح صالحًا للقيام بدور الكنديّ المحبوب.

بينما كان الإنكليز يتقدّمون في أبحاثهم غادر جولينيوفسكي والمكلّفون بحمايته ألمانيا باتّجاه واشنطن حيث خضع مباشرة للاستجواب الذي شارك فيه البريطانيّون الذين كانوا يريدون معرفة الطريقة التي حصل فيها الروس على لائحة عملاء مخابراتهم في بولّندا. وأكّد جولينيوفسكي على أنّ هذه اللائحة لم تُسرق بل سُلّمت إلى الروس من قِبَل عميل لهم في برلين.

هكذا حصر هذا الخبر ساحة الأبحاث بشكل ملموس لأنّه لم يكن في برلين، يومًا، أكثر من عشرة أشخاص في مركز المخابرات البريطانيّة MI-6. فاقتصر البحث على عشرة ملفّات جرى تفصيلها وتشريحها وتدقيقها فعُثر على ملفّ "جورج بليك" الهولنّديّ المولد الذي كان ابنًا ليهوديّ مصريّ، وهذا ما اعتُبر حالة قائمة بذاتها في مصلحة المخابرات البريطانيّة، ولم تكن عائلته أو مذهبه هما اللذان مكّناه من دخولها بل مجموعة أعمال بطوليّة. فلقد كان عضوًا في المقاومة الهولنّديّة إبّان الحرب العلميّة الثانية، أتى بنفسه ليحذّر الإنكليز من أنّ الألمان يطبّقون، هم أيضًا، "اللعب على الحبلَين"، وأنّهم يسيطرون على كلّ فرق العملاء الذين أُسقطوا بواسطة المظلاّت في هولّندا. ولكي ينقل هذا النبأ كان لا بدّ من أن يجتاز البرتغال البلد المحايد، وفرنسا الواقعة تحت الاحتلال الألمانيّ. بعد ذلك بسنين طويلة، أصبح بليك مدير مركز المخابرات البريطانيّة MI-6 في سيول، وأسره الكوريّون الشماليّون وقاسى ثلاث سنوات من السجن في البلاد الشيوعيّة وعاد إلى لندن مرّة أخرى عودة الأبطال. ومع ذلك فإنّ مجرى حياته يحتوي على بعض الوقائع المقلقة، فابن عمّه "هنري كوريل" كان أحد مؤسّسي الحزب الشيوعيّ المصريّ، كما أنّ بليك كان قد توقّف وقتًا قصيرًا في موسكو قبل عودته إلى لندن بعد نهاية الحرب الكوريّة. وأخيرًا عندما استُجوبت سكرتيرة بليك تذكّرت أنّه كان يطلب منها، في بعض الأحيان، نسخة إضافيّة عمّا كانت تطبعه على الآلة الكاتبة مدّعيًا أنّها للأرشيف.

حوالي أيّام الفصح عام ١٩٦١ كان "فيرجسون سميث" من المخابرات البريطانيّة MI-6 هو القائم على قضيّة التحقيق مع بليك فاستدعاه إلى لندن. وبما أنّه لم يكن متيقّنًا تمامًا من تورّطه قام بتخويفه فوضع كميّة كبيرة من الملفّات على مكتبه، وهكذا، انهار بليك بعد فترة من الاستجواب، في اللحظة التي فرغت جعبة سميث من الأسئلة، وراح

يعدّد الأعمال التي قام بها متباهيًا بنفسه، حتّى قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة إنّ بليك وصل إلى مرحلة من الخيانة كان يمكن أن يؤدّي بكلّ الأسرار إلى العدوّ. فقد استطاع أن يدسّ أنفه في كلّ مكان بشكل غير قابل للتصديق. وكان يكره بريطانيا كراهية عمياء، لذلك كان يفكّر بالانتقام منها أكبر انتقام، وكان قد تلقّى من السوفيات جهاز تصوير استعمله كثيرًا، لكنّه كان غير قادر على استعماله باستمرار لذلك كان يطلب من سكرتيرته نسخًا إضافيّة.

بعد محاكمة سريعة جرت بشكل سريّ حُكم عليه باثنين وأربعين عامًا من السجن، وتلك كانت أطول مدّة حكم أصدرته محكمة بريطانيا ما بعد الحرب العالميّة الثانية. وأعلن القاضي الذي أصدر الحكم بأنّ المعلومات التي نقلها بليك إلى السوفيات جعلت كثيرًا من عمليّات المخابرات البريطانيّة يتحوّل إلى العدم.

كان هارفي قد تنبّأ بتلك الحقيقة، إذ إنّه في كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٥٢، عندما اجتمع هارفي مع زملائه البريطانيّين في مؤتمر لمناقشة تنفيذ نفق برلين جرى تكليف بليك بكتابة محضر الاجتماع فكان يعرف كلّ المشاريع الغربيّة بتفاصيلها، وهذا ما قاله "كارل نلسون" المدير الفنّيّ بمشروع "غولد". وقد جرى نقاش طويل بين نلسون وبليك عن قضيّة شراء مسجّلات بريطانيّة أو أميركيّة، دون أن يتوصّل نلسون إلى فهم السبب الذي كان يجعل بليك يضيّع مثل ذلك الوقت في قضيّة مثل تلك. لكنّ كلّ شيء توضّح عام ١٩٦١ إذ إنّه لم يكن يريد الحصول على جودة ممتازة من الأدوات المستعملة. ومن حسن حظّ الاستخبارات الغربيّة أنّ بليك وغيره من الضبّاط البريطانيّين لم يعلموا بموضوع الأرتيفاكت، ذلك السرّ الأميركيّ الذي اكتشفه نلسون.

من الطبيعيّ أن يكون بليك قد أعلم الروس عن عمليّي "سيلفر" و"غولد". وبعد الصعوبات الأولى جرى تشغيل نفق شويشات مدّة ثلاث سنوات دون أن ينكشف حتّى

عاد بليك من الأسر الكوريّ وعُيّن في الوحدة المكلّفة بعمليّة التنصّت. فبعد ذلك بقليل، اشتكى الروس إلى السلطات النمساويّة أنّ خطّهم لا يعمل بشكل جيّد، عند ذلك فكّك البريطانيّون جهاز التنصّت، دون أن يفكّر أحد بأنّ سرّ عمليّة التنصّت قد كُشف. وعندما أعلم بليك السلطات السوفياتيّة عن النفق الثاني فضّلت المخابرات السوفياتيّة التظاهر بتجاهل الأمر مدّة من الزمن لئلاّ ينكشف أمر عميلها الجديد. وكان ذلك تقديرًا ممتازًا فقد كان من المهمّ للسوفيات الاستمرار في مراقبة المخابرات البريطانيّة MI-6 من الداخل إن كانوا لن يفقدوا الشيء الكثير بل سيتركون البريطانيّين والأميركيّين ينفقون الأموال الباهظة والجهد الكبير في معالجة السفاسف التي يعترضونها في النفق. كما لاحظ أحد كبار ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة عندما قال: "إنّ السوفيات كانوا يعرفون بأنّ الفائدة الأساسيّة للنفق كان أن يحذّرنا مباشرة من هجومهم علمًا بأنّ ذلك لم يكن واردًا في خططهم".

وفي تشرين الأوّل ـ أكتوبر عندما نشبت ثورة المجر كان بإمكان النفق أن يحذّر، في الوقت المناسب، من التقدّم الحاصل للجيوش السوفياتيّة نحو بودابست، لكنّه كان قد اكتُشف حينذاك. وهكذا استطاع السوفيات، منذ اليوم الأوّل، متابعة عمليّة غولد، ما جعل الأميركيّين يعيدون النظر في كلّ شيء من المعلومات التي حصلوا عليها من النفق. فلربّما استطاع السوفيات أن يستفيدوا من ذلك فيجهّزوا حملة ضخمة من المعلومات الخاطئة ليدسّوا بذلك على وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة وعلى المخابرات البريطانيّة جبالاً من المعلومات المضلّلة. وبالرغم من عدم ثقة المخابرات الأميركيّة والبريطانيّة بقدرة المخابرات السوفياتيّة على فعل ذلك، فقد جرى التأكّد من بضع نقاط أساسيّة مثل مواقع أسلحتهم النوويّة، لكن لا بدّ من أنّهم ضلّلوا المخابرات الغربيّة عمدًا.

في مثل هذا المجال يمكن، ولو بصعوبة، تجاوز مرحلة النظريّة الصرفة مرحلة الفنّ لغاية الفنّ. وكما قال أحد الخبراء: "إنّ ذلك النوع من التحليل غير قابل للتطبيق من الناحية العمليّة فكيف يمكن دراسة نتائج تسرّب بمثل ذلك الحجم الذي فعله النفق؟ فوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة لا تملك أيّ جهاز قادر على تنفيذ مثل ذلك العمل". أو هل كان من الممكن إعادة تمحيص آلاف وآلاف الأمتار من الأشرطة التسجيليّة التي تمّ الحصول عليها من النفق وتحليل الرسائل مجدّدًا لتحديد الصحيح منها والمزيّف؟ لكنه كان بإمكان الأفراد الذين عملوا في النفق القول: ربّما كان الروس على علم بما كنّا نفعل، فلنر إذن النتائج التي يمكن الحصول عليها. فإذا انخرط المرء في مثل هذا النوع من التفكير فذلك، حقًّا، ابتعاد عن العمل ويصبح مشكلة غير قابلة للحلّ. وما يجب عمله، في حالة كهذه، هو اتّخاذ إجراءات تصحيحيّة ومن ثمّ يلغى كلّ شيء عداها.

لم يكن النفق اللغز الوحيد الذي عرضه بليك على بصيرة الغربيّين بل إنّه تباهى بإخباره السوفيات عن عمليّة "ديف مورفي" الكبيرة في برلين. وكان هذا مديرًا للعمليّات السوفياتيّة في مركز برلين أيّام هارفي، وكانت عمليّته تتضمّن تنظيم لقاءات بين جورج كيسفالتر وبوبوف. وذلك يلقي ضوءًا مختلفًا على قضيّة بوبوف. فمراقبة مكتب التحقيقات الفدراليّ لتايروفا لم تكن سبب انفضاح أمر بوبوف، ولم تكن قضيّة تايروفا إلاّ إخراجًا مسرحيًّا، فهل كان بوبوف مكشوفًا منذ البداية؟ ربّما كشف بليك أمر بوبوف منذ عام ١٩٥٥ عندما نقل المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ بوبوف من فيينّا إلى ألمانيا الشرقيّة. وقبل أن يغادر هذا فيينّا تلقّى معلومات تقضي باتّصاله مع كيسفالتر منذ وصوله إلى برلين. والحقّ أنّ بوبوف بدأ عمله بالقضاء شهرًا ونصف في عطلة بموسكو، ومن ثمّ فإنّ المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش

السوفياتيّ عيّنه، ليس في برلين، بل في قاعدة أخرى في ألمانيا الشرقيّة. وعندما وجد بوبوف نفسه قابعًا في ذلك المكان النائي قام بتحضير مخطّطه الخاص للقاء كيسفالتر وقدّمه له في رسالة سلّمها إلى ضابط بريطانيّ كان في زيارة رسميّة لمنطقة عمل بوبوف. وقام هذا بنقلها إلى المخابرات البريطانيّة في برلين وبالتالي وصلت الرسالة إلى مكان يستطيع جورج بليك استعمالها.

لكنّ كيسفالتر كان يرفض الاعتقاد بأنّ بوبف كان مكشوفًا بشكل مبكر، بسبب نوعيّة المعلومات التي استمرّ في تقديمها، حتّى بعد أن ترك بليك برلين منذ زمن طويل. فمن غير المعقول أن نفرض أنّ بليك فضح أمر بوبوف. لكنّ ذلك الجدل عن أسباب موت بوبوف يخفي قضيّة أخرى أكثر أهميّة هي أن يكون جولينيوفسكي عميلاً مضلّلاً، كما استمرّ أنغلتون في التأكيد على ذلك. فإذا كان هذا قد حدث فعلاً فإنّ النتيجة تكون بأنّ السوفيات سلّموا بليك عمدًا في إطار عمليّة كبيرة الشمول. وللوهلة الأولى يبدو سيناريو أنغلتون عديم الرحمة لنأخذه بعين الاعتبار، إذ إنّ ذلك يعني أنّ السوفيات لم يدمّروا بليك فقط بل لونسديل وكلّ شبكته.

وذلك ليس كلّ شيء، فالأدلّة التي قدّمها جولينيوفسكي سمحت أيضًا بكشف متسلّل سوفياتيّ ثالث هو "هينز فلفه" العامل في الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة .B.N.D. فالتسرّب الموجود في هذه الاستخبارات كان موضع شكّ لدى وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة منذ زمن بعيد. فمنذ عام ١٩٥٤ قام المنشقّ السوفياتيّ "بيتر دريابين" بالتدليل على وجود جاسوسَين للمخابرات السوفياتيّة والألمانيّة الغربيّة اسميهما الرمزيّين: بيتر وبول. وأثبت تحليل جرى عام ١٩٥٧ من قبل وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة أنّ "فلفه" رئيس عمليّات التجسّس المضادّ قد يكون عميلاً مزدوجًا، لكنّ الأدلّة المتوفّرة ضدّه كانت كثيرة الغموض حتّى يمكن استغلالها في الهجوم عليه.

وبقي الأمر في حيّز الشكّ مدّة سنتَين حتّى بدأ جولينيوفسكي بإرسال رسائله. وفي بوادرها الأولى أشار جولينيوفسكي إلى أنّ السوفيات يوصلون إلى البولنديّين مختصرات عن التقارير الداخليّة في جهاز الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة، ممّا عزّز الشكوك الحائمة حول "فلفه" لكنّها، مع ذلك، لم تكن تسمح بالانقضاض عليه.

في إحدى رسائله الأخيرة أعطى جولينيوفسكي معلومات شديدة الدقّة عن أنّ مدير قسم التجسّس المضادّ في المخابرات السوفياتيّة يفتخر بأنّ ستّة من ضبّاط الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة ذهبوا إلى الولايات المتّحدة عام ١٩٥٦ على نفقة وكالة المخابرات المركزيّة، إثنان منهم عملاء للسوفيات، وكان من السهل التأكّد من أنّ "فلفه" كان من بين المجموعة، ومن ثمّ وجدت وكالة المخابرات المركزيّة الخلل في الهيكل إذ دخلت عمليّة "دروزي"، الإسم الرمزيّ لعمليّة مطاردة "فلفه"، في مرحلتها النشطة. فوُضع هاتفه تحت المراقبة، ما سمح بتسجيل عدد كبير غير عاديّ من المكالمات بين "فلفه" و"هانز كليمنس" مدير فرقة المراقبة في الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة في بون، العاصمة الاتّحاديّة، فجرت عمليّة ملاحقته أيضًا.

وبعد مضيّ فترة من الزمن جرت مقارقة واضحة بين تنقّلاته وتوقيت الإرسال باللاسلكيّ السوفياتيّ الخفيّ. وفي يوم جمعة من تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦١ اتّصل كليمنس مع "فلفه" ليشتكي إليه أنّه تلقّى رسالة لم يستطع فكّ رموزها، فأجابه "فلفه" بأن يرسلها له بالبريد المضمون. إعترض رجال الأمن الألمانيّ الرسالة فوجدوها محتوية على ورقة مفردة تحوي تعليمات بالشيفرة مرسلة من رئيسه السوفياتيّ. فأُعيد لصق الظرف ووصلت الرسالة بشكل عاديّ إلى "فلفه" في صباح الإثنين التالي. وكانت معه الوثيقة عندما جرى توقيفه فوضعها "فلفه" في فمه مباشرة، لكنّ رجال الشرطة جندلوه وأجبروه على فتح فمه قبل أن يبتلع الورقة.

وهكذا، فإنَ "بليك ولونسديل وفلفه" قد انكشفوا بواسطة جولينيوفسكي. لكنّ تحقيقًا مفصّلاً أثبت أنّ الروس استعملوا جولينيوفسكي، رغمًا عنه، لإيصال معلومات محدّدة إلى الغربيّين. وقد أعلن أحد ضبّاط التجسّس المضادّ في وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة أنَ مفتاح قضيّة جولينيوفسكي هو أنّ الروس اكتشفوا لعبته، في وقت ما، ولم يوقفوه. ومنذ ذلك الحين بدأت عمليّة إعادة مراقبة رسائله وتنقيحها فأخذوا يكملون أو يصلحون المعلومات التي كان قد أرسلها من قبل.

مثلاً، كانت إحدى الرسائل قد دعمت شكوك وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة حول "فلفه" لكنّ عناصر الموضوع التي قدّمها جولينيوفسكي كانت شديدة الغموض لتسمح بإجراء استنطاق رسميّ. على العكس من التلميح لعملاء الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة .B.N.D الذين توجّهوا إلى الولايات المتّحدة فقد كان إشارة موجّهة وكافية لتوضيح الاشتباه.

وعندما حلّل هوارد رومان رسائل جولينيوفسكي الأربعة عشر، لاحظ أنّه قد حدث نقل في محور اهتمامها، ففي البداية، لم يكن الأمر متعلّقًا بالقضايا البولونيّة، وفي النهاية أصبحت متركّزة على تقارير عمّا يقوله السوفيات. فلا شكّ في أنّ الروس أسقطوه من حساباتهم ولم يعد ينفعهم بشيء، وكان ذلك أحد أهمّ الأسباب التي تشرح انشقاقه إذ أصبح مبعدًا. لكن، بعد أن بدأ الكتابة إلى الغرب بوقت قصير، أعاده الروس إلى الخدمة، وأخذ يشير إلى الغربيّين بما أراد أن يقول أسياده الشرقيّون، خاصّة في ما يتعلّق بالبريطانيّين. فإذا نظرنا إلى موقف أنغلتون، ومن وجهة النظر البريطانيّة، لبدا ذلك معقولاً تمامًا. خاصّة أنّ ذلك لا يعني بأنّ كلّ المعلومات التي قدّمها جولينيوفسكي هي تضليلات سوفياتيّة، كما أنّ ذلك لا يعني بأنّه قام بالدور الذي طلبته منه المخابرات السوفياتيّة، عن طيب خاطر.

في الواقع، إنّ فقدان "قلفه" كـان وحده يتجـاوب مـع مخطّـط متعمّـد. ولقد أثـارت قضيّة "قلفه" فضيحة ضخمة في ألمانيا بحيث أنّهم واجهوا موضـوع حلّ الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة .B.N.D.

أمّا الروس فإنّهم لم يفقدوا إلاّ جاسوسًا في تلك العمليّة، علمًا بأنّه لم يكن ذا قيمة كبيرة، إذا ما اعتبرنا الشكوك التي كانت قائمة حوله قبل ذلك بسنين عديدة. ومباشرة بعد تلك القضيّة، كما أوحت بذلك عناصر أخرى من قضيّة جولينيوفسكي، فإنّ الروس قرّروا، ظاهريًّا، توقيف لعبتهم، إذ أصبحت مبادرات البولنديّ غير المنضبطة يمكن أن تكلّفهم غاليًا. ويبدو أنّهم، عند ذلك، عملوا على انشقاقه وذلك بأمرهم للبولنديّين بأن يقيّدوا عليه حريّته في السفر أوّلاً، وثانيًا عندما طلبوا منه التعاون بالبحث عن عميل متسلّل في صفوفهم، علمًا بأنّ جولينيوفسكي كان علم بأنّه هو موضوع البحث. فهرب إلى الغرب مرعوبًا من فكرة أنّ المخابرات السوفياتيّة قد تكتشف أمره. ولا يرتكز هذا التحليل على أيّ برهان ماديّ حقيقيّ، لذلك، لم يكن من الضـروريّ أن يكون صحيحًا ولا يمكن نكران النتيجة التي يؤدّي إليها. فسواء كانت المخابرات السوفياتيّة قد أرادت أم لا، فإنّ جولينيوفسكي قد أدخل في جسم وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة فيروسًا كان لا بدّ من أن يتوصّل إلى شلّ كلّ الأعمال الخفيّة للوكالة ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ. هذا الفيروس كان الريب، الشكّ في أنّ عميلاً للمخابرات السوفياتيّة قد استقرّ في قلب وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة.

لقد كان جولينيوفسكي أوّل من تحدّث عن الخلد، وكان مرتكزًا على قاعدة صلبة عندما تحدّث عن ذلك، كما قال أحد ضبّاط المخابرات الأميركيّة. وحسب رأي رومان: إنّ جولينيوفسكي كان يعتبر تسرّب المخابرات السوفياتيّة داخل وكالة المخابرات المركزيّة بمثابة أمر واقع. فقد كان قد سمع الروس يتحدّثون عن ذلك، وكان مقتنعًا بأنّ

ذلك التسرّب هو الذي أدّى إلى انكشافه، وأنّ بقاءه على قيد الحياة لم يكن معلّقًا إلاّ بخيط واهن. ربّما بالغ جولينيوفسكي في مخاوفه، وربّما كان الروس قد اكتشفوا لعبته بواسطة مصدر آخر كالإنكليز مثلاً، فالمخابرات البريطانيّة MI-6 لم تكن تجهل شيئًا من المراسلات الجارية بين جولينيوفسكي ووكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة. وقال أحد ضبّاط الوكالة المطّلعين إنّه كانت هنالك واقعة أخرى أثبتت الفرضيّة الرهيبة: "فرسالة جولينيوفسكي، وهي وثيقة تعود إلى زمن وجوده في وارسو، تبرهن، بدون أيّ ريب، عن أنّ الروس كانوا على اطّلاع على أحد مشاريعنا العمليّاتيّة، وحتّى ترد هذه المعلومات في رسالة لجولينيوفسكي، كان لا بدّ من أن يكون الروس قد حدّثوه عنها بخمسة عشر يومًا قبل ذلك على الأقلّ، يوم اتُّخذ القرار في واشنطن. ليس من الضروريّ القول بأنّ ذلك المشروع كان معتبرًا "سريًّا للغاية" إذ إنّ الأمر كان يتعلّق بتجنيد أحد ضبّاط الاستخبارات البولونيّة العاملين في سويسرا. فكيف استطاع الروس معرفة ذلك إذا لم يكن لهم عميل داخل وكالة المخابرات المركزيّة[١]؟

---

١ ـ رصاص، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٥.

كليموف، أو أناتولي جولستين: هديّة نزلت من السماء

في كانون الأول ـ ديسمبر، تقدّم الضابط "كليموف" العامل في المخابرات السوفياتيّة فجأة إلى مدير مركز وكالة المخابرات المركزيّة في هلسنكي وسلّمه رزمة من الوثائق وأعلن نيّته بالانشقاق..

إنّ نفس الشخص، ولكن باسم "أناتولي جولستين"، كان قد جلب انتباه وكالة المخابرات المركزيّة عام ١٩٥٤ في فييناّ حيث كان مبتدئًا في مهنة التجسّس المضادّ.

في ذلك العهد كان أحد زملائه "بيتر دريابين" قد انشقّ. وأثناء استجوابه أعطى لائحة بضبّاط المخابرات السوفياتيّة الأكثر قابليّة للتجنيد من قِبَل وكالة المخابرات المركزيّة، وجاء اسم جولستين في المرتبة الثانية.

تعود حساسيّة جولستين في هذا الأمر لعدّة أسباب، كما فسّر دريابين قائلاً: إنّ زوجته معروفة بطيشها وخفّتها وبالتالي يمكن استغلال ذلك لإثارة أعصابه، ومن جهة أخرى إنّه يقيّم نفسه أكثر ممّا يستحقّ لذلك فهو غير شعبيّ بين أقرانه..

وقبل أن تبادر وكالة المخابرات المركزيّة إلى أيّ حركة من ناحيته، استُدعي جولستين إلى موسكو وعُيّن في الفرع الإنكليزيّ ـ الأميركيّ في الدائرة الأولى من المخابرات السوفياتيّة، وهي الهيئة المسؤولة عن إدارة عمليّات التجسّس في الأهداف الموجودة في بريطانيا والولايات المتّحدة. ومن ثمّ عمل أشهرًا في موسكو في وحدة مهمّتها تحليل تقارير "الجواسيس" المتسلّلين في حلف الأطلسيّ. ومنذ ذلك الحين، كما

قال جولستين في ما بعد، أخذ يكره النظام السوفياتيّ وقرّر عندها أن يقدّم خدماته إلى المعسكر الآخر".

منذ أن اهتمَ بذلك بدأ البحث عن الأدلّة في تقارير التجسّس التي تسمح بتمييز مخبري المخابرات السوفياتيّة، وأخذ يحفظ ما أمكن محتويات المستندات المسروقة من ملفّات حلف الأطلسيّ.

لم تسنح له الفرصة لتحقيق مشروعه إلاّ عام ١٩٦١ عندما عُرضت عليه هويّة جديدة باسم "كليموف"، وأُرسل إلى هلسنكي مع زوجته وابنه.

لم تنشئ وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة أيّ علاقة بين جولستين فيينّا وكليموف هلسنكي، ولم تقم بأيّ محاولة لتجنيده. عندها كان جولستين في طريقه لأخذ المبادرة بنفسه.

قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة: "لقد أصابنا ذلك بصدمة، فكان، بشكل ما، هديّة أنزلت من السماء أتت لتسمح للوكالة بالحصول على نصر عظيم على خصمها المخابرات السوفياتيّة، لأنّ جولستين كان يدّعي أنّه يحمل معه من المعلومات ما يكفي لفضح عدّة جواسيس سوفيات"...

لكن... ماذا لو كان عميلاً مضلِّلاً؟...

لقد استبعد ضبّاط مركز وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة في هلسنكي هذه الفرضيّة. ففي الأربع وعشرين ساعة التي تلت انشقاقه أعطى جولستين كميّة من المعلومات بحيث أنّ معظم عناصر الوكالة في هلسنكي اقتنعوا بحسن نيّته لا سيّما عندما أخبرهم عن نشاطات كبيرة للسفارة السوفياتيّة في هلسنكي، كانوا على ثقة أكيدة من حقيقتها.

في الواقع، ليست مصداقيّة جولستين ما أثار عدّة مشاكل، بل تصرّفه.

فلقد كان المنشقّون دائمًا بمثابة حالات صعبة. وقد صرّح أحد ضبّاط قسم الكتلة السوفياتيّة قائلاً: "إنّ المنشقّ العاديّ لا يتواجد أبدًا إذ إنّ الأسباب التي تدعوه للانشقاق مرتبطة، بصورة عامّة، بأمور بسيكولوجيّة خطيرة. ففي داخل المنشقّ يوجد أمر غير طبيعيّ عادة ما يكون خطيرًا. مثلاً إنّ "جوزنكو" كلّف الكنديّين أكثر من عشرة ملايين من الدولارات فكان مدمنًا على الكحول، وعندما كان يخرج للترويح عن نفسه كان قادرًا على إنفاق مئات الآلاف من الدولارات دفعة واحدة. فهو بمثابة كلّ شيء هشّ ولا بدّ من معاملته معاملة خاصّة لأنّه هرب من "الديكتاتوريّة" ولم يكن الكنديّون يريدون أن تتكشف مظاهره السلبيّة. ولقد كانت تلك إحدى أكبر مظاهر الازعاج التي لاقتها الحكومة الكنديّة...

لقد واجهت الولايات المتّحدة الأميركيّة نفس المشكلة مع جولينيوفسكي، لكنّه لم يكلّفها نفس المبلغ المذكور آنفًا. وقد ذكر هوارد رومان ما يلي: "أُصيب جولينيوفسكي أثناء الاستجواب بسعر من الجنون. فكان يدندن بأغنيات أوروبيّة غربيّة قديمة بصوت شديد الارتفاع ويثمل حتّى الموت". لقد توصّل جولينيوفسكي مرّة إلى القول بأنّه آخر سليل من عائلة رومانوف القيصريّة الروسيّة، وبأنّ هنري كيسنجر جاسوس سوفياتيّ. وعندما عُرض على الأطبّاء النفسيّين جاءت التقارير بأنّه مصاب بانفصام الشخصيّة. وعندما طُلب منه التعاون مع الضبّاط في قسم الكتلة السوفياتيّة رفض جولينيوفسكي ملحًّا على التعاون مع كبار المسؤولين في الولايات المتّحدة من مثل رئيس الجمهوريّة".

في النهاية تمّ تسليم جولستين إلى أنغلتون، فكان ذلك بداية لأكثر العلاقات غرابة في الحرب السريّة... إذ ظهر تماثل كامل في وجهات النظر بين الإثنين. فكان

جولستين يعيش ليحذّر من المكائد السوفياتيّة، أمّا أنغلتون فكان يعزو للاستخبارات السوفياتيّة قدرة في الدسائس ذات دقّة شيطانيّة. وكان جولستين مقتنعًا بأنّ المخابرات السوفياتيّة تمتلك وسائل عديدة جدًّا ليس لخداع الحكومة الأميركيّة فحسب بل كلّ الدول الغربيّة، وتتولّى إدارة ذلك كلّه "إدارة تشويش المعلومات" التي وضعت عملاءها في أعلى المستويات ليس فقط في أجهزة الاستخبارات الغربيّة بل في الإدارات الحكوميّة.

وباعتبار أنّ جولستين أتى بعد توقيف "بليك ولونسديل وفلفه" ولم تكن قد انحلّت المشاكل التي سبّبها انشقاق جولينيوفسكي، فإنّ رسالته بدت شديدة الإقناع خاصّة بالنسبة لأنغلتون. لقد أصبح جولستين الشيخ الروحيّ لأنغلتون الذي بنى عليه كلّ مهنته وأعطاه اسمًا رمزيًّا هو AE/Ladie، وأصبح المفسّر الأوّل للتجسّس المضادّ، ودبّر له أنغلتون مقابلة مع روبرت كينيدي شقيق رئيس الجمهوريّة، الذي كان آنذاك وزيرًا للعدل. رفض هذا الأخير أن يخصّص لجولستين مبلغ ثلاثين مليون دولار عندما طلبها منه دون اضطراب ليقوم بعمليّات ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ. في النهاية لا يمكن نفي أنّ جولستين استطاع أن يكسب الموقف لصالحه إذ إنّ أعظم شخصيّات الدولة أصبحوا مستعدّين للإصغاء إليه...

عندما كشف جولستين عن وجود شبكة سمّاها "Saphir" بالشيفرة، تسلّلت إلى الاستخبارات الفرنسيّة وحتّى إلى داخل حكومتها، نُقل الخبر إلى باريس على شكل رسالة شخصيّة من الرئيس كينيدي إلى الجنرال ديغول.

وكان جولستين يؤكّد على وجود عملاء سوفيات في كلّ مكان، في الولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وكندا وأستراليا... ولمّا سأله الكنديّون عن الإيضاحات أجاب بأنّ أحد سفرائهم في الاتّحاد السوفياتيّ كان لوطيًّا فاستغلّته المخابرات السوفياتيّة. كما أنّه حذّر البريطانيّين من شبكة تضمّ خمسة عملاء

سوفيات. وقد تمّ التعرّف على اثنين من الخمسة هما: برجيس وماكلين، وكان فيلبي ثالثهما.

لا شكّ في أنّنا نستطيع أن نتصورّ ذلك القهر الذي شعر به فيلبي عندما علم بالحكم الصادر على جورج بليك. وأضافت هذه الواقعة حملاً على الشكوك التي كانت قائمة حوله فجعلته يفقد زمام الأمور. ولقد انهار في النهاية عندما أخضعه للتحقيق مدير قسم المخابرات البريطانيّة MI-6 في بيروت "نيكولا إليوت". لكنّ اعترافاته كانت محدودة جدًّا لذلك بقي حرًّا، وتوجّه إليوت إلى لندن ليناقش مع رؤسائه الطريقة الواجب اتّباعها حياله، فشعر فيلبي بنفسه محصورًا فهرب في ٢٣ كانون الثاني - يناير ١٩٦٣، أي بعد اثنَي عشر عامًا من الاتّهامات الأولى التي وجّهها إليه هارفي. بعد ذلك بعام اعترف السير "أنطوني بلونت"، محافظ المتحف الملكيّ، بأنّه قام بالتجسّس لحساب السوفيات خلال الحرب وسهّل هرب "برجيس ومالكين" عام ١٩٥١. لكنّ بلونت لم يلحق بفيلبي إلى المنفى، إذ إنّ العفو شمله لاعترافه الطوعيّ. وكان لا بدّ من إيجاد الشخص الخامس فاتّجهت التحريّات إلى أعضاء MI-6 الذين عرفوا برجيس. وكما قال أحد المحقّقين البريطانيّين: كلّما ازددنا تعمّقًا في التحريّات كلّما شعرنا بأنّ مجموعة الخمسة قد تحوّلت إلى مجموعة الخمسة والعشرين...

لم يوفّق أنغلتون في تحريّاته التي أجراها داخل وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، كما حصل بالنسبة للمخابرات البريطانيّة. فحسب رأي جولستين كان للمخابرات السوفياتيّ عميل يسمّى "ساشا" يخبر السوفيات بكلّ العمليّات التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة اعتبارًا من القواعد الألمانيّة. وفي الواقع كان "ساشا" موجودًا في الكتلة السوفياتيّة لكنّ الإسم ليس وحده الذي كان ينطبق على الوصف بل إنّه عمل فعلاً في ألمانيا في بداية الخمسينات ونظّم، بالتعاون مع

المهاجرين الروس، عمليّات ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ. فمن المستحيل أن يُسمّى عميل باسمه الحقيقيّ. لكن من جهة أخرى كان جولستين قد أعطى خير دليل على الهويّة الحقيقيّة للمخبر ساشا وقال إنّه نسي اسمه الحقيقيّ لكنّه متأكّد من أنّ أوّل حرف من اسمه هو "ك". وتوسّع التحقيق الذي لم يصل في النهاية إلاّ إلى إقالة موظّف أُدين بالاختلاس.

بينما كانت تجري مطاردة ساشا أثار جولستين طيفًا آخر أشدّ هولاً، فلقد ذكر بأنّ "ف. ن. كوفشوك" رئيس القسم المهتمّ بالسفارة الأميركيّة والتابع للإدارة الثانية في المخابرات السوفياتيّة قام بزيارة إلى الولايات المتّحدة في عام ١٩٥٧. وحسب رأي جولستين إنّ رتبة كوفشوك عظيمة في المراتب الإداريّة، وليُرسل هو بالذات، فلا بدّ من أن يكون قد كُلّف بمهمّة شديدة الحساسيّة كلقاء "الخلد" الذي ربّما كان قد جُنّد في موسكو وأضحى يتمتّع بمركز ممتاز في وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة.

بالإضافة إلى ذلك حذّر جولستين أنغلتون من أنّ السوفيات قد حاولوا السعي لمنع وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة من اكتشاف المهمّة الحقيقيّة لكوفشوك بأن أرسلوا عملاء ينقلون معلومات مزيّفة بهدف تغيير اتّجاه التحقيق. وكان هذا التحذير في غاية الوضوح لأنّه أضاف أنّ هؤلاء العملاء هم عملاء مزدوجون للمخابرات السوفياتيّة والمكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ. وفي الواقع، وقبل أشهر من انشقاق جولستين، اتّصل ضابطان بهذه الأوصاف، كانا يعملان في الوفد السوفياتيّ إلى الأمم المتّحدة، مع مكتب التحقيقات الفدراليّ وعرضا عليه خدماتهما، ولقد عُمّدا باسم "سكوتش" و"بوربون". وبلغ الجدل قدرًا عظيمًا في مكتب التحقيقات الفدراليّ، لكنّ أنغلتون بقي منتظرًا ظهور العناصر الجديدة من المكيدة.

في حزيران - يونيو ١٩٦٢ قام عميل ثالث هو "يوري نوسنكو" وكان ضابطًا في المخابرات السوفياتيّة ومرافقًا للوفد السوفياتيّ في مؤتمر نزع السلاح في جنيف، بالاتّصال مع وكالة المخابرات المركزيّة وقال إنّه مستعدّ لإعطاء معلومات مقابل ٩٠٠ فرنك سويسريّ كان قد أنفقها، حسب ادّعائه، من أموال المخابرات السوفياتيّة في إحدى سهرات المتعة. وسارع "بيت باغلي" من وكالة المخابرات المركزيّة في مركز بون إلى جنيف ولحقه جورج كيسفالتر من واشنطن ليقوم بدور المترجم.

حسب قول "جون هارت" كان نوسنكو" يستغرق ساعة ونصف ليصل إلى الموعد وذلك ليتأكّد تمامًا من عدم ملاحقته. وكانت إجراءاته الوقائيّة تتضمّن التنقّل من بار إلى آخر فيتلقّى فيها خمسة او ستّة أقداح من الويسكي مع الصودا، وكان إفراطه في الخمرة يستمرّ حتّى نهاية اللقاء. لقد أسرّ نوسنكو، في ما بعد، إلى هارت قائلاً: "حتّى أكون صادقًا معك لقد كنت في تلك اللقاءات فاقدًا للوعي".

كان جورج كيسفالتر المولود في لينغراد هو الذي يدير الاستنطاقات التي نعلم منها أنّ نوسنكو انتسب إلى المخابرات السوفياتيّة عام ١٩٥٣، والتحق بالإدارة العامّة الثانية وهي الهيئة المكلّفة بتجنيد الأجانب المقيمين أو الزوّار لموسكو، وأصبح، بعد ترقيته، عام ١٩٦٣ نائب رئيس القسم السابع من نفس الإدارة، ويضطلع بمهنة تجنيد السيّاح الأميركيّين.

وأفشى نوسنكو من بين أسرار أخرى أنّ جدران سفارة الولايات المتّحدة في موسكو مليئة بأجهزة تتصّت إلكترونيّة وأنّ المخابرات السوفياتيّة قد جنّدت موظّفًا لوطيًّا بريطانيًّا.

في ١١ حزيران - يونيو أبرق "باغلي" إلى القيادة العامّة قائلاً: لقد أعطى العميل ما يكفي من البراهين عن حسن نيّته وأمدّنا بمعلومات رئيسيّة وهو مستعدّ لمقابلتنا

عندما يجري إرساله إلى الخارج، وسيلقانا ما أمكنه ذلك حتّى ذهابه إلى جنيف في ١٥ حزيران - يونيو. وحذّر نوسنكو، عند لقائه الأخير مع باغلي، من أيّ اتّصال معه في موسكو، فبدا ذلك التدبير الوقائيّ معقولاً تمامًا.

أعطى "باغلي" لنوسنكو رقم هاتف وكلمة سرّ يمكنه استعمالهما متى شاء، ثمّ غادر إلى واشنطن. وعندما التقاه أنغلتون كان في حالة غيظ شديدة فقال عن ذلك اللقاء: لقد رأيت باغلي يوم السبت ولم يكن ذلك اللقاء عاديًّا، فهو متأكّد من أنّه التقط بين يديه أكبر صيد في حياته، وأنا أعتقد بأنّه على حقّ، لكنّ كلّ ما قاله لي يتناقض مع تصريحات جولستين. فحسب هذا الأخير، إنّ وصول كوفشوك إلى الولايات المتّحدة كان بغاية لقاء عميل متسرّب إلى الدوائر المسؤولة في وكالة المخابرات المركزيّة. أمّا نوسنكو فقد أكّد منذ البداية على أنّ هدف الزيارة هو الاتّصال بعميل اسمه "أندريه" كان عسكريًّا أميركيًّا عاملاً في موسكو عندما جنّدته المخابرات السوفياتيّة. فكما يبدو ظاهريًّا لم يكن لأندريه علاقة مع "الخلد" المتعشعش في قمّة وكالة المخابرات المركزيّة. عندها تذكّر أنغلتون نبوءة جولستين فاستنتج بأنّ أندريه ليس إلاّ فِدية من نوسنكو يقصد منها إخفاء المهمّة الحقيقيّة لزيارة كوتشوك. كما أنّ النهاية التي أصابت بوبوف، كما تحدّث عنها نوسنكو، كانت مطمئنة جدًّا بل وأكثر ممّا يجب حيث أنّ وكالة المخابرات المركزيّة فسّرت تلك الحادثة على أساس افتضاح العميلة تايروفا بسبب ملاحقة عناصر مكتب التحقيقات الفدراليّ لها. لكنّ جورج بليك عميل المخابرات السوفياتيّة داخل المخابرات البريطانيّة MI-6 أعلن بأنّه كان قد اكتشف الدور المزدوج لبوبوف قبل حادثة تايروفا بزمن بعيد.

ثمّ إنّ جولستين تحدّث عن مصدر للمخابرات السوفياتيّة شديد الأهميّة في وكالة المخابرات المركزيّة وبالتالي قادر على أن يحرق أيّ عميل. بينما يؤكّد نوسنكو على

أنّ المخابرات السوفياتيّة ألقت القبض على بوبوف من خلال عمليّة مراقبة عاديّة عندما كان السوفيات يلاحقون دبلوماسيًا أميركيًا فرأوه يضع رسالة في صندوق ميت فلم يكن عليهم إلاّ أن ينتظروا الذي سيلتقطها منه فكان بوبوف.

وتنطبق رواية نوسنكو مع ما رواه بوبوف في رسالته الأخيرة إلى "راسل لانجيل".

وعندما حدث التوقيف تبيّن أنّ البطاقة التي يحملها بوبوف كانت مزوّرة من قبل المخابرات السوفياتيّة.

من جهة أخرى كان لانجيل واثقًا بأنّ أحدًا لا يتبعه، أمّا نوسنكو فقد قال إنّ كلّ ذلك هراء لأنّ الخادمة التي تقوم بأعمال المنزل لدى لانجيل وضعت مادّة على أحذيته بحيث تتمكّن الكلاب من تتبّع أثره أينما اتّجه.

فإذا كان نوسنكو يقول الحقيقة فمن غير المجدي أن نفرض أنّ عملاء المخابرات السوفياتيّة قد تسرّبوا إلى قمّة وكالة المخابرات المركزيّة...

لكنّ أنغلتون بقي مرتابًا وانضمّ إلى وجهة نظر "باغلي" بعد أن شرح له الموقف ووضع تحت تصرّفه كافّة ما قدّم جولستين. وقال باغلي عن ذلك: "وكما كنت أعتبره حتّى ذلك الحين، فإنّ نوسنكو كان يبدو لي مضمونًا. لكنّني عندما قارنت تصريحاته مع أقوال جولستين لاحظت شيئًا غريبًا، إذ إنّ معلومات نوسنكو تميل إلى نكران أو تحويل الدلائل المقدّمة من قِبَل جولستين".

بعد أن أمضى باغلي عطلة نهاية أسبوع كاملة في مكتب أنغلتون عاملاً على تصفّح الملفّات، توجّه إلى نيويورك ليجتمع مباشرة مع المنشقّ السوفياتيّ، ولأسباب أمنيّة لم يذكر باجلي اسم نوسنكو، وقال لجولستين إنّ المعلومات الجديدة المتوفّرة لدى

وكالة المخابرات المركزيّة وصلت بالبريد، فهزئ منه جولستين إذ قد كان واضحًا أنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد اتّصلت مع مخبر جديد أرسلته إلى المخابرات السوفياتيّة كي يضلّل المعلومات التي يقدّمها جولستين. وعاد باغلي إلى سويسرا مقتنعًا بأنّ نوسنمكو عميل مضلِّل وأنّ محاولة يائسة تجري من قبل السوفيات لتوجيه مطاردة الخلد إلى اتّجاه خاطئ.

في الواقع كان هناك شيء غريب إذ إنّ أفضل مصدرَين للمعلومات تابعين لوكالة المخابرات المركزيّة في المخابرات السوفياتيّة قد نضبا بفاصل زمنيّ مقداره سنة أحدهما عن الآخر. فالتسرّب الحاصل بخصوص تجنيد الضابط البولنديّ في سويسرا وموضوع جولينيوفسكي لا يمكن أن يفسّرا إلاّ بوجود خلد، وذلك أكّد عليه جولستين. فخلال الأشهر الستّة التي تلت انشقاقه قدّم ثلاثة من ضبّاط المخابرات السوفياتيّة "سكوتش وبوربون ونوسنكو" خدماتهم سواء في نيويورك أو في جنيف، ليحلّوا محلّه. كما قدّم مجنّد آخر هو "أوليج بنكوفسكي" من المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ عشرة آلاف صفحة من الوثائق شديدة السريّة عن الصواريخ السوفياتيّة السبّاقة في مجال الفضاء.

هكذا أصبح لدى وكالة المخابرات المركزيّة، في ربيع ١٩٦٢، أربعة مخبرين سوفيات دفعة واحدة، فكان ذلك وكأنّه أكبر فرصة خلال حياة هذه الوكالة. فمن الصعب الإيمان بأنّ كلّ هؤلاء المتطوّعين صادقون في ما إذا كانت وكالة المخابرات المركزيّة موضع تسرّب عميق كما تفرضه الحوادث المتعلّقة بقصّة جولينيوفسكي وتأكيدات جولستين، فإذا ما كان هؤلاء العملاء صادقين فإنّ الخلد لا بدّ حذّر المركز العسكريّ الموسكويّ من هؤلاء الخونة وكان لا بدّ من إسكاتهم بأسرع وقت ممكن، وربما أنّ ذلك غير ممكن، فمن الضروريّ إثارة الشكّ حولهم على أنّهم عناصر

مضلّلة تابعة للمخابرات السوفياتيّة. وكان بنكوفسكي الرجل الوحيد الذي جرت تصفيته. كان لقاؤه الأوّل مع الاستخبارات الغربيّة في ٢٠ نيسان - أبريل ١٩٦١ في فندق "مونترويال" بلندن. وكان قد مضى عليه زمن طويل وهو يبحث يائسًا عن إقامة اتّصال ما فحاول اعتراض سيّاح أميركيّين وكنديّين في شوارع موسكو وطلب منهم نقل الرسائل فكانت جرأة المحاولة باعثًا للشكّ بمحاولة تضليل. في النهاية توصّل إلى التعرّف على "غريفل وين" وهو رجل أعمال بريطانيّ كان يقوم بتنظيم تبادل البعثات التجاريّة بين الشرق والغرب فقابله بنكوفسكي في اجتماع رسميّ. وباعتباره ضابطًا في المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ فإنّ العلاقات التجاريّة كانت آخر اهتماماته، فقد كان عمله يتضمّن إدخال أكبر عدد ممكن من العملاء في الوفود السوفياتيّة ومن ثمّ الإشراف على عملهم أثناء زياراتهم للغرب. وأمل يبنكوفسكي بالثقة بـ "وين" واستحلفه بأن يصف للغربيّين شروط الحياة الصعبة في الاتّحاد السوفياتيّ، وطلب منه حمل رسالة إلى المخابرات البريطانيّة.

وعندما وصل ضابط المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ إلى لندن على رأس وفد تجاريّ سوفياتيّ كان ممثّلو المخابرات البريطانيّة ووكالة المخابرات المركزيّة في استقبالهم، ومن بينهم جورج كيسفالتر طبعًا. وقد استلم منهم جهاز تصوير مصغّر من نوع "مينوكس" وجهاز إرسال ترانزيستور وعاد إلى موسكو واندفع في عمله التجسّسيّ. في أيّار - مايو التالي ذهب "وين" مرّة أخرى إلى العاصمة السوفياتيّة واستقبله بنكوفسكي رسميًا في المطار، وبعدها استقلاّ السيّارة التي أوصلتهما إلى المدينة فأعطاه عشرين بكرة من الأفلام للتحميض. في نفس الليلة أتى بنكوفسكي لزيارة "وين" في غرفته التي حجزها له في فندوق المتروبول، وسلّمه ثلاثين بكرة فيلميّة أخرى. وفي الصيف أتى بنكوفسكي مرّة أخرى إلى لندن بزيارة رسميّة، وخلال

شهر تقريبًا كان يقابل بانتظام جورج كيسفالتر وزملاءه من المخابرات البريطانيّة M.I.6 . من جهة أخرى جرى تعريفه إلى "جانيت كريشهولم" وهي زوجة ملحق في السفارة البريطانيّة في موسكو، وكانت أمًّا لثلاثة أولاد، وكُلِّفت بإقامة الاتّصال معه في المستقبل.

بعد وقت قصير من عودته إلى موسكو اتّصل بنكوفسكي مع أولاد السيّدة كريشهولم الذين كانوا يلعبون بالرمل على حافة شارع كبير في موسكو، بينما كانت الأمّ جالسة على مقعد مجاور تتابع المشهد، وسلّمهم كيسًا من الحلوى واستمرّ في نزهته وكان في الكيس أربع كرات.

إشتغل بنكوفسكي بمنتهى النشاط وكان يقابل الأميركيّين والبريطانيّين بشكل مكشوف بحكم مسؤوليّاته الدبلوماسيّة في موسكو، لكنّه شوهد مع كيسفالتر بشكل سريّ في باريس. واستمرّ في تقديم الصور والمستندات السريّة بواسطة السيّدة كريشهولم، أو بوضعها في صندوق رسائل ميت وأمثاله الموجودة في أماكن مختلفة في موسكو. وكان يكفيه استقبال صفير بالرايو على شكل إشارة للإعلام عن استلام الرسائل.

لم تحدث أيّ مشاكل حتّى ٥ كانون الثاني - يناير ١٩٦٢، وخلال مقابلة قصيرة مع السيّدة كريشهولم لاحظ سيّارة كانت تلاحقه مخالفة اتّجاه السير ومن ثمّ لاحظ أنّ رؤساءه قد أجّلوا موعدًا لسفره إلى الولايات المتّحدة كان مقرّرًا في نيسان ـ أبريل، وجرت مراقبته باستمرار. وبتاريخ ٥ تمّوز - يونيو وبينما كان يتناول طعام الغداء في مطعم صينيّ في موسكو لاحظ أنّه محاط بشرطة المخابرات السوفياتيّة، وكانت النهاية في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٢.

رنّ الهاتف عند "ألكسيس دافيسون" الطبيب التابع لسلاح الجوّ في السفارة الأميركيّة، فرفع السمّاعة التي أُغلقت، وجرى نفس الحادث بعد ذلك بقليل عند "هوغ

مونتغومري" وهو ضابط وكالة المخابرات المركزيّة التابع للهيئة الدبوماسيّة. كان ذلك بمثابة إشارة إلى إمكانيّة الاستغناء عن علبة الرسائل الميتة في شارع "بوشكين" وذلك لتبيان عدم جدوى علبة أعواد الثقاب المخفيّة وراء منور إحدى البنايات. وتأكّد دافيسون من الخبر عندما مرّ أمام إحدى واجهات المخازن في شارع كوتوزوف فرأى العلامة السوداء الدالة على الحداد. عندها ذهب ريتشارد جاكوبس، موظّف وكالة المخابرات المركزيّة الذي يعمل تحت غطاء دبلوماسيّ، إلى شارع بوشكين فوقع في مصيدة المخابرات السوفياتيّة، وكانت النتيجة طرد ثمانية دبلوماسيّين بريطانيّين وخمسة أميركيّين من الاتّحاد السوفياتيّ. أمّا "وين" فقد أوقف في بودابست وأُعيد إلى موسكو وسُجن في سجن "لوبيانكا" ونُفّذ حكم الإعدام ببنكوفسكي[1].

١ ـ رصاص، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ص٢٨٥ ـ ٢٩٤.

نوسنكو: بين "الخلد" و"المنشقّ"

في مقاربة أخرى لموضوع جولستين، جاء أنّه منذ انتهاء أزمة الصواريخ في كوبا أصبح رئيس الاستخبارات المضادّة في وكالة المخابرات المركزيّة "جيمس أنغلتون" أسير أفكار بثّها في رأسه أحد اللاجئين من الاتّحاد السوفياتيّ المدعوّ جولستين، فأصبح بعدها مقتنعًا بوجود عميل للاستخبارات السوفياتيّة في داخل الدهاليز السريّة لوكالة المخابرات المركزيّة. ولم يكن أنغلتون قد حصل على شيء واضح من الشبكات التي نشرها في مختلف المناطق التي أخبره عنها جولستين. أمّا سكوتش وبوربون ويوري نوسنكو الذين كانوا بمثابة نصر سهل بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة فكان وجودهم في أحضان الأميركيّين وكأنّه متّفق عليه من قِبل الاستخبارات السوفياتيّة أو كأنّهم كانوا إسفينًا يُدقّ في الجهاز الأميركيّ فيقلّلون من شأن جولستين ومعلوماته. لكنّ هذا الأخير أصرّ على أنغلتون ليسير في السبيل الصحيح. وحينما كان العالم يتنفّس الصعداء بعد سحب السوفيات لصواريخهم من كوبا، كان أنغلتون يغرق، شيئًا فشيئًا، في العالم الموحش للمرايا القاسية.

فبعد الاستنطاق الأوّل أخذ جولستين موقفًا متحفّظًا، فلم يكن يريد التعامل إلاّ مع أنغلتون أو مساعده "ريمون روكا"، وطلب أن يترك ليعود إلى بريطانيا. وكانت وكالة المخابرات المركزيّة قد أعطته هويّة جديدة باسم "جون ستون" واشترت له بيتًا في ضواحي واشنطن، لكنّه كان متمسكًا بالإقامة في بريطانيا اعتبارًا من أوّل كانون الثاني - يناير ١٩٦٣، وكانت الوكالة تتردّد لكنّه كان من المستحيل إجباره على الإقامة في

مكان لا يرغبه. لذلك ومنذ آذار ـ مارس ١٩٦٣ أبحر جولستين إلى بريطانيا بعد أن أمّن على كلبَيه الراعيين فسلّم الأوّل إلى روكا والثاني إلى منشقّ سوفياتيّ هو نيكولا شادرين.

كان قد مضى خمسة عشر شهرًا على اليوم الذي دقّ فيه هذا الروسيّ باب المسؤول في وكالة المخابرات المركزيّة في هلسنكي، مسببًا بتحذيراته ذعرًا شديدًا في صفوف الاستخبارات الأميركيّة. فبحسب رأيه أنّ الاستخبارات الروسيّة زرعت جواسيس في أجهزة استخبارات كلّ العواصم الأوروبيّة، واستطاعت موسكو أن تحصل على وثائق أصليّة كاملة عن حلف الأطلسي. وليتمّ التأكّد من موضوع الوثائق هذا عُرضت على جولستين ملازم متفرّقة من وثائق الحلف ضمن عشرات آلاف الوثائق المختلفة فاستطاع أن يميّز من بينها كلّها الوثائق التابعة لحلف الأطلسي.

مهما بلغت ادّعاءات جولستين فإنّها لم تسمح بالحصول على أكثر من نتائج قليلة إذ إنّه لم يستطع أن يسمّي جاسوسًا واحدًا بالإسم إلاّ "جورج باك" الملحق الصحافيّ في القيادة العامّة لحلف الأطلسي. وتحدّث جولستين عن تغلغل محتمل في الأوساط البريطانيّة التي استطاعت أن تكشف، في ما بعد، بفضل تلك المعلومات، عميلاً آخر هو "ويليام جون فاسال". وكانت تحذيراته للمخابرات البريطانيّة كافية لحلّ لغز قضيّة فيلبي رغم أنّه لم يساهم في ذلك إلاّ من حيث التوضيح.

من جهة أخرى فإنّ قضيّة فيلبي لم تكن لتغيّر شيئًا في حالة توازن القوى بين الاستخبارات الغربيّة والسوفياتيّة، لأنّ مهمّته كانت قد تحطّمت بفعل تقرير هارفي قبل اثني عشر عامًا من ذلك. فإذا قارنّا نتائج معلومات جولستين مع نتائج معلومات جولينيوفسكي التي أدّت إلى توقيف جورج بليك وغوردون لونسديل وهينز فلفه والمتعاونين معهم، فإنّها تبدو حقًّا متواضعة. لكنّها لم تكن قد كشفت عن كافّة

إمكانيّاتها، ومع ذلك ففي تمّوز - يوليو ١٩٦٣ عندما أعلنت الصحف البريطانيّة عن تسرّب لاجئ سوفياتيّ باسم "دولنتسين" يختبئ في مكان ما في بريطانيا، لم يكن الخبر إلاّ عن جولستين نفسه الذي انزعج من تسرّب الخبر وقرّر العودة إلى الولايات المتّحدة مكرّرًا تحذيره من الحوادث التي كانت مثال الجدل في ذلك الحين.

لم يكن الانفصال الفكريّ بين الصين والاتّحاد السوفياتيّ، في رأي جولستين، إلاّ خدعة لإضعاف حماس الغربيّين، وهو المقتنع بالقدرة الفائقة للاستخبارات السوفياتيّة في عمليّات التضليل، ولم يستطع أن يقدّم برهانًا واحدًا عن ظنّه ذاك إلاّ ذكر أسماء ضبّاط الاستخبارات السوفياتيّة والعلماء السوفيات الذين استمرّوا في الإقامة في الصين بعد القطيعة. فحسب رأيه، بما أنّ السوفيات تركوا في الصين عملاء وخبراء بهذه الأهميّة فذلك لأنّهم أعلنوا القطيعة بالاتّفاق مع الصينيّين.

إقتنع أنغلتون بهذا الحكم الاستنتاجيّ وطلب من هيلمز عقد اجتماع بين جولستين وضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة المهتمّين بالشؤون الصينيّة والسوفياتيّة. فلم يستهوهم عرض جولستين للموضوع إطلاقًا، لأنّه لم يذكر حدثًا واحدًا مقنعًا ولم يقدّم برهانًا عن أنّ القضيّة مفتعلة. فحسب رأيه أنّ القطيعة تضليل ولا يمكنه أن يتصوّرها إلاّ كذلك. وعندما عرضوا عليه، جدلاً، بأنّ الموضوع قد يكون كذلك هاج غضبًا وعاملهم بفوقيّة مطالبًا إيّاهم أن يقدّموا البراهين التي تدحض رأيه. وطلب رؤية كافّة التقارير السريّة حول القطيعة فاستطاع تفنيدها وتكذيبها كلّها مشيرًا إلى أنّها تدفع وكالة المخابرات المركزيّة إلى الخطأ، وأراد معرفة المخبرين حتّى يخزيهم. ومن الطبيعيّ أنّ ذلك كان مرفوضًا من جانب وكالة المخابرات المركزيّة، فأغضب هذا الجحود جولستين، وكذلك أنغلتون الذي وبّخ، بعنف، خبيرًا كان يوزّع تقريرًا يدحض ادّعاءات المنشقّ الروسيّ.

لم يكن ذلك التأويل للقطيعة السوفياتيّة الصينيّة هو الوحيد من التحذيرات التي أشاعها جولستين بل إنّه أطلق تحذيرًا خاصًّا لبريطانيا عندما قال بأنّ رئيس قسم العمليّات في الاستخبارات السوفياتيّة حدّثه يومًا عن مشروع اغتيال رئيس حزب المعارضة وحزب العمّال في ذلك الحين "هوغ غيتسكل" الذي توفّي خلال تلك الفترة بسبب التهاب حادّ في القلب والكليتَين والرئتَين. وكان جولستين مقتنعًا بأنّه مات مسمومًا وأنّ خلفه "هارولد ويلسون" عميل للسوفيات. من ثمّ حدث اغتيال الرئيس كينيدي في ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٣ في مدينة دالاس، وأثار حديث جولستين عن موضوع اغتيال "غيتسكل" شبهات أنغلتون والمسؤولين في وكالة المخابرات المركزيّة والمخابرات البريطانيّة، فكانت عمليّة الاغتيال بمثابة برهان عن وجود مؤامرة من المخابرات السوفياتيّة، أمّا بالنسبة لهارفي والمجموعة التي اطّلعت على مشروع اغتيال كاسترو فكان الاغتيال بمثابة ردّ على عمليّة مونغوس.

في الواقع ربطت عدّة مناسبات قاتل الرئيس كينيدي "لي أوزوالد" بالكوبيّين والسوفيات. ففي ١٩٥٩ هرب أوزوالد إلى الاتّحاد السوفياتيّ، وبعد عودته منه، عام ١٩٦٢، انتسب إلى جمعيّة موالية لكوبا، وفي نهاية أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٣ أي قبل شهرَين من اغتيال الرئيس كان أوزوالد يتردّد على السفارتَين الكوبيّة والسوفياتيّة في نيو مكسيكو، بحجّة الحصول على تأشيرة دخول إلى الاتّحاد السوفياتيّ عن طريق كوبا. وقد أبلغ مجموعة الترصّد في العاصمة المكسيكيّة بأنّه التقط مخابرة هاتفيّة من السفارة الكوبيّة إلى السوفياتيّة كان المتكلّم فيها أوزوالد الذي أبلغ عاملة الهاتف بأنّه يودّ التحدّث إلى "الرفيق كوسيتيكوف" بشأن تأشيرة الدخول. لكنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت تعلم بأنّ طلب تأشيرة الدخول موجود في القنصليّة السوفياتيّة في واشنطن. كما أنّ كوستيكوف ورئيسه "بافل يوتسكوف"، رئيس القسم القنصليّ في

السفارة، وهو الذي قابل أوزوالد كما اعترف بذلك أمام آذان تابعة لوكالة المخابرات المركزيّة، كانا من عملاء المخابرات السوفياتيّة حسب معلومات وكالة المخابرات المركزيّة. وبعد الاغتيال مباشرة طلبت القيادة في لانغلي من نيو مكسيكو أسماء المتّصلين بكوستيكوف ويونسكوف. ووصل الجواب في اليوم التالي فكان من بينهم "رولاندو كوبيلا" وهو أحد الموظّفين الكبار الموثوقين من فيدل كاسترو، ومعروف بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة برمز AM/Lash وهو عميل لها وضليع في المؤامرة الثالثة على حياة كاسترو التي كان يقودها "ديزموند فيتز جيرالد" رئيس قسم ملاك الأعمال الخاصّة الذي حلّ محلّ هارفي، وقام رئيس قسم التجسّس المضادّ بتحذير فيتز جيرالد بأنّ كوبيلا موضع شبهة لهذا اعتُبر بمثابة عميل مزدوج.

فخلال مقابلة لكوبيلا مع رئيسه في وكالة المخابرات المركزيّة في ساو باولو أبلغه عن نيّته بتنفيذ عمل داخليّ ضدّ كاسترو، وطلب دعم الأميركيّين لهذا الغرض. وبالنسبة لضابط في وكالة المخابرات المركزيّة فإنّ ذلك لا يعني إلاّ اغتيال كاسترو وفاتحة لانقلاب عسكريّ.

بلغ هذا العرض الجَسور القيادة العامّة في ٧ أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٣، وفي نفس الليلة شارك كاسترو في حفل استقبال رسميّ في السفارة البرازيليّة في هافانا وصرّح لأحد المراسلين قائلاً: "يجب على قادة الولايات المتّحدة أن يعلموا أنّهم بتسهيلهم المؤامرة التخريبيّة ضدّ المسؤولين الكوبيّين لن ينجوا من مثلها". فلماذا اختار كاسترو هذا التصريح ضمن جدران السفارة البرازيليّة؟ لقد كانت هنالك مصادفة خطرة وغريبة بالنسبة لأولئك الذين يعرفون لقاء كوبيلا مع مسؤول وكالة المخابرات المركزيّة في ساو باولو.

لم يكن هنالك أيّ داع للالتباس على فهم أنغلتون ومساعده روكا بما يمثّله هذا التهديد من قِبل كاسترو. فكانت محاولة مخالفة لكلّ الأعراف للإعلان عن تهديد الولايات المتّحدة الأميركيّة. ومع ذلك كان "فيتز جيرالد" أحد الشخصيّات التي لا بدّ أن تعلم ما فيه الكفاية لتعطي لهذا التهديد حجمه الكامل. لكنّه، مع ذلك، لم يفهمه فسافر، في ٢٩ تشرين الأول ـ أكتوبر إلى باريس ليشارك شخصيًّا في تسهيل لقاء AM/Lash مع أخ الرئيس بوبي كينيدي. ومنذ عودته إلى واشنطن سمح لضابط الاتّصال مع كوبيلا بأن يؤمّن له البنادق وأجهزة التسديد التلسكوبيّة والمتفجّرات التي طلبها.

وفي مقابلة أخرى في ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر سلّم الضابط إلى AM/Lash كوبيلا قلم حبر ناشف مجهّز بإبرة لتحت البشرة ونصحه باستعمال سمّ شديد موجود في الصيدليّات الأميركيّة باسم Black Leaf 40 . وقد لاحظت وكالة المخابرات المركزيّة، في ما بعد، أنّ الرئيس قُتل في نفس اللحظة.

من الصعب ألاّ نستنتج أنّ كاسترو عندما علم بتطوّرات موقف اغتياله أمر بتنفيذ اغتيال كينيدي. وعندما كتب "فيتز جيرالد" تقريره طلب من ضابط الاتّصال مع كوبيلا ألاّ يذكر أيّ شيء عن قلم الحبر السام.

كان وجود الملفّ العمليّاتيّ الخاصّ بكوبيلاّ والمحتوي على تفاصيل المؤامرة بمثابة قرينة، لهذا أُخفي عن المحقّقين الذين وجدوا ذكره على لائحة الأشخاص الذين هم على صلة مع عميلَي المخابرات السوفياتيّة كوستكوف ويوتسكوف. وبصورة عامّة لم تصل إلى لجنة وارن المكلّفة بالتحقيق في مقتل كينيدي أيّ معلومات عن كوبيلا أو المؤامرات الأخرى التي مهّدت لها وكالة المخابرات المركزيّة ضدّ كاسترو.

بعد شهر من الاغتيال قام قسم نصف الكرة الغربيّ من وكالة المخابرات المركزيّة، بناء على رغبة الرئيس ليندون جونسون، بتقديم تقرير مختصر عن النتائج

الأولى للتحقيق، وكانت مجهولة، عندئذ، كافّة نشاطات أوزوالد في مكسيكو التي بقي فيها خمسة أيّام وإقامته سنتَين ونصف في الاتّحاد السوفياتيّ.

كانت المشكلة الكبرى هي معرفة ما إذا كانت هنالك استخبارات أجنبيّة سريّة على علاقة باغتيال الرئيس. ولكن لم يكن أحد قد تحقّق بعد من أنّه يستطيع أن يقدّم لشعب الولايات المتّحدة جوابا مقنعًا في هذا المجال.

في نهاية كانون الأوّل ـ ديسمبر اقترح أنغلتون أن يعهد بالتحقيق إلى قسم التجسّس المضادّ طالما أنّ لجنة وارن لم تقدّم تقريرها النهائيّ. قبَل هيلمز بهذا العرض وكان الوقت مناسبًا لذلك إذ كان يتوقّع ظهور نوسنكو مرّة أخرى في جنيف خلال كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٤ باعتباره مرافقًا للوفد السوفياتيّ لمباحثات نزع السلاح. ولأنّ نوسنكو عمل في القسم الأميركيّ الثاني من الإدارة المركزيّة للمخابرات السوفياتيّة، فبإمكانه إعطاء المعلومات عن إقامة أوزوالد في الاتّحاد السوفياتيّ. وكان أنغلتون مقتنعًا بأنّ نوسنكو يعمل لحساب السوفيات فعليًّا وإن بدا ظاهريًّا عكس ذلك، وبأنّ المخابرات السوفياتيّة أرسلته ليضلّل وكالة المخابرات المركزيّة. لكنّ ذلك لا يمنع الانتفاع من خدماته في الحصول على المعلومات بشأن أوزوالد.

على أيّ حال، إذا حاول نوسنكو الاتّصال بوكالة المخابرات المركزيّة من جديد بعد وصوله إلى جنيف فيجب اعتباره كـ"أراغوز" المخابرات السوفياتيّة، ذلك ما أكّد عليه ضابط وكالة المخابرات المركزيّة بات باغلي الذي كانت مهمّته الاتّصال مع نوسنكو، في تقرير من اثنتَي عشرة صفحة رفعه إلى الوكالة في ١٩ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٣، ورُشّح لمنصب رئيس قسم التجسّس المضادّ للكتلة السوفياتيّة.

لقد كان ذلك حكمًا غاشمًا خاصّة عندما نذكر أنّ نوسنكو ساعد وكالة المخابرات المركزيّة على اكتشاف خلدَين كبيرَين للمخابرات السوفياتيّة كان أوّلهما "وليام جون

فاسال" اللوطيّ العامل في مكتب الملحق البحري البريطاني الذي كانت تبتزّه المخابرات السوفياتيّة كما ساعد على توقيفه والحكم عليه. كما أنّه أعلن عن وجود أجهزة تنصّت صغيرة بشكل أقلام مغروسة في جدران السفارة الأميركيّة في موسكو خلف كلّ مشع حراريّ للتدفئة. وفي مثل عالم التجسّس المضادّ تُعتبر مثل هذه القرائن بمثابة دعم بسيط للعميل لتقوية مركزه دون أن تكلّف المخابرات التي أرسلته إلاّ قليلاً. فحسب رأي باغلي: إنّ قضيّتَي فاسال والأقلام التنصتيّة كانتا معروفتَين، وكان جولستين قد أخبر عنهما، علمًا بأنّه لم يكن يعرف فاسال بالإسم لكنّه أدلى بمعلومات قيّمة عنه سهّلت اكتشافه، بالإضافة إلى ذلك، ألم يكن الروس قد توقّفوا عن كلّ علاقاتهم مع فاسال بعد هروب جولستين؟ وهكذا فإنّ معلومات نوسنكو سمحت بفضح فاسال قبل الزمن المفروض بقليل. أمّا موضوع أقلام التنصّت فإنّ جولستين قد حدّد أماكن بعضها قبل ذلك بستّة أشهر، كما أنّ إعادة طلاء الجدران سمح باكتشاف جهاز التنصّت بكامله.

وحدث ما كان متوقّعًا ووصل نوسنكو إلى جنيف في ٢٠ كانون الثاني - يناير ١٩٦٤، وترك أغراضه في الفندق ونزل إلى الشارع حيث راح، من كشك هاتفيّ عموميّ، يملي برقيّة مختصرة غير ذات قيمة. بعدها بثلاثة أيّام وصل باغلي وكيسفالتر إلى جنيف والتقيا نوسنكو في ملجأ تابع لوكالة المخابرات المركزيّة، وأكّد لهما على أن لا علاقة للمخابرات السوفياتيّة بأوزوالد وعلى أنّها لم تجنّده قطّ لاغتيال كينيدي. وقد ادّعى نوسنكو بأنّه هو الذي اطّلع على هرب أوزوالد إلى الاتّحاد السوفياتيّ عام ١٩٥٩، وأنّه قرّر بأنّ أوزوالد لم يكن مستترًا وبالتالي غير صالح للاستعمال كعميل. حتّى أنّ المخابرات السوفياتيّة رفضت إعطاءه حقّ اللجوء لكنّها وافقت، بعد ذلك، عندما هدّد بالانتحار، وكانت زوجته مارينا سوفياتيّة

الأصل لكنّها بلهاء وحمقاء تكره موطنها لذلك كانت المخابرات السوفياتيّة سعيدة جدًّا برحيلها.

عندما استعرض أنغلتون نتائج المقابلة الأولى مع نوسنكو كتب يقول: " حسب المصدر فإنّ أوزوالد أو زوجته لم يكونا موضع أيّ اهتمام من قِبَل السلطات السوفياتيّة التي لم تفكر بتجنيدهما كعملاء، وإنّ السوفيات كانوا مبتهجين بالتخلّص منهما".

صرّح نوسنكو بأنّه طُلب منه في موسكو، بعد بضع ساعات على اغتيال كينيدي، تفحُّص ملفّ أوزوالد ليرى ما إذا كان يتضمّن أيّ شيء من شأنه إلصاق التهمة بالمخابرات السوفياتيّة، من قريب أو بعيد، فكن جوابه النفي المطلق. لكنّ المخابرات السوفياتيّة طلبت من عمّ مارينا، وهو عقيد في وزارة الخارجيّة، إقناع أوزوالد بألاّ يشنّ دعاية مضادّة للاتّحاد السوفياتيّ بعد عودته إلى الولايات المتّحدة. كما ادّعى نوسنكو بأنّه يعلم كلّ الخطوات التي قام بها أوزوالد في مكسيكو للحصول على تأشيرة الدخول، وقد أبدى المسؤولون في السفارة السوفياتيّة استياءهم منه إذ قال أحدهم بأنّ أوزوالد شخص غير مرغوب فيه وأنّ أمره لا يهمّ السوفيات مطلقًا.

قال باغلي: "ما الذي يمكن أن نستنتجه من هذا كلّه؟ تلك الصرخات عن البراءة بعد الاغتيال بوقت قصير، قد تبدو مطمئنة أكثر منها مقلقة... وإنّ اكتساب نوسنكو يمثّل فرصة هائلة من بين آلاف عملاء المخابرات السوفياتيّة العاملين في العالم، فهو الوحيد الذي عرض خدماته على وكالة المخابرات المركزيّة، وهو أيضًا، بالصدفة، الذي اهتمّ مباشرة وفي مناسبتَين بـ "لي أوزوالد". هل يمكن تصديق نوسنكو عندما يؤكّد على أنّ المخابرات السوفياتيّة لم تهتمّ قطّ بأن تسأل أوزوالد، الذي عمل في البحريّة في اليابان وفي قاعدة الطائرات U-2 عندما توفّر لها بحريّ شاب هرب من

بلاده وتواجد في الاتّحاد السوفياتيّ وأبدى رغبة في الاستقرار فيه؟ إنّ ذلك غير معقول.

أعلن هيلمز بصراحة: "يحب أن نكون غائبين عن الوقائع لنقبل بما سرده علينا نوسنكو من تصريحات بخصوص لي أوزوالد والمخابرات السوفياتيّة".

سواء كانت شهادة نوسنكو صحيحة أم لا، فإنّها كانت ذات أهميّة بالغة بالنسبة للجنة وارن كما عبّر عن ذلك، في ما بعد، ريتشارد هيلمز بالقول: "إنّ كلّ المشكلة كانت أن ننفي أو نثبت حسن نيّته، ففي حال صدقه كان علينا أن نقتنع بأنّ الروس، بصورة عامّة، لم يكن لديهم أيّ دور في اغتيال كينيدي، وإلاّ فإنّنا على حقّ إذا راودنا الشكّ بالعلاقات التي أقامها أوزوالد والمخابرات السوفياتيّة في عام ١٩٦٣ وبالتالي أن نفرض إمكانيّة مقتل كينيدي عن طريق السوفيات". وكيفما كان الأمر فإنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تكن لتجد شاهدًا أفضل، وكان من غير الممكن أن تتركه يذهب هكذا.

قال أحد خبراء الوكالة "جون هارت": "كنّا نعتقد ضمن الوكالة أنّه شخص مريب ذو سلوك مشبوه، وقد وصلنا إلى نتيجة بأنّ الروس أرسلوه لنا عمدًا، لكنّنا قرّرنا أن نتصرّف كما يجب، وألاّ نجعل نوسنكو يلاحظ بأنّنا نشكّ به وبالتالي قد ينقل ذلك إلى رؤسائه، لذلك عاملناه بأقصى ما يمكن من الرياء".

كان نوسنكو قلقًا على مستقبله لذلك طلب المساعدة من باغلي الذي أكّد له على أنّ المدير يرحّب به وبأنّهم قرّروا أن يؤمّنوا له مركزًا متينًا مع بعض الاستقلال الشخصيّ، وراتبًا مقداره خمسون ألف دولار كتعويض مبدئيّ عن خدماته، وسيوقّعون معه عقد عمل بأجر يصل إلى خمسة وعشرين ألف دولار سنويًّا، فضلاً عن مساهمته الفعّالة في الكشف عن فاسال. وافق نوسنكو على هذه العروض لكنّه سأل باغلي

الإسراع في التنفيذ لأنه كان يخشى افتضاح أمره إذ تلقّى من رؤسائه أمرًا بالعودة إلى موسكو في ٤ شباط ـ فبراير ١٩٦٤.

ترك نوسنكو الوفد السوفياتيّ واجتاز الحدود الألمانيّة متنكّرًا بزيّ ضابط أميركيّ، وأقام في ملجأ تابع لوكالة المخابرات المركزيّة قريب من مدينة فرانكفورت. بعد ثلاثة أيّام وصل "دافيد مورفي" رئيس قسم الكتلة السوفياتيّة للقائه وجدّد له وعود باغلي وعبّر له عن قناعته الشخصيّة بصدقه، لكنّه حذّره من أنّه سيخضع لتجربة اختبار الصدق في أجهزة الكشف الخاصّة بذلك.

كان مورفي موقنًا بأنّ نوسنكو كاذب في نقطة واحدة هي لي أوزوالد إذ صرّح قائلاً: لا أستطيع أن أوقن أنّ الاستخبارات السوفياتيّة لم تبدِ أيّ أهميّة لذلك الرجل الذي كان عامل رادار في البحريّة وخدم في قاعدة الطائرات U-2، ومن الممكن ألاّ يكون السوفيات قد استطاعوا أن يربطوا العلاقة بين تعيين أوزوالد وعمله في القاعدة المذكورة، لكن مع ذلك لا بدّ من أنّهم سألوه عن عمله في البحريّة".

شرح مورفي أفكاره، منذ وصوله إلى واشنطن، في تقرير كتب فيه ما يعتقده حقيقة عن حالة نوسنكو فقال: "لا شكّ في أنّه يقوم بأداء خدمة لموسكو، ولا بدّ من أن نتوصّل يومًا إلى تحطيم مقاومة هذا الرجل إذا أردنا حقًّا أن نعرف الصورة العامّة لمشروع المخابرات السوفياتيّة".

وصل نوسنكو إلى الولايات المتّحدة في ١١ شباط ـ فبراير. لم يكن أحد يعلم مقدار تهالكه في ما لو علم برأي جولستين فيه. وعندما سُئل هذا عن مقدار مصداقيّة نوسنكو أجاب، حسب تقرير من وكالة المخابرات المركزيّة قائلاً: " لا شكّ بوجود عدد كبير من الأخبار المضلّلة في هذه القضيّة، وإنّ ظهور نوسنكو سيتجاوب مع عدّة أهداف منها معارضة أقوال جولستين قد تؤدّي إلى التحضير لعمليّة اختطافه وتحويل

انتباه الأميركيّين عن أدلّة جولستين وليتّجه البحث إلى سبل عقيمة وأخيرًا حماية مصادر الاستخبارات السوفياتيّة العاملة في أميركا".

كان من بين القضايا غير المحلولة لغز "كوفشوك" في الولايات المتّحدة. ففي المقابلة الأولى بين نوسنكو وباغلي وكيسفالتر أكّد نوسنكو على أنّ كوفشوك وصل إلى أميركا للقاء جنديّ أميركيّ يحمل الإسم الرمزيّ "أندريه". وبعد هروب نوسنكو أعلن هذا عن دليل جديد بخصوص ذلك العميل إذ قال بأنّه قد جُنّد في بداية الخمسينات عندما كان يعمل ميكانيكيًّا في المرآب التابع للسفارة الأميركيّة في موسكو. أدّى ذلك السبيل إلى سلوك مكتب التحقيقات الفدراليّ الطريق الصحيح فوجد رقيبًا كانت له علاقة مع السوفيات في موسكو، وأنّ هذا الرقيب كان قد قابل كوفشوك فعلاً في الولايات المتّحدة. لكن ما هي أهمّ المعلومات التي يمكن أن يؤديها للروس ميكانيكيّ بسيط في الجيش؟ أو ليست هذه هي مهمّة العميل النائم؟ علمًا بأنّ كوفشوك له أهميّة خاصّة في المخابرات السوفياتيّة حسب رأي جولستين. فإذا كان قد قام بتلك السفرة لمقابلة هذا الشخص التافه فلا بدّ من أنّه كان يسعى لمقابلة شخصيّة أعظم بكثير، وأنّ تصريحات نوسنكو حول أندريه لم تكن إلاّ لتضليل المحقّقين الأميركيّين عن الغاية المقصودة فعلاً.

ينطبق نفس الموقف على ساشا جاسوس المخابرات السوفياتيّة، حسب قول جولستين، فقد أعلم الروس عن عمليّات وكالة المخابرات المركزيّة في ألمانيا. ورغم الأبحاث والتفتيش في كافّة الاتّجاهات لم تعثر وكالة المخابرات المركزيّة على أيّ شيء إلى أن وصلت إلى مرحلة القنوط، فتذكّر جولستين عندئذ دلائل ذات أهميّة تتعلّق بالعمليّات الفاشلة التي استطاع ساشا أن يحبطها في برلين. عند ذلك مشّط خبراء وكالة المخابرات المركزيّة أرشيف مكتب العمليّات التابع لقاعدة برلين وتبيّنوا مجموعة من

الكوارث العمليّاتيّة كان فيها "إيفان أورلوف" القاسم المشترك، وهو رجل قصير القامة خدم الروس خدمات جلّى خلف الخطوط الألمانيّة خلال الحرب العالميّة الثانية، ومن ثمّ التحق بالمعسكر الغربيّ.

خلال فترة خمسينات القرن العشرين كلّها، كان أورلوف العميل الرئيسيّ لهارفي في برلين. وباعتباره روسيًّا فقد كان الوسيط المثاليّ بين ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّين وعملائهم في القطاع السوفياتيّ من برلين. ولو كان استمرّ في خدمة الروس لاستطاع حرق أكثر من عشرين عميل سريّ تابع لوكالة المخابرات المركزيّة.

لم تؤدّ هذه الإفادة إلاّ إلى زيادة في دعم الشكوك الحائمة حول نوسنكو. وطبيعيّ أنّ أورلوف أنكر كلّ شيء. لكنّ جولستين كان على حقّ وليس نوسنكو. إذ إنّ هذا أكّد للمحقّقين على أنّ ساشا ضابط في الجيش، وذلك دليل خاطئ وجّه التحقيق إلى وجهة ضالّة كان فيها التحقيق يقترب من أورلوف.

كانت هنالك حالة أخرى كان فيها سياق الحوادث الذي قدّمه نوسنكو يبدو كأنّه موجّه لتطمين وكالة المخابرات المركزيّة، وإذا دعا الأمر لأن يبرهن لها عن أنّ الخلد هو من ابتكار جولستين.

أعلن نوسنكو، في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٣ أنّه ذهب إلى "جوركي" ليشارك في مطاردة شخص يُدعى "تشيربيانوف" الذي كان ضابطًا سابقًا في المخابرات السوفياتيّة أوصل إلى السفارة الأميركيّة حزمة من المستندات السريّة. وكان "تشيربيانوف" هذا معروفًا من وكالة المخابرات المركزيّة لسنوات خلت عندما كان في يوغوسلافيا وحاول الانشقاق إلى الجانب الأميركيّ إلاّ أنّ محاولته لم تتكلّل بالنجاح. وكان لتلك المحاولة في الهروب أثرها على فقدان وظيفته في المخابرات السوفياتيّة،

حسب رأي نوسنكو، ومن ثمّ أُلحق بوظيفة بسيطة في دار للنشر. وعندما طلب منه مرّة صاحب المكتبة مرافقته من ولاية إنديانا مع زوجته، استغلّ المناسبة وأمّنهما على رزمة مغلّفة بأوراق صحيفتَي البرافدا والإزفستيا وطلب منهما إيصالها إلى السفارة الأميركيّة... فانتاب الشكّ "مالكولم تون" المستشار السياسيّ في السفارة عند استلامه الرزمة.

قبل ذلك بخمسة عشر يومًا في وارسو، أُعلن عن الملحق العسكريَ الأميركيّ بأنّه شخص غير مرغوب فيه لأنّه قبِل خريطة لقواعد انطلاق القذائف الصاروخيّة كان قد دسّها في جيبه عميل مضلّل بولّنديّ.

حاول ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة في موسكو ردع "تون" وقالوا إنّ حالة "تشيربيانوف" مختلفة تمامًا وإنّ الوثائق التي حازوا عليها تحتوي على تقارير مراقبة مفصّلة وأن لها أهميّة بالغة الخطورة بالنسبة للمخابرات السوفياتيّة التي لا يمكنها أن تسمح بانتقال مثل هذه المستندات بقصد عمليّة تضليل. لكنّ "تون" رفض العودة عن قراره وأرسل الرزمة إلى وزارة الشؤون الخارجيّة السوفياتيّة. وحسب رأي نوسنكو اكتشفت الشرطة السوفياتيّة المسؤول عن التسرّب وكان "تشيربيانوف" الذي لوحق، في ما بعد، وقُتل.

إذا أيقنّا بشهادة نوسنكو فإنّ قرار "تون" كان متهوّرًا وكلّف "تشيربيانوف" حياته. أمّا في قسم التجسّس المضادّ فناصروا "تون" في كلّ ما فعله وكان رأيهم أنّه كيف يسمح لروسيّ حاول مرّة الالتحاق بالغرب أن يرافق أميركيّين مرّة أخرى؟ بالإضافة إلى أنّ الوثائق التي أوصلها "تشيربيانوف" كانت مشبوهة، إذ إنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد صوّرتها قبل إعادتها للسوفيات. وقد لوحظ أنّ إحداها تتعلّق بتحليل مفصّل لحركات فرق المتابعة التابعة لمكتب التحقيقات الفدراليّ في نيويورك، ممّا

أضاف عناصر جديدة إلى قضيّة بوبوف. وقد تعلّق تحليل المخابرات السوفياتيّة بإجراءات المراقبة الخاصّة المتّخذة من قبل مكتب التحقيقات الفدراليّ عشيّة وصول العميلة تايروفا. فإذا كان هذا الدليل حقيقيًّا فإنّه يمهّد للبرهنة عن أنّ تدمير بوبوف كان سببه قلّة الحذر في تصرّف مكتب التحقيقات الفدراليّ وبالتالي عن أنّ بوبوف قد خانه جورج بليك عام ١٩٥٩ وأنّه بقي وفيًّا لوكالة المخابرات المركزيّة حتّى ١٩٥٩. وهكذا فإنّ وثيقة "تشيربيانوف" كان هدفها مزدوجًا من وجهة نظر السوفيات: أن تسبّب التباسًا أكبر في مشكلة مصداقيّة بوبوف، وأن تزرع الشقاق بين وكالة المخابرات المركزيّة ومكتب التحقيقات الفدراليّ.

لقد تبيّن، في إحدى الحالات، كذب نوسنكو المتعمّد. فعندما انشقّ قدّم نفسه على أنّه ضابط برتبة مقدّم، وقدّم كبرهان عن ذلك أمر مهمّة كان قد أُعطي إليه عند ذهابه إلى جوركي عندما اشترك في مطاردة "تشيربيانوف". بعد ذلك اعترف نوسنكو بأنّه ليس مقدّمًا وأنّه حاول أن يعظّم من شأن نفسه في أعين وكالة المخابرات المركزيّة، وذلك ليس بشيء يستحقّ الذكر في ما لو لم ينل من المخابرات السوفياتيّة أمر المهمّة برتبة مقدّم لمساعدته في حيلته...

بالإضافة إلى تفصيلات أخرى، فإنّ كذبه قد دُعّم من مصدر سوفياتيّ آخر هو سكوتش الضابط في المخابرات السوفياتيّة والعامل في الأمم المتّحدة، وكان قد عرض خدماته على الأميركيّين في نفس زمن انشقاق نوسنكو، وسكوتش هذا أكّد على أن نوسنكو تلقّى فعلاً برقيّة تطلب عودته العاجلة إلى موسكو في ٣ شباط ـ فبراير ١٩٦٤، لكنّ تحريّات وكالة الأمن القوميّ برهنت عن أنّ شيئًا من هذا لم يحدث قطّ. فكما قضيّة الرتبة المفخّمة كذلك مسألة البرقيّة كمثل كذبة مقبولة من قِبَل مرشّح يريد أن يقنع ضبّاط الاتّصال بضرورة حالته. وبسبب الدعم الذي قدّمه سكوتش لهذه

الافتراءات أصبحت القضيّة غير قابلة للتفسير، إلاّ إذا فرضنا نيّة متعمّدة من قِبَل المخابرات السوفياتيّة لتقوية مركز نوسنكو...

وهكذا، مرّة أخرى، تبدو تحذيرات جولستين في محلّها، ويبدو موقفا سكوتش ونوسنكو مثبّتَين لاشتباه جولستين بأنّ الروس سيرسلون عملاء مضلّلين ليقلّلوا من شأنه.

في ٢ نيسان - إبريل ١٩٦٤ قابل هيلمز وبرفقته مورفي ولورنس هيستون معاون وزير العدل "تيكولا كاتزنباخ" ليحدّدوا الحالة القانونيّة لنوسنكو. وأعلن هذا الأخير أنّ "نوسنكو حرّ موقّتًا من الناحية التقنيّة وتحت مسؤوليّة وكالة المخابرات المركزيّة، وأنّه سيبقى كذلك حتّى تتجلي قضيّة مصداقيّته، وأن على الوكالة أن تطلق له الحريّة عندما تتوفّر الأسباب المذكورة أعلاه".

جرت معاملة نوسنكو كبقيّة المنشقّين حتّى ذلك الحين، فكان المحقّقون في غاية اللطف معه وامتنعوا عن مواجهته بتباين موقفه في أقواله المتعارضة. وهكذا في مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن إجباره على النطق بكلّ ما في جعبته إذ كان ثملاً معظم الوقت، فإن لم يكن كذلك كان يلجأ إلى أساليب ملتوية فيغيّر الموضوع ويبتكر المبرّرات للتهرّب من الحديث حتّى عن نقاط تفصيليّة. فاضطرّت وكالة المخابرات المركزيّة أخيرًا لأن تحدّد موقفها حياله... فعمدت إلى جعله يخضع لنظام معيّن أكثر صرامة. وبسبب التورّطات الخطيرة في مصداقيّته (الدور العارض للسوفيات في مقتل كينيدي وتسرّب المخابرات السوفياتيّة في وكالة المخابرات المركزيّة) كان لا بدّ من توضيح الأمر وجعله ظاهرًا للعيان.

في ٤ نيسان - إبريل، بعد أربعة أشهر تمامًا من انشقاق نوسنكو، خضع هذا إلى جهاز لكشف الكذب لأوّل مرّة. وكي يتمكّن الأميركيّون من دفعه للتنازل عن لعبته،

قرّروا أن يقولوا له بأنّه فشل في الاختبار مهما كانت النتيجة. وفي الواقع سجّل الجهاز ارتكاسات شديدة الوضوح تبيّن كذبه. لكنّ قيمة هذا الامتحان نقصت كثيراً بسبب التخويف المسبق الذي خضع له نوسنكو... إذ إنّهم وضعوا على رأسه قطبَين مرتبطَين بمسجّل الذبذبات ليجعلوه يعتقد بأنّهم يقرأون أفكاره. ولم يكن لذلك الإخراج المسرحيّ إلاّ هدف واحد هو زيادة توتّره العصبيّ، كما تبرهن عن ذلك الوثائق المحفوظة عن هذا الفصل. فلقد حصل كلّ ما يمكن إجراؤه لتخويفه من ذلك الاختبار. ففي مثل هذه الظروف يمكننا أن نتساءل عن معنى الارتكاسات الواضحة للمرء الخاضع للاختبار.

بعد سنين من ذلك وعند مواجهته للجنة برلمانيّة شرح نوسنكو الوضع الذي كان فيه بعد خضوعه لتجربة مسجّل الذبذبات قائلاً: "لقد أخذ ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة يصرخون في وجهي بأنّي ملفّق... ثمّ دخل بعض الحرّاس إلى الحجرة وطلبوا منّي أن أقف ووجهي إلى الجدار وأن أنزع ملابسي، ثمّ فتّشوني، وبعد ذلك نقلوني إلى غرفة فوق السطح كان فيها من الأثاث فقط سرير معدنيّ مثبّت على الأرضيّة في منتصف القاعة. لم أعرف المدّة التي سأمضيها في ذلك المكان وما كانوا يريدون أن يفعلوا بي. بعد عدّة أيّام بدأ ضابطان من وكالة المخابرات المركزيّة باستنطاقي مدّة شهرَين، وكان صوتاهما معاديَين، وحاولت التعاون معهما ما أمكنني حتّى أنّي أمضيت ليال كاملة وأنا راقد في سريري أكتب كلّ ما تسعفني به ذاكرتي بخصوص المخابرات السوفياتيّة، ثمّ انقطعت زيارات الضابطَين حتّى آخر ١٩٦٤، وبقيت محبوسًا في تلك الحجرة حتّى أوائل عام ١٩٦٥".

كان نوسنكو يُنزع من فراشه في السادسة من كلّ صباح، ولم يكن لديه الحقّ بأن ينام قبل الساعة العاشرة مساء، فكانت شروط حياته بائسة للغاية، ولم يكن يتمكّن من حلاقة ذقنه أو الاستحمام إلاّ مرّة في الأسبوع، ولم يُسمح له بتسويك أسنانه فلم يعطَ

فرشاة أو معجون أسنان. لم يكن طعامه كافيًا فكان يشعر دائمًا بالجوع. وتُرك بمفرده دون أن يُسمح لأحد بالحديث معه. لم يُعطَ شيء ليقرأه كما لم يكن لديه الحقّ بالتدخين أو بتنشّق الهواء النقيّ أو التطلّع إلى الهواء الطلق إذ كانت النافذة الوحيدة في الغرفة مغطّاة. أمّا الباب فكان مجهّزًا بكوّة موشعة (شعريّة) لتسمح للحارسين في الممرّ بملاحظته ليل نهار. وكانت الأوامر الصادرة لهما بأن يعامل بتحفّظ دون عنف لكن دون أن يتحدّثا إليه أو يبتسما له. فكانا يمضيان أوقاتهما بمشاهدة التلفاز مصغيين بسمّاعتَين حتّى لا يصل الصوت إليه...

بهذه العزلة الرهيبة، قدّرت وكالة المخابرات المركزيّة، حسب تقريرها، أنّها تجبر نوسنكو على إعادة التفكير الكامل بكلّ مناوراته الأولى، وشعر هو بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة لن تمنحه حريّته لأنّها لا تصدّقه وبالتالي فإنّه سيعود إلى الاتّحاد السوفياتيّ قبل اكتشاف الحدود الصحيحة للمؤامرة العتيدة من قِبَل المخابرات السوفياتيّة. لكنّ اللجوء إلى القوّة لم يؤدّ إلاّ إلى زيادة التباس الأمر على وكالة المخابرات المركزيّة إذ كتب باغلي يقول: "لقد ظنّنا في البداية أنّ نوسنكو عميل مضلّل، ثمّ توصّلنا بعد ذلك إلى نتيجة مفادها أنّه ليس ضابطًا في المخابرات السوفياتيّة، وأنّه، في كلّ الحالات، كاذب عندما يدّعي بأنّه شغل بعض الوظائف في المخابرات السوفياتيّة. لقد تبيّن خلال الاستنطاقات الجادّة أنّ نوسنكو عاجز عن توضيح أيّ قضيّة مهما كانت، وعندما كان يُجابَه بتناقضاته أو بالمعلومات المستقاة من مصادر أخرى كان يعترف بعدم تمكّنه من إعطاء إجابات عفويّة إذ إنّه كان يصمت أو يغيّر الحديث، أو يبتكر قصّة جديدة. لقد كان من المستحيل أن يتواجد في تناقضاته أيّ هنات للذاكرة"... وذكر باغلي أنّ المطلوب من نوسنكو كان التحدّث عن أشياء عايشها وعن الملفّات التي رآها والضبّاط الذين عمل معهم، فلماذا كان يدلي

بسياقات متباينة عن معلوماتنا لتلك الأحداث؟ ولقد أقرّ نوسنكو بأنّ اعترافاته لم تكن متماسكة تمامًا.

أسرّ هيلمز إلى "إيرل واين" رئيس المحكمة العليا عن شكوك وكالة المخابرات المركزيّة. لكن جرى التأكيد إلى كافّة أعضاء لجنة وارن على أنّ نوسنكو عميل مضلّل تابع للمخابرات السوفياتيّة. بيد أن القضيّة الشائكة كانت أنّه لم يتواجد أحد من وكالة المخابرات المركزيّة ليقرّر الإعلان بأنّ نوسنكو أُرسل إلى الوكالة ليغطّي تورّط المخابرات السوفياتيّة في مقتل كينيدي. ولم يكن بالإمكان اتّخاذ مثل هذا القرار لأنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تستطع الحصول من نوسنكو على شرح كامل للأسباب التي دفعته إلى البوح بكلّ تلك المعلومات المتناقضة عن أوزوالد والتي ليس لها أيّ قاعدة من الصحّة.

من جهة أخرى كان من الصعب إثبات أنّ نوسنكو كان كاذبًا إن لم يكن ذلك كافيًا للإثبات بأنّ أوزوالد قتل كينيدي بناء على أوامر من المخابرات السوفياتيّة. ولم يستبعد باغلي فرضيّة أن يكون أوزوالد عميلاً نائمًا لا يجري إيقاظه إلاّ في حالة الحرب، ومع ذلك فإنّ ستاره لم يكن كافيًا لأنّ زوجته سوفياتيّة الأصل. لذلك لا يمكن للروس أن يعتمدوا عليه في مهمّات صعبة. "فإذا كان الموقف كذلك فإنّهم لا شكّ سيصعقون إن علموا بأنّ عميلهم اتّخذ مبادرة اغتيال رئيس الولايات المتّحدة"...

بهذا أنهى باغلي تقريره. لذلك كان لا بدّ، ولو مرحليًّا، من ترك شهادة نوسنكو جانبًا وعدم ذكرها في التقرير النهائيّ للجنة وارن، بحيث يجري استنطاقه تدريجًا. واكتفى المحقّقون بيوميّات أوزوالد عند إقامته في الاتّحاد السوفياتيّ وببعض المستندات الرسميّة التي قدّمها الكرملين، ولم تكن أيّ من هاتين لتحتوي على أقلّ تلميح عن تورّط الاتّحاد السوفياتيّ والـ KGB.

عندما نشرت لجنة وارن تقريرها، في ٢٨ أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٤، لم تكن هذه قد حقّقت أيّ تقدّم في هذه القضيّة عمّا جرى قبل عشرة أشهر، وكذلك وكالة المخابرات المركزيّة التي لم تسجّل تقدّمًا واحدًا لحلّ لغز نوسنكو. بعد ذلك لا بدّ من القول بأنّ أحدًا لم يجز لنفسه إعادة النظر في الحكم الذي أصدره هيلمز ومورفي وباغلي وأنغلتون في ما يتعلّق بقضيّة نوسنكو، وفي ما يختصّ بكافّة عمليّات التجسّس المضادّ للاتّحاد السوفياتيّ. وكان هؤلاء الأربعة هم الذين يملكون بيدهم أمر الحلّ والربط داخل وكالة المخابرات المركزيّة، لذا كانت معارضة رأيهم بمثابة القضاء على مهنة المعارض.

على كلّ حال فإنّ أحدًا لم يكن يعلم، بما فيه الكفاية، عن هذه القضيّة، لتكون له شخصيّة تخوّله إبداء الرأي من خلالها. وكما قال باغلي: "إذا كان نوسنكو عميلاً فإنّ ذلك لا يعني وجود جواسيس للمخابرات السوفياتيّة ضمن وكالة المخابرات المركزيّة وليس ذلك نوع من الأمور التي يجب إذاعتها". لكنّ دائرة المطّلعين على الأمور أخذت تتوسّع مع الزمن وتشكّلت مدرسة من "مؤيّدي نوسنكو"، وفكّر هؤلاء الأشخاص بأنّه لا بدّ من إقامة النظريّات عن "العمل المزدوج"، فوضعوا فرضيّة بأنّه لا يمكن للمخابرات السوفياتيّة أن تسلّم طوعًا ذلك القدر من الأخبار التي فضحها نوسنكو، الذي لم يفشِ فقط سرّ فاسال والأقلام التنصتيّة في السفارة الأميركيّة في موسكو ومجموعة من الأدلّة الأخرى التي سمحت بالوصول إلى العميل الأميركيّ أندريه، بل إنّه أثبت أيضًا المعلومات التي أدى بها جولستين حول السفير اللوطيّ لكندا في الاتّحاد السوفياتيّ...

لم يكن الرجل الموصوف هكذا بالنسبة للشرطة الكنديّة إلاّ "جون واتكينز" وهو جامعيّ شهير مقرّب من رئيس الوزراء "ليستر بون"، وهو الذي مثّل كندا في موسكو خلال الخمسينات، وقد كان رجلاً محترمًا جدًّا بحيث أنّ شرطة كندا المحمولة الملكيّة

R.C.M.P. لم تقرّر اتّهامه بالخيانة العظمى إلاّ عندما استطاع نوسنكو أن يثري ويدعّم شهادة جولستين بتفاصيل شديدة الإقناع...

فبحسب شهادة نوسنكو، أنّه في عام ١٩٥٥، كان على رئيس واتكينز في الـKGB أن ينظّم مقابلة بين "بيرسون" وزير الخارجيّة وخروتشوف في فيلا هذا الأخير في القرم. وخلال العشاء شرب خروتشوف نخبًا من الفودكا على شرف ضيوفه الكنديّين، وانحلّت عقدة لسانه، وأخذ يهزأ من واتكينز وأطلق تلميحات بالكاد مستورة حول لوطيّة هذا الأخير. وعندما شرب نخب النساء قال، بعد أن رمق واتكينز بنظره، بأنّ بين الحاضرين مَن لا يميل إليهنّ. "ولقد ثبت، في ما بعد ولو جزئيًّا، ما قاله نوسنكو، وذلك من قِبَل بيرسون نفسه الذي كتب في مذكّراته "أنّ خروتشوف كان قد أقسم بأن يجعلنا جميعًا نتدحرج تحت الطاولة، وبينما كان الجميع يتمدّدون كان واتكينز يفقد راحته شيئًا فشيئًا".

إقتنعت شرطة كندا المحمولة الملكيّة بشهادة نوسنكو ولم تتردّد في إزعاج واتكينز في ملجئه التقاعديّ الذي اختاره في باريس وأخضعته لاستنطاق شديد. فاعترف بلوطيّته لكنّه أنكر كلّ ما عداها. ثمّ توفّي بنوبة قلبيّة قبل أن تقرّر الشرطة المذكورة العدول عن إزعاجه.

لم تمنع وفاة واتكينز شرطة كندا المحمولة الملكيّة ووكالة المخابرات المركزيّة من الاقتناع بأنّ المخابرات السوفياتيّة ابتزّت واتكينز. لكن هل تستطيع المخابرات السوفياتيّة أن تأمر عميلاً مضلّلاً بإفشاء هذا الكمّ من المعلومات لتغطية مصداقيّته؟ عندها سيكون ذلك حدثًا فريدًا، ونذكر هنا رأي جورج كيسفالتر، رئيس ضبّاط الاتّصال التابعين لوكالة المخابرات المركزيّة الذي اهتمّ شخصيًّا بحالتَي بوبوف وبنكوفسكي. فممّا قال: "لا بدّ من أنّ الروس قد أصبحوا مجانين ليضحّوا بفاسال

تدعيمًا لمصداقيّة هذا العميل المضلّل. فمَن الذي سيتعاون معهم بعد الآن في ما لو كانوا قد فعلوا ذلك حقًّا؟"...

كلّ تلك التحذيرات لم تكن كافية لمؤيّدي العميل المزدوج. وإنّ إعطاء بعض المعلومات الصحيحة، بهدف خداع المستويات الحاكمة، هي قاعدة كلاسيكيّة في عمليّات التجسّس المضادّ.

تحدّث باغلي يومًا عن وثيقة للمخابرات السوفياتيّة كان قد سرقها الأميركيّون فكتب يقول: "لقد كتب الروس في هذه الوثيقة يقولون بأنّ مطاردة الجواسيس الأميركيّين غير كافية لأنّنا، من جهتنا، قد يكون بيننا جواسيس آخرون، لذلك كانت ضرورة عمليّات تسميم أجهزة الخصم التي لها أهداف أخرى، من بينها نكران وتقليل اعتبار المعلومات الصحيحة التي قد يكون الخصم قد حصل عليها. ولا شكّ في أنّ هذا هو هدف مهمّة نوسنكو في عام ١٩٦٢: تغطية وحماية مصادر المخابرات السوفياتيّة المهدّدة بانشقاق جولستين". لكن لا بدّ من وجود نقطة تتوقّف عندها معادلة "العميل المزدوج" عن العمل، وتلك حقيقة لا يمكن للمخابرات السوفياتيّة أن تكشفها عن قصد، وقد تكون هي حالة الرقيب "روبرت لي جونسون".

لقد ذكر نوسنكو فعلاً بعض الشائعات الجارية في الوسط السوفياتيّ قبل انشقاقه بقليل، والمتعلّقة بعمليّة تسلّل ضخمة في فرنسا، وأنّه يعرف شخصيًّا ضابطًا في الخدمات التقنيّة للمخابرات السوفياتيّة كان قد أُرسل إلى باريس للمساهمة في معالجة الغنيمة.

من جهته افترض نوسنكو أنّ تلك العمليّة كانت مرتبطة، بشكل أو بآخر، في استكمال جهاز الأشعّة X قادر على قراءة التوافق لأرقام فتح الخزائن (وذلك ما لم توقنه وكالة المخابرات المركزيّة) لذلك فإنّ الهمسات التي حملها نوسنكو معه تحوّلت

إلى حقيقة في ٢٥ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٤ عندما اعترف الرقيب جونسون بأنّه سمح بتسرّب أسرار عسكريّة ذات أهميّة عظيمة جدًّا بالنسبة لبلاده.

عاد الاهتمام بنوسنكو في نهاية عام ١٩٦٤، وصرّح، بعد أن أقسم اليمين، قائلاً: "إستمرّ الاستنطاق الأوّل أربعًا وعشرين ساعة متواصلة، وكانت كافّة الأسئلة الموجّهة إليّ تحمل نبرة عدائيّة. ولقد سألتهم كم سيطول هذا فأجابوني ٣,٦٥٠ يومًا، إن لم يكن أكثر. ثمّ وضع الحرّاس الأغلال في يديّ وعصبوا عينيّ ونقلوني، أوّلاً في سيّارة ثمّ بالطائرة، إلى مكان آخر وأقفلوا عليّ في حجرة من الباطون بابها مسدود بعوارض حديديّة".

حسب ما قال هارت، "لقد شُيّد سجن نوسنكو خصيّصًا له وهو يشبه تمامًا الغرفة الحديديّة لمصرف. وقد كلّف هذا البناء غاليًا لأنّه صُنع من الإسمنت المسلّح تسليحًا شديدًا بالقضبان المعدنيّة". ولم تكن تلك الزنزانة تحتوي، كما وصفها نوسنكو، إلاّ على سرير وفراش دون وسادة وشراشف أو لحاف. وعندما اشتدّ البرد في الشتاء وعندما طلبت لحافًا، لم يمنّ عليّ به إلاّ بعد فترة طويلة من الزمن. وكانت هناك كاميرا تلفزيونيّة تعمل ليل نهار. وليَمضي الوقت صنعت لنفسي أحجار شطرنج من الخيوط لكنّ كلّما كنت أنتهي من صنعها كان الحرّاس يأتون فيأخذونها منّي"...

وقال هارت أيضًا: "لقد حاول نوسنكو جاهدًا أن يصنع روزنامة من الخيوط التي كان ينتزعها من ملابسه وذلك لئلاّ يضيّع مفهوم الزمن، لكن بما أنّه كان مجبرًا على تنظيف كافّة أركان حجرته كان لا بدّ له من المباشرة في بدء التقويم من جديد".

تحدّث نوسنكو عن ذلك قائلاً: "إنّ القراءة هي أكثر الأمور التي اشتقت إليها إذ إنّني أعطيت مرّة معجون اسنان وكانت العبوة تحتوي علىورقة تحدّد مواصفات الموادّ المكوّنة فخبّأتها، لكنّ الحارس تنبّه للأمر فانتزعها منّي".

بعد أن أمضى نوسنكو عامين في تلك الزنزانة سُمح له بنصف ساعة من الوقت يوميًا للتنزّه في باحة صغيرة على مقربة من مكان الحجز محاطة بسياجين الأوّل من شريط معدنيّ والثاني كان كثيفًا بشكل لا يسمح برؤية أيّ شيء، وأضحت السماء الشيء الوحيد الممكن رؤيته.

من الناحية الرسميّة كانت تلك المعاملة اللاإنسانيّة تبغي إلى استنطاق طويل الأجل حتّى يمكن الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات وأكثرها اكتمالاً. لكن خلال فترة اعتقاله البالغة ١,٢٧٧ يومًا لم يُستجب نوسنكو إلاّ ٢٩٢ مرّة. وهدفت كافّة التقارير إلى المرواغة وتحدّثت عن الضرورة القاضية بتأمين حماية شخصيّة دائمة لنوسنكو ضدّ أعمال انتقاميّة محتملة من قِبَل السوفيات. وتلك كانت تفسيرات مخادعة لأنّ الأشخاص الذين أمروا بعزل نوسنكو كانوا متأكّدين من أنّه ما زال يعمل لحساب المخابرات السوفياتيّة. لكنّ نوسنكو لعب دوره حتّى النهاية رغم كلّ ما استُبعد من تصريحاته. فلقد أكّد، مثلاً، على أنّه أضاع كثيرًا من الوقت في بداية الخمسينات وهو يحاول تجنيد أحد الملحقين العسكريّين في السفارة الأميركيّة في موسكو، مع أنّه بدا عاجزًا عن تحديد صورة الضابط ولم يكن على علم بأنّ هذا قد طُرد من الاتّحاد السوفياتيّ لأنّه قُبض عليه متلبّسًا بجرم أخذ معلومات من مواطن سوفياتيّ. وقال نوسنكو أيضًا إنّه في بداية العام ١٩٦١ تلقّى تقارير يوميّة من فريق تابع للمخابرات السوفياتيّة كان يقوم بمراقبة صندوق بريد ميت تستغلّه وكالة المخابرات المركزيّة. وقد كان ذلك الصندوق واسطة الاتّصال مع بنكوفسكي، لكنّه لم يوضع موضع الاستعمال إلاّ في نهاية عام ١٩٦١، وكان نوسنكو يثبت بأنّ هدفه الأساسيّ كان السفارة الأميركيّة، لكنّه مع ذلك، لم يكن يعلم في أيّ طابق تتواجد الاستخبارات السريّة فيها. أخيرًا فإنّ ذلك الرجل المدّعي بأنّه كان قد عمل في المركز

الموسكوبيّ من ١٩٥٣ ـ ١٩٦٤ كان عاجزًا عن وصف مقصف المخابرات السوفياتيّة في موسكو.

إعتقد باغلي في لحظة بأنَ نوسنكو وصل إلى مرحلة الاستسلام إذ إنّه لم ينجح في إعطاء أيّ تفصيل عن قضيّة ادّعى أنّـه تولاّهـا لحساب المخابرات السوفياتيّة. فسأله باغلي: لمَ لم تعترف بأنّك لم تتولّج أمرها؟ فسكت نوسنكو ثمّ هزّ برأسه وكأنّ ذلك يشير إلى أنه ليس الرجل الذي يدّعيه.

وفي آب ـ أغسطس ١٩٦٦ فقد هيلمز صبره وأمهل قسم الجاسوسيّة المضادّة ستّين يومًا، وكذلك فعل مع قسم المجموعة السوفياتيّة للوصول إلى نتيجة ما. واقترح المحقّقون إعطاء الروسيّ مصل الحقيقة Sodium Amobarbital لكنّ هيلمز رفض ذلك الاقتراح، فكان لا بدّ من العودة إلى جهاز كشف الكذب.

كانت نتيجة الكشف هذا بنفس قيمة الاختبار الأوّل، وعومل نوسنكو بقدر عظيم من الإساءة وربّما أكثر من المرّة الأولى. وحسب قول هارت: بدأ مختبروه الحديث معه بالشكل التالي: "إنّك إنسان متعصّب ومن الأفضل أن تكفّ عن سرد الأكاذيب لأنّك لن تكسب شيئًا في كلّ الأحوال"...

أثناء الجلسات كان المحقّقون يتوقّفون لفترات طويلة فيأكلون بعض الطعام ويتركونه أثناء ذلك على كرسيّ دون أن يحلّوا وثاقه. ولقد دامت إحدى الاستراحات ثلاث ساعات ونصف، ودامت أخرى أربع ساعات. وكما قال هارت: "لم يكن هدف تلك الاختبارات إثبات الحقيقة حول نوسنكو". أمّا الهدف الحقيقيّ فنجده مشروحًا في ما كتبه باغلي حيث يقول إنّ الهدف كان "إلقاء الضوء بشكل كامل على بعض النقاط التفصيليّة التي يمكن استعمالها لانتزاع اعتراف نلصقه بنوسنكو، وذلك في ما لو اضطررنا للتخلّص منه بشكل أو بآخر".

لقد كان الاعتراف بمصداقيّة نوسنكو يؤدّي إلى نتائج مأساويّة، لذلك كان باغلي مستعدًّا لعمل كلّ شيء لمنع وقوع ذلك. ولقد كتب في هذا يقول: "إنّني أكتب لنفسي، وكاقتراحات فقط، هذه اللائحة من الحلول لإلغاء كلّ آثار مواقف الاتّهام، التي يمكن أن تتعرّض لها وكالة المخابرات المركزيّة، بتوقيف نوسنكو بشكل غير شرعيّ. كان الاقتراح الخامس من بينها يتضمّن تصفية الرجل. أمّا الاقتراح السادس فكان التوصّل إلى جعله عاجزًا عن تقديم صورة متماسكة لقصّته - بواسطة مركّبات كيميائيّة خاصّة - تؤدّي بالتالي إلى علاج نفسيّ. وتضمّن الاقتراح السابع إيداع الروسيّ في دار للمجانين دون أن يكون مجنونًا بالفعل".

حرّر باغلي إلى رؤسائه تقريرًا من تسعمائة صفحة فصّل فيها شهادة نوسنكو، هادفًا إلى إظهار التناقضات حتّى في أبسط التفاصيل، وكتب في الصفحة ١٢٧ مثلاً: يدّعي نوسنكو أنّ اتّجاهاته المهنيّة عام ١٩٥٩ هيّأت له ثناء خاصًّا من رئيس المخابرات السوفياتيّة، ومع ذلك فإنّه أكّد على أنّ كلّ أعماله في المخابرات السوفياتيّة لم تلقَ الثواب المرجوّ. وذكر في الصفحة ٣٠٧ أنّ نوسنكو ادّعى، لأوّل وهلة، بأنّه تعمّق في دراسة ملفّ أوزوالد في الساعات الأولى التي تلت اغتيال الرئيس كينيدي، لكنّنا نراه يقول، في مكان آخر، بأنّه تصفّحها فقط... ثمّ يعود مرّة ثالثة ليقول بأنّه راجعها لمدّة عشرين دقيقة. ويتابع باغلي القول: إنّ نوسنكو لم يكن يعلم بأنّ أوزوالد وزوجته قدّم طلبًا للحصول على تأشيرة دخول من السفارة السوفياتيّة في واشنطن، فكيف بإمكانه ادّعاء معرفة العلاقات بين أوزوالد والمخابرات السوفياتيّة...

هكذا استمرّ باغلي على هذا المنوال في تسعمائة صفحة، ممّا جعله يقول: "لقد تعاملنا مع عشرات المنشقّين، لكنّ نوسنكو هو الوحيد الذي احتوت شهادته على مئات من نقاط الريب".

ويتذكّر باغلي ذلك بعد عشر سنين فيقول: "في عشرين حالة على الأقلّ كذب نوسنكو بشكل جليّ، كما ظهر اثنا عشر مثالاً عن جهله الصارخ في المواضيع التي كان عليه معرفتها بوضوح تامّ، فكيف يمكننا بعد ذلك إعطاء تفسير بريء لذلك؟"...

هكذا كان استنتاج باغلي بأنّ نوسنكو ليس الرجل الذي يدّعي كونه وأنّه لم يحظَ يومًا بمركز مسؤول داخل المخابرات السوفياتيّة.

لقي تقرير باغلي استحسان إدارة التجسّس المضادّ لكنّه جعل أنغلتون يقع في حيرة كبيرة وهو الذي لم يتنازل قطّ للتعرّف على نوسنكو، علمًا بأنّه كان لباغلي دماغ مفكّر، وهو الذي قدّم له الخطوط الأولى لاستنتاجات جولستين، كما أنه هو الذي أوحى إليه بفكرة نوسنكو الواقعيّة لخلد المخابرات السوفياتيّة. لكنّ باغلي ذهب بعيدًا لأنّنا نستطيع أن نستنتج من تقريره بأنّ جولستين لم يكن يستحقّ كلّ تلك الثقة التي أولاه إيّاها باغلي. ورغم كلّ تحذيراته فإنّ جولستين أكّد، على الأقلّ، على أنّ نوسنكو ضابط في المخابرات السوفياتيّة، وأنّه، حسب هارت، شغل عدّة وظائف تتّفق تمامًا مع ما اعترف به جولستين عن نوسنكو. وتلك كانت نقطة هامّة تناقض رأي أنغلتون لكنّه لم يكن ليقبل إعادة النظر في رأيه فقال: "كيف يكون بإمكاننا أن نقدّم تقريرًا نهائيًّا نجد في نصّه شيئًا يبرهن عن كذب جولستين في بعض صفحات حياة نوسنكو؟ وهكذا أحدثت انقسامات فرع الكتلة السوفياتيّة وفرع التجسّس المضادّ اقتضابًا في تقرير باغلي فجعلته يصبح ٤٤٧ صفحة بعد أن ألغى منه كلّ ما يتناقض مع الفكرة السائدة".

مع ذلك وبمعزل عن كلّ هذه المشاكل، هل كان بإمكان وكالة المخابرات المركزيّة أن تقرّر التنازل عن رأيها القائل بأنّ نوسنكو جاسوس أرسلته المخابرات السوفياتيّة؟ ومن ثمّ إعادته إلى روسيا إذا كان بريئًا، وبالتالي الحكم عليه بالموت فقط لأنّه كان بريئًا وقدّم معلومات قيّمة للولايات المتّحدة الأميركيّة؟...

من جهة أخرى، فإنّ التنحّي عن نوسنكو، ذلك الرجل الذي أكّد على أنّ أوزوالد ليس عميلاً سوفياتيًا يؤدّي إلى نتيجة منطقيّة وهي إعادة التحقيق في مقتل كينيدي...

بالنسبة لفريق أنغلتون كان هنالك ٨٥٪ من الاحتمال أن يكون نوسنكو عميلاً مضلِّلاً وأنّ الحكم بمقدار ٨٥٪ من الاحتمالات غير كاف لتصفية حياة كائن بشريّ.

ليخرج هيلمز من المأزق بشكل أو بآخر، كلّف "بروس سولي" أحد أبطال مكتب الأمن في وكالة المخابرات المركزيّة الذي كان قد بذل كثيرًا من الوقت والجهد لمتابعة السبل التي حدّدها نوسنكو، طلب منه أن يكتب نقدًا لتقرير باغلي. وبما أنّ "سولي" لم يكن يمتّ إلى فريق أنغلتون بصلة، فقد كان يعتقد بأنّه يجب الأخذ بمصداقيّة المنشقّ حسب كيفيّة ونوعيّة معلوماته، وأنّه في حالة نوسنكو فلقد توجّه الاهتمام إلى عدم صحّة شهادته بينما كان الواجب أن يحصل العكس، أي السعي إلى سحب أكثر ما يمكن من المعلومات عن عمليّات المخابرات السوفياتيّة. لقد خمّن "سولي" أنّه بالرغم من ١,٢٧٧ يومًا من الحجز و٢٩٢ من الاستجواب لا تعلم وكالة المخابرات المركزيّة حقًّا كلّ ما كان بإمكان نوسنكو أن يعطيه، وطالما أنّه لم يجرِ التوصّل أو التحقّق من كافّة الدلائل تبقى القضيّة معلّقة حسب مصداقيّته.

أُخرج نوسنكو من زنزانته في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٧ وسيق معصوب العينَين ومقيّد اليدَين إلى مسكن تابع لوكالة المخابرات المركزيّة قريب من واشنطن. فقال: "أخيرًا أقمت في حجرة مريحة". فلأوّل مرّة منذ انشقاقه أخذ يتنفّس الهواء الطلق، لكنّ هذا الأمر كان بداية لمجموعة طويلة من الاستنطاقات دامت تسعة أشهر دونما انقطاع، وقال نوسنكو: "لقد سألني سولي عن هذه القضيّة عدّة مرّات، واستُكتبت ذلك بالكامل مرّات متتالية". لم يكن هدف سولي أن يجعل نوسنكو ينهار بل أن يحصل منه على المعلومات، وكانت نتائج الاستنطاق تُنقل أوّلاً بأوّل إلى مكتب

التحقيقات الفدراليّ. وجرى الإعلان، في ما بعد، عن أنّ الامتحان الجديد أظهر بأقلّ تقدير تسع حالات من التجسّس وقدّم معلومات جديدة قيّمة عن قضايا مهمّة. وعندما علم "روفوس تايلور" معاون مدير وكالة المخابرات المركزيّة بأنّه جرى إهمال ذلك القدر من الدلائل قال لهيلمز: "من الآن وإلى أن ننتهي من هذه القضيّة يمكن لمكتب التحقيقات الفدراليّ أن يهاجمنا رسميًّا بسبب الطريقة التي عاملنا بها نوسنكو أثناء السنين الأولى".

في آب ـ أغسطس ١٩٦٨، خضع نوسنكو للمرّة الثالثة لاختبار كشف الكذب دون إرهاب مسبق ولم يتبيّن أيّ ارتكاس مشبوه. ومن ثمّ في تشرين الأول ـ أكتوبر قدّم "سولي" تقريرًا من ٢٨٣ صفحة احتجّ فيه على الطريقة التي اتّبعها باغلي وأكّد على أنّ نوسنكو هو فعلاً ما يدّعيه، "ولقد استنتج خاصّة أنّ نوسنكو لم يكن عميلاً مضلِّلاً أرسله السوفيات ليقدّم معلومات كاذبة حول أوزوالد". فأثار تقرير سولي ارتكاسات ناقمة في رئاسة التجسّس المضاد، لكنّ نائب مدير وكالة المخابرات المركزيّة استطاع كمّ الأفواه عندما قال: منذ الآن فصاعدًا إنّني مقتنع بأنّه لا يوجد سبب واحد يجعلنا ننكر أنّ "نوسنكو عميل مضلِّل وإنّه لم يخفِ عنّا عمدًا أيّ معلومات وأنّه لا يوجد، في ما قاله لنا وما علمناه من منشقّين آخرين ومخبرين، أيّ تعارض يمكن أن يسمح لنا بأن نرتاب في مصداقيّة أقواله. ولا توجد أيّ تناقضات جوهريّة بين المعلومات المقدّمة من نوسنكو وبين معلومات وآراء جولستين وإنّني أستنتج أنّ نوسنكو هو منشقّ حقيقيّ".

ونظّم تايلور، بعد ذلك، اجتماعًا بين كلّ الأقسام الحيويّة كي يرى ما إذا كان بالإمكان إيجاد قاعدة جديدة للتفاهم، لكن لم يتنازل أحد عن رأيه قيد أنملة. واستمرّ جهاز التجسّس المضادّ في رفض مصداقيّة نوسنكو حتّى ولو منح ميزة الشكّ في ذلك

كان لا بدّ في الواقع من تفسير كيف أنّ كذبتَيه الواضحتَين عن رتبته واستدعائه إلى موسكو، قد عُزّزتا من قِبَل سكوتش عميل المخابرات السوفياتيّة في الأمم المتّحدة. أمّا هيوارد أوزبون فقال: "على الأقلّ لقد اتّفق كلّ ذوي العلاقة على أن ينظروا بشكل منفصل إلى قضيّة مصداقيّته ومسألة عودته إلى حياة طبيعيّة.

أصبح نوسنكو عصبيًّا أكثر فأكثر وراح يلحّ في طلب استعادة حريّته. فبعد حجز دام خمس سنوات اختلفت شدّته بالإضافة إلى أنّ رغبته برفقة أنثويّة بدت معقولة، فكان لا بدّ من تغيير في شروط حياته الطبيعيّة إذ لا يمكن أن يُترك في قفصه، فبوشر بإعطائه فرصة لخمسة عشر يومًا يمضيها في فلوريدا برفقة حارسَين ذكرَين من وكالة المخابرات المركزيّة بينما كان أنغلتون يحضّر لائحة بأسئلة جديدة لتوجيهها إليه بعد عودته.

أمّا هيلمز، الذي كان بعيدًا عن الاقتناع ببراءة الروسيّ، فكان يريد أن يضع حدًّا للجدل القائم حوله، فقلّد سولي وسامًا على جهده في إعادة اعتبار نوسنكو، الذي استعاد حريّته تحت المراقبة شيئًا فشيئًا. وفي تقرير لإعادة اعتباره كتب القيّمون: "كنّا نقيم في الشقّة المجاورة له وقد استمرّ مدّة طويلة ولم يكن يستطيع خلالها أن يخرج دون أن يقول لنا عن كافّة وجهات سيره، وكنّا بذلك نؤمّن له، في البداية على الأقلّ، تغطية تقنيّة لهاتفه ومسكنه وفي نطاق إمكاناتنا كنّا نراقب كافّة حركاته".

إكتسب نوسنكو هويّة جديدة ومنحته وكالة المخابرات المركزيّة، في آذار - مارس ١٩٦٩، وظيفة مستشار خبير وأعطته كلّ المبالغ التي وعده بها باغلي عام ١٩٦٤. وعندما أعاد هيلمز التفكير في ذلك كلّه قال: لا أعتقد أنّي تعرّفت في يوم من الأيّام خلال حياتي على شيء بهذا القدر من الإحباط...

لهذا الاعتراف مقدار كبير من القيمة خاصّة من قِبَل رجل كانت له مقاليد الأمور في وكالة المخابرات المركزيّة. وهكذا توقّف، على حسن نيّة شخص واحد، حلّ قضايا رئيسيّة من بينها دور السوفيات في مقتل كينيدي ولغز الخلد. ولا شكّ في أنّ الزمن هدّأ من التناقضات المثارة حول مقتل كينيدي، وكان من الضروريّ أن يتمّ التأكّد، بأكبر قدر من السرعة، ممّا إذا كان نوسنكو قد أُرسل ليضلّل أنغلتون ويعتّم على الأدلّة التي أعطاها جولستين...

في كلّ الأحوال، مات كينيدي لكنّ الخلد، إن كان قد بقي، يستمرّ حافزًا متمتّعًا في قلب وكالة المخابرات المركزيّة. لذلك بقيت هذه القضيّة حامية أكثر فأكثر. لكنّ عناصر الجواب تميل إلى الضياع إلى الأبد في معمعة الضبوط الرسميّة والتحاليل والتقارير والأكاذيب والتناقضات التي أحاطت بشخصيّة نوسنكو. لقد أقامت وكالة المخابرات المركزيّة دهليز المرايا الخاصّ بها ولم يكن نوسنكو، بالضرورة، عميلاً مضلّلاً لكنّ الشكّ في ذلك أوصل العاملين إلى مرحلة الاقتناع بذلك[1].

١ ـ رصاص، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة، ص٣٢٣ ـ ٣٤٥.

البحث عن "الخلد" السوفياتي في أرض الـ CIA

علّق أحد ضبّاط التجسّس المضادّ في الـ CIA يومًا بالقول: "لقد خرج أناتولي جولستين (ضابط المخابرات السوفياتيّة السابق الذي ارتدّ عام ١٩٦١) من قمقمه وقال بوجود تسرّب في داخل وكالتنا، وكانت كلمته كافية لإقناع الناس جميعًا بأنّه لا يحدث شيء في وكالة المخابرات المركزيّة دون أن تعلم به المخابرات السوفياتيّة في خلال أربع وعشرين ساعة".

كثير من أمثال هذا الضابط لم يكونوا مقتنعين بتلك الفكرة، وكانوا يجدون أنّ دافيد مورفي، بارتكاسه المبالغ فيه وقبوله اللامتحفّظ، لموضوع العمل المزدوج المقدّم من أنغلتون (رئيس قسم التجسّس المضادّ) وباغلي في وكالة المخابرات المركزيّة، فكأنّه ينفّذ خطّة الروس فعلاً. ولقد أثار ذلك الموقف أحد أعضاء قسم المجموعة السوفياتيّة في الـ CIA بحيث أنّه اتّهم مورفي صراحة بأنّه عميل سوفياتيّ. لم يكن ذلك لأنّ هذا الضابط ينكر البراهين الأخرى عن وجود خلد في وكالة المخابرات المركزيّة، وإلاّ كيف يمكن تفسير ما وصل إلى علم المخابرات السوفياتيّة بعد خمسة عشر يومًا فقط بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة جنّدت ضابط استخبارات بولنديًّا يعمل في سويسرا؟ كما أنّ بوبوف وجولينيوفسكي أفضل مخبري وكالة المخابرات المركزيّة فقدا سمعتهما، فكيف ومتى استطاعت المخابرات السوفياتيّة أن تلعب بهما لمستوى لم يعد بإمكانهما التفكير بعد ذلك؟ وكانت تعطى لكلّ حالة عدّة أجوبة محتملة. ذلك كان أكثر

الأحداث المخيّبة للآمال حتّى أنّه ليكاد يُقال بأنّ المخابرات السوفياتيّة KGB أصبحت تعرف كيف تفكّر وكالة المخابرات المركزيّة CIA.

في ربيع ١٩٦٦، وبينما كان مكتب التحقيقات الفدراليّ ووكالة المخابرات المركزيّة يحاولان الحصول على اعتراف من "إيغور أورلوف" بأنّه هو "ساشا" مصدر معلومات المخابرات السوفياتيّة في برلين، ظهرت في نفس الوقت براهين جديدة ضدّه، حملها إيغور آخر اتّصل في صباح أحد الأيّام مهاتفًا هيلمز، بشكل مباشر، ليعلمه بأنّ اتّصالاته ستتّخذ قاعدة منتظمة لأنّ لديه النيّة بالتعيين في مركز المخابرات السوفياتيّة في واشنطن. لكنّ الحصول على هذا المركز يتوقّف على نجاح المهمّة المكلّف بها وكانت: تجنيد نيكولا شادرين الضابط السابق في البحريّة السوفياتيّة الذي كان قد انشقّ عام ١٩٥٩، وكان يعمل كخبير في استخبارات البحريّة، ويسكن في ضاحية من واشنطن، وطلب إيغور من وكالة المخابرات المركزيّة مساعدته في إقناع شادرين مؤكّدًا على أنّ ذلك سيكون بداية لعلاقات مثمرة جدًّا.

ليبرهن عن قدرته على مبادلة الخدمة بالخدمة أعلن إيغور بأنّ السفارة السوفياتيّة تلقّت زيارة أورلوف، وهذا ما أكّد عليه مكتب المراقبة الفوتوغرافيّة. إلاّ أنّ هذه الزيارة لا تبرهن عن شيء لأنّ أورلوف أقرّ بزيارته إلى السفارة السوفياتيّة للحصول على عنوان أحد أعضاء أسرته المقيم في روسيا، لكنّ تلك الخطوة، إذا أضيفت إلى مجموعة الأعمال المحبطة التي اشترك ضمنها في برلين، فهي لم تفعل إلاّ زيادة الشكوك الرازحة على عاتقه.

أثّر ذلك الخبر على مكتب التحقيقات الفدراليّ لصالح إيغور. أمّا في وكالة المخابرات المركزيّة فقد حصل العكس وعلى رأسهم أنغلتون الذي كان مقتنعًا بأنّ إيغور خدعة جديدة من المخابرات السوفياتيّة. ورغمَ أنّ السرّ الذي قدّمه دعّم

المعلومات التي أشار إليها جولستين عن هويّة ساشا، فهذا السرّ لم يكلّف الروس كثيرًا لأنّ أورلوف كان قد فقد حظوته، ويمكن تأويله حتّى بمثابة هديّة مسموحة تسبق خدعة جديدة. ومع ذلك قبل مكتب التحقيقات الفدراليّ ووكالة المخابرات المركزيّة عروض إيغور الذي تلقّى اسمًا رمزيًّا هو "كيلي هوك"، وأُقيمت له علاقة مع شادرين. فإن كان إيغور عميلاً مضلِّلاً، وتلك فرضيّة مكتب التحقيقات الفدراليّ، فبإمكان الاستخبارات الأميركيّة عندئذ استغلال شادرين لتمرير معلومات فارغة إلى المخابرات السوفياتيّة، ويمكنها، في الوقت نفسه، أن تدعم عميلها الجديد "كيلي هوك". أمّا وكالة المخابرات المركزيّة فكانت مستعدّة لتدسّ شادرين على إيغور ليجعل الروس يعتقدون بأنّها وقعت في الفخّ، وذلك ما يسمح بمعرفة المدى الذي يريدون الوصول إليه. ولحماية تلك المناورة، وبما أنّ أنغلتون كان يعتقد بأنّ هناك شخص في الكتلة السوفياتيّة يشكّ في تعاطيه مع المخابرات السوفياتيّة، أمر أنغلتون بألاّ يكون هذا القسم على اطّلاع بالقضيّة. وهكذا أصبح هذا القسم من وكالة المخابرات المركزيّة الجاهل الوحيد لقضيّة "هوك"، بينما كان مكتب التحقيقات الفدراليّ يعتبره "بنكوفسكي" جديدًا.

في الواقع، في ما يختصّ بالعمليّات ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ، كانت تلك القضيّة "مياهًا راكدة" كما عبّر أحد رؤساء المصالح في الكتلة السوفياتيّة، إذ إنّ الخريطة العامّة للتجسّس قد أضحت مبهمة مفكّكة، ولم يبقَ منها إلاّ دهليز التجسّس المضادّ الذي لم يبقَ في مركزه إلاّ "الفارس السود"، وذلك تعبير عن اللقب الذي كان قد أُطلق على أنغلتون وربيبه جولستين. فبدون هذا الأخير والدعم الذي تلقّاه من أنغلتون، لما أخضع وكالةَ المخابرات المركزيّة الخوفُ من التضليل والتسرّب والمعلومات المضلّلة.

كان أنغلتون هو الوحيد الذي يتمتّع بالشخصيّة القويّة والمنطق المقنع والسلطة، لقمع الشكّ الذي يلقاه عادة كلّ تحذير ضدّ المؤامرات السوفياتيّة. ولم يكن يرضى

البقاء في ركن مجهول وكان حذره أسطوريًا، وعندما قرّر يومًا أن يتناول الغداء مع "شرمان كنت" رئيس مكتب التنبؤات القوميّ لوكالة المخابرات المركزيّة، دخل إلى مكتبه ودون أن يجلس انتظر أنغلتون حتّى يرتّب أوراقه داخل الخزانة الحديديّة، لكنّ أنغلتون جمع الأوراق من فوق مكتبه وقبل أن يضعها في مصنفها طلب من "كنت" الخروج. وهنا نسأل: أويكون أنغلتون على حقّ في ما يخصّ جولستين وقضيّة الخلد؟ لقد أبرز جولستين، مسبقًا، كلّ الوسائط لاتّهام إيغور أورلوف بأنّه هو ساشا، لكنّه لم يكن يريد التوقّف في منتصف الطريق. وحسب رأي ضابط من وكالة المخابرات المركزيّة: "لقد أصبح موقف جولستين إجمالاً كما يلي: إنّني أعطيتكم الشخص الذي خرّب كلّ عمليّاتكم ضدّ الروس في برلين، لكنّ ما تريده المخابرات السوفياتيّة هو أن تأخذ منكم رجالكم الطيّبين، فاعطوني لائحة بالضبّاط الذين تعاملوا مع ساشا وسأجد من بينهم الذين هم في داخل وكالة المخابرات المركزيّة ويعملون لصالح الروس".

ويدّعي جولستين بأنّ الضبّاط المتعاملين مع ساشا هم إمّا عملاء منذ البداية أو أنّهم جُنّدوا من جانب المخابرات السوفياتيّة، في وقت ما، بعد قيامهم بعملهم. وقد سمح أنغلتون لجوستين بتفحّص ملفّات هؤلاء الضبّاط الذين كانوا اثنَي عشر وبدأت المطاردة. وقد قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة: "لا بدّ من أن يكون المرء مجنونًا حتّى يعطي هذه الملفّات إلى أحد ضبّاط المخابرات السوفياتيّة، فتتوفّر له إمكانيّة الإطّلاع على أرشيف وكالة المخابرات المركزيّة. أن يتمكّن جولستين من فحص ملفّك الشخصيّ وأن تسمح له بأن يطّلع على منهج سيرتك التي قدتها عندما التحقت بوكالة المخابرات المركزيّة، إنّها فضيحة إنّها إهانة شخصيّة".

ما كان على أنغلتون أن يصل إلى هذ المدى. وفي الواقع أنّ مطاردة الخلد ورّطت أنغلتون إلى أبعد من ذلك بكثير، فقد وضع بين يديّ جولستين ملفّات كافّة الأشخاص

المتكلّمين بالروسيّة الذين خدموا في موسكو، وكذلك الذين تورّطوا في عمليّات لم تصل إلى النجاح، فإذا ما لاحظت عينا جولستين أيّ شيء غير اعتياديّ كان أنغلتون يضيف المشتبه به إلى لائحته السوداء ويأمر بتحقيق قانونيّ حوله. وكان أوّل هؤلاء "ريتشارد كوفيتش" وهو ضابط من أصل يوغوسلافيّ كان يعمل في قسم الكتلة السوفياتيّة.

قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة: لقد حدّد جولستين اسم كوفيتش بعد أن حلّل ما قدّمناه من معلومات، فكان كوفيتش المشبوه من الدرجة الأولى. فهو من أصل سلافيّ، يتحدّث الروسيّة، وكانت له علاقات عمل مع ساشا، وكان يعاشر بشكل مفضوح روسًا معروفين بأنّهم ضبّاط في المخابرات السوفياتيّة. وكثيرًا ما خرج في نزهات معهم، أو في حفلات سمر عائليّة، وذلك ليتعرّف بشكل جيّد على الأعداء كما كان يقول. وقد اعتمد جولستين، فقط، على قراءة ملفّه فادّعى عندها أنّه يعلم حتّى متى استطاع الروس تجنيده لحسابهم. ومن بين مهمّات مختلفة اطّلع بها كوفيتش، كانت مهمّة الاتّصال مع ضابط اسمه "فيدروف" من المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ. وكان هذا قد عرض خدماته على وكالة المخابرات المركزيّة التي بدا لها العرض باهتًا في البدية، لأنّه كان غير شرعيّ يجري تمرينه في باريس، وكان من المتوقّع تعيينه في المكسيك. حتّى أنّه حدّد اسم رئيسه في المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ، وتبيّن، في ما بعد، أنّ هذا الرئيس كان زميل مكتب بوبوف في برلين الشرقيّة. لكنّ وصف المكتب الذي اعطاه فيدروف لم يكن مطابقًا لما وصفه به بوبوف، علمًا بأنّ بوبوف كان بعيدًا عن الشبهات.

بعد اتّصاله المباشر مع كوفيتش بدأ فيدروف ظاهريًّا بالتلاعب فيه. فعدل عن مهمّته في المكسيك وعاد إلى موسكو فباريس من جديد، وأعلن بأنّه يتوجّب عليه

الذهاب هذه المرّة إلى جنوب فرنسا ليقابل شخصًا آخر غير شرعيّ من المكتب المركزيّ لاستخبارات الجيش السوفياتيّ الذي كان عليه أن يحلّ محلّه في المكسيك. وهكذا ذهب كوفيتش وراء فيدروف إلى الجنوب. وأكّد جولستين على أنّ عمليّة تجنيد كوفيتش جرت في جنوب فرنسا حيث انقطعت مراقبته.

عاد فيدروف إلى موسكو عن طريق فرانكفورت ثمّ برلين هذه المرّة، وتعقّبته وكالة المخابرات المركزيّة. فتوقّف في برن - سويسرا، ثمّ نزل إلى إيطاليا ومن ثمّ عاد إلى الشاطئ اللازورديّ في الساحل الجنوبيّ لفرنسا. وعندما رآه كوفيتش مرّة أخرى كانت الشبهة قد تأكّدت على فيدروف تمامًا، فأعلن عندها تعيينه في السفارة السوفياتيّة في ستوكهولم. وبناء على ذلك عاد إلى موسكو. بعد ذلك بقليل ظهر من جديد في برلين، لكن بدلاً من متابعة مهمّة الالتحاق بستوكهولم عاد مرّة أخرى إلى موسكو، وانقطعت أخباره.

في نفس الوقت تمامًا، كانت تلك القضيّة الأكثر إقلاقًا للبال، فاستُدعي بوبوف إلى موسكو الذي لم يعد منها أبدًا. فيكون فيدروف مرتبطًا، بشكل أو بآخر، بمقتل بوبوف.

بعد أن بعثر جولستين الأرشيف اعتقد بأنّه وجد دليلاً آخر ضدّ كوفيتش واتّهم "إينغبور ليغرن" سكرتيرة قديمة لسفير النروج في موسكو وعميلة لكوفيتش بأنّها كانت تعمل، منذ البداية، لحساب الروس، وأنّ كوفيتش كان يستعملها كوسيطة بينه وبين المخابرات السوفياتيّة. وكادت قضيّة هذه المرأة تثير فضيحة كبرى في النروج فأفصحت عن غضبها العظيم على أنغلتون وليس على كوفيتش.

عندما اتّهم أنغلتون هذه السيّدة كانت هي قد عادت إلى العمل من جديد في أوسلو كسكرتيرة لرئيس الاستخبارات العسكريّة النروجيّة، الكولونيل "ولهلم إيفانج" الذي كان، هو أيضًا، ضابط الارتباط بين النروج ووكالة المخابرات المركزيّة. ووصل أنغلتون

إلى أوسلو حيث أفصح عن شكوكه إلى رئيس الأمن الداخليّ النروجيّ فقط دون إعلام إيفانج بذلك، ممّا أسفر عن امتعاض واضح سمّم العلاقات بين وكالة المخابرات المركزيّة وهذين القسمين من الاستخبارات لسنين طويلة بعد ذلك، حسب قول رئيس قسم أوروبّا الغربيّة في وكالة المخابرات المركزيّة. ولقد شعر إيفانج ومعاونوه بأنّ تصرّف أنغلتون كان بمثابة خنجر في الظهر. وهذا ما تحدّث عنه أيضًا ضابط آخر إذ قال: "عندما يكون للمرء علاقات حميمة مع رئيس قسم معيّن ويكون عليه أن يحلّ مشكلة أمنيّة تخصّه مباشرة، فهو لا يعالج القضيّة مع رئيس القسم المضادّ، كما أنّه يجب ألاّ يترك الرئيس الأوّل جاهلاً تمامًا لسير التحقيق".

لقد كانت تلك الطريقة من التصرّف مأساويّة لسمعة وكالة المخابرات المركزيّة وكلّ ذلك مقابل لا شيء، لأنّ السيّدة كانت بريئة فعلاً. وقد أعيد لها اعتبارها في وظائفها، كما أنّ البرلمان النروجيّ صوّت على تعويض لها كعطل وضرر. أمّا الجاسوس الحقيقيّ فلم يُكتشف إلاّ بعد اثني عشر عامًا، في عام ١٩٧٧، وكان "جونفور هافيك".

لم تكن اتّهامات جولستين ضدّ كوفيتش مستندة إلى قواعد متينة لذلك لم تتأثّر أعماله كثيرًا لأنّ رؤساءه، الذين كانوا ينتظرون ما سيؤول إليه التحقيق، أبعدوه عن العمليّات الهامّة التي كان يساهم فيها عادة بنشاط وحريّة. ومن ثمّ أُلحق كوفيتش بمركز مغمور في أميركا الوسطى وكان ذلك بمثابة تدمير لمهنته. ورغم إعادة اعتباره من الناحية الرسميّة بقي في المرتبة التي كان فيها يوم اتّهامه من قِبَل جولستين. وحسب كيسفالتر: "بقي أنغلتون ينظر إلى كوفيتش بعين الشكّ وأوقف تقدّمه لمدّة ٢٠ عامًا".

لم يكن كوفيتش ولا أيّ ضابط آخر من الذين ارتاب بهم جولستين، على علم بالشكّ في ولائهم، وعندما علموا بالأمر حاولوا الدفاع عن أنفسهم دون دويّ، إذ إنّ

عملهم في وكالة المخابرات المركزيّة أصبح بدون فائدة، فترك كوفيتش الوكالة دون أسف.

وصل التسمّم إلى الاستخبارات الحليفة بحيث أنّ "فيليب دو فوجولي" ممثّل واشنطن في الاستخبارات الفرنسيّة وصف النفوذ الهدّام لجولستين كالتالي: "بعد أن قام فريقنا بتحقيق مبدئيّ في فرنسا ثمّ عاد إلى واشنطن حاملاً معه لائحة بأسماء قد تتوافق مع بعض أدلّة "مارتل" (وهو الإسم الرمزيّ لجولستين) التي كان قد قدّمها إلينا، لم يجب بصراحة على اسم واحد بنعم أو لا. وكان الأمر الأكثر خطورة بالنسبة لنا، ولجميع أقسام الاستخبارات، أنّ الأميركيّين كانوا يشاركون في تلك الجلسات وكانوا يعتبرون الأشخاص الذين تحدّث عنهم مارتل موضع شبهة. وكانت النتيجة أنّ اتّصالاتي المهنيّة مع الأميركيّين أضحت نادرة حتّى بالنسبة للقضايا الروتينيّة".

وتعرّض مئات الأشخاص للشبهات دون أن يُكتشف أيّ جاسوس. وقال ضابط آخر: "إنّ جولستين حرك ماضي كلّ الناس حتّى بداية العشرينات عندما فتح السوفيات حدودهم للمؤسّسات الغربيّة وبدأوا بتجنيد العملاء. ووجدت فصائل البشر المكلّفين بتلك الأبحاث عن الشبهات، أناسًا تنطبق عليهم الوقائع بشكل فعليّ لكن بدون أيّ برهان".

وقدّر ضابط آخر عدد الذين اشتبه بهم جولستين من الأميركيّين بمائة شخص، ومن البريطانيّين نفس العدد، وعشرة من فرنسا، واثني عشر في ألمانيا، بالإضافة إلى آثار عملاء سوفيات آخرين في كندا ونيوزيلاند وأستراليا والنمسا واليونان والنروج، ممّا سبّب محاصرة قسم التجسّس المضادّ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة بالإضافة إلى معظم أجهزة الأمن التابعة للدول الحليفة. ولم يتواجد شيء له مثل تلك السلبيّة على العمليّات الهجوميّة الحقيقيّة. ففي كلّ مرّة وقعت في أيدينا قضيّة جديدة يمكننا الحصول منها على معلومات مفيدة كان يأتيك أحدهم فيقول لك: لا بدّ من أنّها قضيّة ملغومة.

فانعدمت الثقة بين الناس وأصبح من غير المستطاع التعاون مع الأجهزة الأخرى لأنّها ملغومة. حتّى لو تواجد عملاء سوفيات حقيقيّون لما استطاعوا إنجاز هذا القدر من الأضرار كالذي أحدثه ذلك الذهان الذي أدخله جولستين وعمّمه أنغلتون. حتّى أنّ مورفي نفسه لم يسلم من الشبهات، فكان اسمه مذكورًا في لائحة أنغلتون لأنّه من أصل بولونيّ ويتحدّث الروسيّة ومتزوّج من إحدى الروسيّات البيض، وتواجد، في بداية الحرب الكوريّة، في سيول بصفة ضابط في استخبارات الجيش. وعندما كان مورفي رئيسًا لمركز ميونيخ كان على اطّلاع بأعمال ساشا وهو الذي حصل على موافقة لنقله إلى برلين، وهو الذي التقى سرًّا ببوبوف عندما أصبح رئيسًا للعمليّات السوفياتيّة في برلين...

وقال أحد الضبّاط: "يميل مورفي بشكل واضح إلى السعي نحو المتاعب، ففي فيينّا ألقى أحد الروس كأسه المليء بالجعة في وجه مورفي الذي ألحّ على تجنيده. وفي طوكيو ذاق طعم سياط عملاء المخابرات السوفياتيّة لأنّه كان يكسر كلّ ما تلمسه يداه. وقد اعتبر البعض أنّ ذلك التصرّف الهدّام كان مقصودًا، لذلك كان عرضة للشبهات. لكن لو كان مورفي عميلاً للروس فلماذا يحاول هؤلاء عرقلة عمله"؟

مهما يكن من أمر نُقل مورفي من عمله كرئيس لقسم الكتلة السوفياتيّة وأوكل إليه مركز باريس. لم يجد مورفي في هذا النقل أيّ شيء غير اعتياديّ لأنّ مركز باريس كان محطّ الأنظار للجميع. لكنّه اضطرّ لتعلّم الفرنسيّة قبل أن يستلم وظيفته، وتعامل مع "مؤسّسة الخدمة في الخارج" ممّا سمح بإبعاده عن كلّ العمليّات لعدّة أشهر ليكتمل التحقيق حوله. فلم يكن ليُترك يعمل في باريس لو أنّه ما زال موضع شبهة. ومع ذلك سارع أنغلتون إلى تحذير إدارة الاستخبارات الفرنسيّة من أنّ الرئيس الجديد لمركز باريس كان عميلاً سوفياتيًا. وكانت تلك النميمة كافية لتد...

عمل مورفي قبل وصوله إلى مركز عمله، لكنّ أنغلتون هو الذي انتهى بأن أصبح الضحيّة الرئيسة.

حلّ "رولف كنغلسي" رئيس قسم أوروبّا الغربيّة محلّ مورفي في إدارة قسم المجموعة السوفياتيّة. وباعتباره جاهلاً لأمورها لم يكن على مستوى الآخرين في القدرة على التوصّل إلى حلّ لمشكلة الخلد. كان لا بدّ من تبديد الشكّ الذي كان يشلّ كافّة العمليّات ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ، فعمد "كنغلسي" إلى إجراء صارم، فأجرى عملية تصفية أبعد فيها كافّة المشبوهين عن قسم الكتلة السوفياتيّة الذي لم يُدخل إليه إلاّ أناسًا لم يعملوا إلاّ على بُعد آلاف الكيلومترات من واشنطن. وبذلك لم يكن بالإمكان الشكّ بأنّ أحدهم عميل سوفياتيّ.

لم ينكر كنغلسي وجود الخلد لكنّه كان متأكّدًا من أنّه لو وُجد فلن يكون من بين عناصره. أمّا وقد أضحى كوفيتش ومورفي خارج العمل فإنّ نفس المصير حلّ بباغلي الذي كان عندها نائب المدير فأُرسل إلى بروكسيل بناء على طلبه، كذلك نُقل ماكوي الضابط الذي أعلن عن سخطه الشديد لمعاملة نوسنكو، خلال مقابلته المباشرة مع هيلمز. كما نُقل ضابط آخر إلى قاعدة "كامب بري" حيث يجري تدريب عناصر وكالة المخابرات المركزيّة في فرجينيا وذلك للاشتباه بتعامله مع ساشا.

هدفت هذه الإجراءات إلى تحييد الرجل المشبوه الذي يمكن أن يتواجد في قسم الكتلة السوفياتيّة. ورغم كلّ التدابير الجذريّة لم يتوقّف ستار الريب عن الانتشار في أروقة الوكالة، حتّى أنّ أنغلتون أسرّ إلى زميل له: "لقد كان بيل هارفي حقًّا سبّاقًا، وكان لا بدّ من أن يحدث له شيء... وما كان يعني بذلك أنّ هارفي قد جُنّد في لحظة ما لصالح المخابرات السوفياتيّة".

وقال أحد ضبّاط الوكالة بأنّ أحدًا لم يستطع أن يلبس هارفي الدلائل العديدة المقدّمة من قِبل التجسّس المضادّ. وعندما قرّر المفتّش العام المتبرّم "ليمان كيركباتريك" مغادرة الوكالة بعد أن أصبح خصمه هيلمز في قمّة السلطة، انتشرت شائعة عن قرب انشقاقه إلى الاتّحاد السوفياتيّ، الأمر الذي سبّب ذعرًا شديدًا في قسم التجسّس المضاد. وجرى البحث عنه في كلّ مكان لأنّه غادر دون أن يخبر أحدًا بمكان وجوده. وعُثر عليه في النهاية في نزل من مدينة "الباسو" المكسيكيّة التي جاءها ليطلّق زوجته ويتزوّج سكرتيرته.

في نفس الوقت أمر مكتب التحقيقات الفدراليّ كلّ الوكالات في العالم بأن تجمع المعلومات عن الأميركيّين الذين تردّدوا على كمبريدج في ما بين الأعوام ١٩٣١ و١٩٣٧، وتعرّفوا على "كيم فيلبي" و"بورغيس" و"ماكلين"، والذين شاركوا في نشاطات هدّامة.

بعد ذلك تمّ العدول عن اتّهام مورفي وكوفيتش والمشبوهين الآخرين وبدأ الهجوم على باغلي، ذلك لأنّ جولستين أشار على المحقّقين، دون أن يسمّي بالإسم، إلى واقعة غريبة كان فيها باغلي متورّطًا فيها بشكل مباشر. إذ قال جولستين بأنّه شاهد في موسكو نسخًا من تصريحات موجّهة إلى وكالة المخابرات المركزيّة كان قد قدّمها "بيتر دريابين" وهو ضابط في المخابرات السوفياتيّة انشقّ والتحق بفيينّا عام ١٩٥٤، وكان باغلي هو الذي اهتمّ شخصيًّا بقضيّة دريابين في تلك الفترة.

من جهة أخرى كان باغلي في مركز القضيّة، فهو الذي قدّم برهانًا لا يُدحض عن التسلّل إلى وكالة المخابرات المركزيّة عام ١٩٥٩، كما أنّه هو الذي كُلّف بتجنيد الضابط البولنديّ في سويسرا. لذلك، كان لا بدّ من تمحيص الأمور...

كلّ ذلك بدا غير معقول. أولم يكن باغلي أشدّ المتّهمين ضدّ نوسنكو؟ فإذا كان هو خلد السوفيات فلماذا يتحمّل كلّ ذلك العناء ليثبط من قيمة الدليل الوحيد الذي كان يؤكّد بشكل قاطع على أنّ تحذيرات جولستين خالية تمامًا من الصحّة؟ لكن في عالم التجسّس والتجسّس المضاد لا يمكن الوثوق بشيء. قد يكون نوسنكو أكثر من مضلّل بسيط. فإذا كان قد أُرسل حقًّا حتّى ينكشف باعتباره مضلّلاً فما ذلك إلاّ ليزيد من أهميّة متّهمه الرئيس باغلي.

عند بداية قضيّة نوسنكو لم يكن باغلي إلاّ ضابطًا بسيطًا في مركز برن السويسريّ، وعند نهاية القضيّة أصبح الرجل الثاني في قسم التجسّس المضادّ، وأضحى على وشك أن يصبح الرئيس عندما كلّف كنغسلي بتنظيف اسطبلات أوجياس.

وضع باغلي كلّ طاقاته للكشف عن مؤامرة المخابرات السوفياتيّة. وكان جزاؤه من ذلك أن أصبح موضع الاتّهام الوحيد. تلك كانت عدالة التجسّس المضادّ...

لقد حُلّل ماضي باغلي بكلّ تفاصيله ابتداء من قضيّة نوسنكو والتسرّبات الناتجة عن انشقاق ديريابين ومشروع تجنيد الإيرلنديّ، ثمّ أُهملت هذه المواضيع كلّها. لكنّ فكرة اتّخذت أصولها الجذريّة هي أنّ نوسنكو أُرسل ليتمّ اكتشافه عمدًا. وهكذا أُخرج باغلي من الحساب تمامًا. فمَن الذي يستفيد من هذه العمليّة؟ كان المستفيد الوحيد الذي ارتفعت مهابته هو جولستين لأنّه تنبّأ بأنّ الروس سيرسلون شخصًا لتقليل قيمته وذلك ما فعله نوسنكو. لكنّ تلك الفرضيّة بدت سخيفة أيضًا. فهل يُعقل أن يساند الروس شخصًا يحاول أن يكشف "خلدهم" ضمن وكالة المخابرات المركزيّة إلاّ إذا كان جولستين عميلاً مضلِّلاً هو الآخر وأنّ المخابرات السوفياتيّة أعطته مهمّة زرع بذور الشكّ عند الأميركيّين؟...

في هذا قال ضابط من مكتب التجسّس: "إن كان الروس قد أرسلوا حقًّا منشقًّا ليخدعنا ويشلّنا فإنّ جولستين يمثّل ذلك الرجل تمام التجسيد وتنطبق حالته مع برنامج السوفيات".

وهكذا جرى التنقيب في وكالة المخابرات المركزيّة وأجهزة الاستخبارات الغربيّة، رأسًا على عقب، وبقي الخلد طليقًا. ولم يستثن المحقّقون أحدًا من أصغر الضبّاط الذين تعاملوا مع ساشا بمَن فيهم رئيس قسم الكتلة السوفياتيّة، لكنّهم بُرِّئوا جميعًا. ورغم أنّهم تابعوا أدلّة جولستين بكلّ شذوذها وغرابتها وتفاصيلها الدقيقة، فإنّهم لم يتتبّعوا آثار السبل التي اقترحها نوسنكو، وكانت خمسين بمجملها، مدّعين أنّها خاطئة مبدئيًّا وتهدف إلى تضليل المحقّقين. فقد اعترف أحد ضبّاط قسم التجسّس بأنّ "توسنكو لم يخدعنا بل على العكس، أفهل يكون كافّة الجواسيس، التي أدّت تصريحات نوسنكو إلى اكتشافهم، بمثابة هدايا من الروس غايتها حماية الخلد، كما كان يؤكّد أنغلتون ورئاسة أركانه؟... لا بدّ من أنّ هذا الكائن الأسطوريّ عظيم بشكل جعل الروس يرمون بكلّ تلك الصابورة حتّى يفلت من أيدينا".

كان أنغلتون وجولستين على مستوى المسؤوليّة عندما قذفا بالحملة المذهلة ـ الديناصور ـ وهو الإسم الرمزيّ للتحقيق الجاري، ضدّ "إفريل هاريمان"، وكان في ذلك العهد مكلّفًا من قِبَل الرئيس جونسون بمفاوضات السلام مع الفييتناميّين.

كان "أفريل هاريمان" هذا سفير الولايات المتّحدة في موسكو ولندن، ثمّ حاكمًا لولاية نيويورك ثمّ وزيرًا للتجارة. ولم يكن جولستين يتّهم هاريمان لكنّه كان يؤكّد ببساطة على أنّ المخابرات السوفياتيّة قد جنّدت في الثلاثينات أميركيًّا كان في روسيا لبعض الأعمال التجاريّة، وأنّ المخابرات السوفياتيّة قدّمت له نساء لهذه الغاية، ونجم عن تلك العلاقة ولد غير شرعيّ. وقد ادّعى جولستين بأنّه يعرف اسم الولد. وفي

لحظة ما انقطع هذا العميل عن التعامل مع السوفيات، حسب رأي جولستين، وعاد إلى حضن ذويه في الخمسينات. وعلى شرفه كلّف الروس مؤلّفًا موسكوفيًّا في الدراما كي يكتب مسرحيّة تمثّل قصّة حياته (قصّة أمير رأسماليّ عنده ولد سوفياتيّ) ولقد شارك في يوم الافتتاح حتّى أنّه صعق لدرجة التشابه بينه وبين الممثّل بحيث أنّه شعر بافتضاح أمره فغضب غضبًا شديدًا على رجال المخابرات السوفياتيّة.

إستنتج أنغلتون، من سرد القصّة، بأنّ هذا العميل هو هاريمان السفير القديم الذي عاد إلى روسيا مرّة عام ١٩٥٩ ونشر قصّة عن رحلته شكر فيها دليله آنذاك "فاسيللي فاكروشيف" علمًا بأنّ الولد غير الشرعيّ الذي ادّعاه جولستين لابن العميل كان يحمل هذا الإسم...

هنا تتوقّف المصادفات... ومع ذلك كان من السهل التأكّد من أنّ إفريل هاريمان لم يتواجد في موسكو عندما عُرضت المسرحيّة المدّعاة على شرفه، لكنّ أنغلتون تجاوز هذه الحقيقة وطلب بإلحاح، من المدير الجديد ريتشارد هيلمز، أن يقوم بتحذير رئيس الولايات المتّحدة من هاريمان. رفض هيلمز أن يفعل هذا إذ إنّ الجميع بدأوا يشعرون بأنّ السيل قد بلغ الزبى في قصص جولستين وأنّ الدأب على صيد الخلد لم يسبّب إلاّ الشكوك والشلل، وأنّ التحذيرات التي أطلقها ضدّ حملات التسمّم السوفياتيّة انكشفت عن نزويّتها وعشوائيّتها. أمّا تفسيره للقطيعة السوفياتيّة ـ الصينيّة على أنّها خدعة فكانت قد أضحت حقيقة بيّنتها الصور المأخوذة من قِبَل طائرات التجسّس U-2 التي أظهرت الحشود العسكريّة السوفياتيّة والصينيّة على طول نهرَي الأمور والأوسوري...

وأخذت الأحداث تتلاحق لتثبت خطأه، وبدأت الأقاويل على أنّ أخطاءه إن كانت من هذا القبيل فكيف هي حالة ادّعاءاته الأخرى.

اقترح أنغلتون دعوة شخصيّات جامعيّة إلى اجتماع يقوم فيه جولستين بشرح وجهة نظره عن الخلاف الصينيّ السوفياتيّ، وعُمّد هذا الاجتماع مباشرة باسم "إجتماع الأرض المسطّحة".

كان عام ١٩٦٨ هو العام الذي أصبح فيه جولستين موضع السخرية وذلك بمناسبة "ربيع براغ" عندما صرّح بأنّ "دوبتسك" والانشقاق التشيكيّ ليس إلاّ إخراجًا مسرحيًّا مخصّصًا للغرب، وأنّ الروس أرادوا أن يجذبوا الأميركيّين إلى الفخّ ويدفعوهم إلى استغلال القلاقل التي لا تتواجد خلف الستار الحديديّ. وهكذا فإنّه بقي ثابتًا ومدعّمًا حتّى النهاية لفكرة أنّ الروس لن يحتاجوا أبدًا تشيكوسلوفاكيًّا. وكانتّ وكالة المخابرات المركزيّة قد جازفت ببعض عناصرها المجنّدة وباءت محاولاتها بالفشل وتضافرت قضيّتا القطيعة الروسيّة ـ الصينيّة والأزمة التشيكيّة فخفّضت كلاهما من سمعة جولستين. لكنّ ذلك لم يجعل حسن نيّته موضع شكّ إطلاقًا.

لا شكّ في أنّ المنشقّين جميعًا لديهم ميل واضح لسرد الأقاويل لكنّ جعبة معلوماتهم الحقيقيّة لا بدّ ناضبة في يوم من الأيّام. ثمّ يعمدون إلى ابتكار القصص المتزايدة ليلفتوا الأنظار. لكنّ الجديد في قضيّة جولستين هو أنّ أنغلتون استمرّ في تصديقه.

لم يكن جولستين بمنأى عن الشكوك، إذ كان ديريابين قد وضع اسمه في المرتبة الثانية على لائحة ضبّاط المخابرات السوفياتيّة الممكن تجنيدهم في فيينّا لصالح وكالة المخابرات المركزيّة. وحسب قول جولستين نفسه، وقعت هذه اللائحة في أيدي الروس، فمن الممكن أن يفرض هؤلاء أنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد يهمّها أمره فلمذا لا يفكّرون بجعله عميلاً مزودجًا؟... ولربّما كان نقله إلى هلسنكي بمثابة طعم للأميركيّين. وعندما رأوا أنّهم لم يتلقّفوا الطعم اتّخذت المخابرات السوفياتيّة المبادرة

فأمرت جولستين بالانشقاق. ومن ثمّ كانت رحلته الغربيّة إلى إنكلترا عام ١٩٦٣ حيث نوى الإقامة نهائيًّا في ذلك البلد، ومع ذلك غادره بعد خمسة أشهر وفصلت تلك الفترة حياته المنشقّة إلى مرحلتَين متميّزتَين. ففي المرحلة الأولى الممتدّة من كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦١ حتّى عودته إلى إيطاليا في آذار ـ مارس ١٩٦٣، لم يقدّم جولستين إلاّ معلومات صحيحة تمامًا، حسب اعتراف أنغلتون، ثمّ بعد عودته من بريطانيا في آب ـ أغسطس ١٩٦٣ بدأ هذيانه وبدأت ملاحقة الخلد اللامعقولة وجرّ معه أنغلتون، فضلاً عن القصص التي رواها حول هاريمان وتشيكوسلوفاكيا والقطيعة الصينيّة ـ السوفياتيّة، وكأن جولستين أقنع وكالة المخابرات المركزيّة بحسن نيّته خلال إقامته الأولى في الولايات المتّحدة، ثمّ عاد إليها ليتمّ مهمّته الحقيقيّة في التضليل. لكن، هل يمكن أن نعزو إلى المخابرات السوفياتيّة مثل هذه المشاريع المنقمة؟

في هذا قال ضابط كبير بعد ذلك: "غالبًا ما تحدّثنا عن هذا هيلمز وأنا. لكنّي لا أؤمن بأنّ الروس يمكن أن يتصوّروا، عند إرسالهم جولستين، أنّهم يمكن أن يسبّبوا مثل تلك الفوضى. من ثمّ مَن الذي يمكن أن يفرض، من بين السوفيات، أنّ أنغلتون يمكن أن يبتلع الطعم بسهولة؟".

كذلك لا يمكن لشخص في موسكو أن يتنبّأ بشكل أكيد أنّ انشقاق نوسنكو سيكون له أثر في دعم مركز جولستين. فإذا كان الروس قد وجّهوا نوسنكو وأعطوه الأوامر لينكشف أمره كمخادع، فلماذ يكلّفونه بالقول بأنّ المخابرات الروسيّة لم تنغمس في اغتيال كينيدي؟ إذ إنّ ذلك يؤدّي إلى دعم فرضيّة التآمر السوفياتيّ. والحقيقة أنّ التجسّس المضادّ الأميركيّ كان مقتنعًا تمامًا بالتآمر وأنّ نوسنكو كان يكذب. لكنّ الفرع المذكور صدّقه في هذه النقطة. لكن من المستبعد أن تكون المخابرات السوفياتيّة قد استطاعت مراقبة أفكار فرع التجسّس المضادّ إلى هذه الدرجة، إلاّ إذا كان لديهم فعلاً

عميلاً سابقًا فيه. فمَن الذي يأمر بالتجسّس المضادّ؟ مَن الذي ساد على معاملة جولستين ونوسنكو فاتّخذ موقف الدعم حيال الأوّل وموقف الإهمال حيال الثاني دون أن يصل إلى الاستنتاج بأنّ المخابرات السوفياتيّة كانت المسؤولة عن مقتل كينيدي؟ فمَن يكون إلاّ جيمس جيسوس أنغلتون؟".

لقد كان هناك، في الواقع، أناس في وكالة المخابرات المركزيّة يعتقدون بهذه النظريّة التي تمارس جاذبيّتها بتفسير المؤامرات وتقدّم أسبابًا على مستوى المعقول. وقد قال أحد رؤساء قسم المجموعة السوفياتيّة: "إنّ تأثير جولستين كان مرعبًا، وخلال عشرين عامًا لم تعرف أجهزة الاستخبارات الغربيّة كارثة مثله".

للمرّة الأولى أضحى التفكير ممكنًا بأنّ ذلك الإخفاق المستمرّ نتيجة الميول التدميريّة الذاتيّة كان بسبب التدبير الجهنميّ للسوفيات. وفي مثل هذا السيناريو، مَن هو أفضل من أنغلتون ليقوم بمثل هذا الدور اللعين. فالرجلان اللذان وجّها فرع الكتلة السوفياتيّة في حقبتين مختلفتين لم يكونا يعرفان بوجود ملفّ لأنغلتون، وعبّرا عن ذلك بتعابير متماثلة. فقال الأوّل: "لو طُلب منّي أن أحدّد عميلاً للروس في الوكالة لاخترت أنغلتون بسبب الشرّ والسوء الذي أحدثه". أمّا الثاني فقال: "إنّ كلّ الإخفاقات التي كان أنغلتون المسؤول عنها هي، في نفس الوقت، أسباب لاتّهامه بأنّه رجل الروس". فقضايا بوبوف وجولينيوفسكي وبنكوفسكي وجولستين ونوسنكو وكلّ ما انقلب من قضايا على وكالة المخابرات المركزيّة يمكن أن نعزو سببها إلى أنغلتون. عندها يصبح كلّ شيء بسيطًا. فإذا كان أنغلتون هو الخلد، تتمكّن المخابرات السوفياتيّة، عندئذ، من التأكّد من أنّ كلّ المنشقّين المزيّفين الذين ترسلهم سيعاملون كما يجب أن يعاملوا. لهذا قال أحد رؤساء قسم الكتلة السوفياتيّة: "ذلك أنّه هو الموجود في المنصب المثاليّ. فبالنسبة للروس إنّه هو المهمّ حتّى أكثر من مدير وكالة المخابرات المركزيّة. لقد لغم

السوفيات التجسّس المضادّ الإنكليزيّ بواسطة "كيم فيلبي" والقسم المماثل الألمانيّ بواسطة "هينز فلفه"، فلماذا لا يكون أنغلتون عميلهم في وكالة المخابرات المركزيّة؟"...

من جهة أخرى قاوم الكثير هذه الفرضيّة. فقال "توماس كراميسينس" الذي أدار قسم عمليّات وكالة المخابرات المركزيّة في الستّينات وأوائل السبعينات: "إنّني أعرفه منذ خمسة وثلاثين عامًا، وعملت معه ثلاثين سنة. ويبدو لي اتّهامه بالخيانة أو بالتصرّف الهدّام المتعمّد في غاية السخف. ولا شكّ في أنّ لأنغلتون أعداء كثيرون ربّاهم على مرّ الزمن. وإنّ ذلك كلّه نتيجة حتميّة لعمله ولتمتّعه بوجدان كامل. فبالنسبة لي يجب أن تكون الولايات المتّحدة الأميركيّة فخورة به".

أمّا ريتشارد هيلمز فمدح أنغلتون "لأنّه أظهر، أكثر ممّا فعل الآخرون، ما يمكن أن يفعله الجواسيس السوفيات. وقد يكون قد بالغ، في بعض الأحيان، لكنّ ذلك عيب متمّم في مثل هذا النوع من الأعمال".

كان أنغلتون يطمح لأن يكون ويبقى رئيس قسم التجسّس المضادّ. وباستثناء إدغار هوفر، لم يحتفظ موظّف كبير في الإدارة الأميركيّة بوظيفة مثل وظيفته تلك المدّة من الزمن. فخلال العشرين عامًا التي أمضاها أنغلتون في رئاسة فرع التجسّس المضادّ تبدّلت إدارة وكالة المخابرات المركزيّة ستّ مرّات، أمّا مكتب العمليّات فتبدّل رؤساؤه سبع مرّات. ولقد اختار أنغلتون وظيفته ولم يكن ينوي تركها. فما الذي كان يجنيه من الترفيع وهو مجبول لأعماق التجسس. وقد كان ليخفق بالتأكيد في ظلمات الإدارة. على العكس، لم يولِ هيلمز، مدير الوكالة لأحد من السلطات ما أولاه لأنغلتون إذ كان يعلم أنّه سيبقى دائمًا معاونًا له ولن يكون يومًا منافسًا. وبما أنّ أنغلتون كان غير قابل للزحزحة كان بالإمكان الاتّكال عليه في العمليّات الدقيقة دون خشية من تفكّك الأسرار

بتتابع الحلقات. وفي الجوّ الخاص كان هيلمز يتحدّث عن أنغلتون وكأنّه شخص غريب لا بل شديد الغرابة. لكن هل هنالك مهنة أشدّ غرابة من التجسّس على الجواسيس؟...

أنغلتون: يوحي اسمه بالمؤامرات الدهليزيّة. كما أنّ الانحناء الغريب لطيفه النحيل المقوّس من جهة والمنتصب من جهة أخرى، يوحي بأنّ المكائد قد ثنت حتّى هيكله. فكان يتكلّم بصوت خافت وبطء ورتابة، بحيث أنّ المرء يفكّر بأنّ الطبيعة قد أمدّته بجهاز لتخريب الصوت. لم يحترم أحد قواعد الأسرار أكثر منه، وكان كلّ ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة يعتمدون اسمًا مستعارًا في الاتّصالات بين الإدارة ومناطق العمليّات وكان اسمه "هوغ أشميد". لكن، عندما كان يسافر إلى خارج وطنه كان يوقّع البرقيّات المرسلة إلى القيادة العامّة بأسماء متخفّية ودائمة التغيّر، كان يحملها ضمن لائحة يخفيها في حزامه. ونسج كثير من الأشخاص على منواله بعد أن جذبتهم هالة عبقريّة الخفاء التي كان يتمتّع بها، وكانوا يأتون إليه بشكل طبيعيّ ليفضوا له بأسرارهم المكنونة كما لو أنّه الموضع الوحيد لخاتم السرّ...

كرّس أنغلتون حياته لوكالة المخابرات المركزيّة وللتجسّس المضادّ، وكان صائغا ماهرًا يمضي أوقات فراغه بصنع أزرار أكمام القمصان المجسّدة لرؤساء الاستخبارات الأجنبيّة، أو في زراعة أصناف زهرة الأوركيديا النادرة التي كان يرسلها لحلفائه في الحرب السريّة ضدّ السوفيات. فالأوركيديا كانت رمزًا للمهنة التي عشقها: أن تزرع النباتات لسنين طويلة ثمّ ترى إزهرارها المفاجئ العظيم لفترة قصيرة. كذلك كان شديد الولع بصيد السمك بالقصبة وباستعمال ذبذبات صناعيّة شديدة الدقّة كان يصنعها بنفسه.

عندما قرّرت وكالة المخابرات المركزيّة بناء منزل جديد لرئيسها هيلمز قدّم أنغلتون عربونًا لمحبّة الوكالة قطعة أرض كان يملكها على شاطئ بوتوماك. لذلك كان

الشكّ في أنغلتون على أنه الخلد بمثابة عدالة الشعراء بأن تكيل الصاع صاعين. فسواء كان ذلك الشكّ فضيحة أو مستحقًّا يجب أن يكون مبرهنًا عنه ومدعّمًا بمستندات أكثر صلابة من التخرّصات المنسوبة إلى حسن نيّة جولستين أو نوسنكو، لكن في عالم المرايا، التجسّس، تبقى الرمال متحرّكة وخائنة، ويمكن أن يكتشف المرء فيها آثارًا في كلّ مكان. فإلى أين نؤدّي؟

* * *

كان جولستين، عند انشقاقه، معتمدًا على الوصول مباشرة إلى أنغلتون، فهل كان تعاونهما مبرمجًا من المخابرات السوفياتيّة أو أنّ ذلك نتج عن تلاقي روحَين أختَين؟

فإذا كان هناك من مخطّط للمخابرات السوفياتيّة فيمكننا القول بأنّ نجاحه تمّ بشكل عجيب، لأنّ صيد الخلد حطّم عشرات لا بل مئات من مجريات الحياة وشلّ العمليّات ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ وأضرّ بشكل واضح العلاقات مع الاستخبارات الغربيّة.

لم يشكّ أنغلتون، مرّة واحدة، بجولستين، لا بل أخذ على عاتقه كلّ الاتّهامات بما فيها اللامعقولة، مثل ما جرى مع دافيد مورفي وإفريل هاريمان. وعندما قام منشقّون آخرون بالتشدّق عن حوادث بنفس المعيار، رفض أنغلتون الأخذ بها. فهل تجشم العناء بأن يحذّر مكتب التحقيقات الفدراليّ مثلاً عندما اتّهم ميشيل جولينيوفسكي هنري كيسنجر بأنّه عميل سوفياتيّ؟ ولم يحلم أحد باتّهام أنغلتون بالخيانة لأنّه لم يقم بذلك التحذير لأنّ جولينيوفسكي كان قد ادّعى بأنّه آخر سلالة رومانوف؟

كانت قضيّة "ليل جيم بينيت" من شرطة كندا المحمولة الملكيّة R.C.M.P. أكثر جدّيّة، إذ إنّ بينيت كان بشكل ما شبيهًا بأنغلتون بالنسبة للكنديّين، وقد أمضى معظم حياته المهنيّة في التجسّس المضادّ ولم يكن يتردّد عن اتّهام أيّ كان حتّى أعظم

الموظّفين رتبة واحترامًا. فهو الذي اتّهم جون واتكينز بالخيانة وأجبره شخصيًا على إيجاد تفسير للأدلّة التي قدّمها جولستين ونوسنكو. ومات واتكينز دون أن يعترف. وفي ربيع ١٩٧٢، أصبح بينيت نفسه موضع اتّهام شرطة كندا المحمولة الملكيّة R.C.M.P. فإذا كان لهذه الاتّهامات من سند فإنّ التحقيق مع واتكينز من قِبل بينيت كان حدثًا غريبًا فيكون بمثابة تمكّن عميل جديد للمخابرات السوفياتيّة من الحلول محلّ جثّة عميل آخر...

بدأت شرطة كندا المحمولة الملكيّة التحقيق والملاحقة دون إخطار أنغلتون، الذي ما إن وصله الخبر حتّى ثار ثورة عارمة لأنّ الرجلين عملا جنبًا إلى جنب في الكشف عن العملاء السوفيات الذين أرشد جولستين عن وجودهم في كندا. وعندما علم أنغلتون رسميًّا بالقضيّة شارك فيها بأقصى الحمية. وعندما اطّلع جولستين على الأدلّة من شرطة كندا المحمولة الملكيّة صرّح بأنّ اتّهام بينيت مبنيّ على أساس قويم دون أن يستطيع تقديم أيّ أدلّة ممّا احتاجه الكنديّون لاستمرار الملاحقة القانونيّة ضدّ بينيت. وأُجبر هذا، بالشكوك الرازحة على كاهلة، على التنحّي عن عمله، ومن ثمّ خضع إلى استجواب دام أربعة أيّام. وبما أنّه لم يعترف بشيء فإنّ شرطة كندا المحمولة الملكيّة عزلته من وظيفته "لأسباب صحيّة".

أثارت قضيّة بينيت موضوع فيلبي. ومرّة أخرى لم يستطع أنغلتون أن يدّعي الفضل. فهل كان "مغفَّل بينيت" في كندا كما كان في بريطانيا أيّام فيلبي قبل عشرين عامًا؟ وبما أنّه كان منشغلاً بملاحقة أعضاء مصلحته فهل يا تُرى كان قد خُدع من مسؤول عن مصلحة حليفه؟ أم أنّه ينتظر مكيدة أخرى أكثر خطورة؟

كانت حالة بينيت أكثر تعقيدًا من حالة فيلبي إذ إنّ هذا كان، بلا شكّ، عميلا سوفياتيًّا، أمّا بينيت فلم يعترف أبدًا.

إضطرَ المدّعي العام الكنديّ إلى التأكيد أمام البرلمان على كامل ولائه. فأقام بينيت دعوى تشنيع ربحها وانتشرت رواية شفّافة عن حالته بشكل قصصيّ. ومع ذلك قرّر مكتب التحقيقات الفدراليّ أن يعيد تمحيص مجاري حياة عملاء بينيت الأميركيّين الذين ربّما كانوا متواطئين معه.

كان أحد هؤلاء "نيكولا شادرين" المنشقّ السوفياتيّ الذي وظّفه مكتب التحقيقات الفدراليّ ووكالة المخابرات المركزيّة لحسابهما كعميل مزدوج منذ الفترة التي استطاع فيها إعادة الاتّصال بـ "إيغور" عام ١٩٦٦. وكان شادرين قد وصل إلى مونتريال عام ١٩٧١ ليقابل ضابط اتّصاله السوفياتيّ، وطلبت وكالة المخابرات المركزيّة من شرطة كندا المحمولة الملكيّة .R.C.M.P التجسّس على اللقاء، فإذا تبيّن أنّ بينيت كان يعمل لحساب المخابرات السوفياتيّة فلا بدّ من أنّه استطاع أن يحذّر المخابرات السوفياتيّة التي تعلم بكلّ نشاطات شادرين.

في هذا الاتّجاه لم تكن هذه الفرضيّة مفيدة كما اعتقد أنغلتون. فإيغور كان عميلاً مزدوجًا مزيّفًا. وفي هذه الحالة كان شادرين عميلاً مزدوجًا ميتًا منذ البداية ١٩٦٦ ـ ١٩٧١، سواء كان محترفًا ميتًا أم لا، فإنّ شادرين أُرسل إلى فيينّا ليقابل ضبّاطًا آخرين من المخابرات السوفياتيّة. وذلك ممّا يبيّن اللامبالاة في تأمين حماية شادرين من قِبَل وكالة المخابرات المركزيّة. ومن المعروف أنّ شادرين توصّل بنتيجة هذه المقابلة إلى الحصول على جهاز إرسال واستقبال فائق الجودة كان موضع اهتمام مصالح الاستخبارات الأميركيّة إلى أبعد الحدود. لذلك جرى التفكير بأنّ الروس لا يرتابون بأيّ أمر، بينما كان منظّرو العمل المزدوج يحملون الرأي المضادّ تمامًا. وحصل الأميركيّون على الجهاز واختفى شادرين في فيينّا دون أثر.

أمّا إيغور فزعم أنّه نجح في تجنيد شادرين لكنّه لم يتلقّ أبدًا تعيينه الذي كان يطمح إليه في واشنطن. ولقد جرت اتّصالات متفرّقة بين إيغور ومراكز وكالة المخابرات المركزيّة. وتحدّث أنغلتون في هذا الموضوع على أنّه أعظم تحرّش مضلّل حضرته المخابرات السوفياتيّة. وسواء كان تحرّشًا أم لا فقد كان على إيغور أن يقابل عميلاً لوكالة المخابرات المركزيّة في فيينّا في نهاية عطلة الأسبوع الذي اختفى فيه شادرين.

كانت كلّ تلك الأحداث تصبّ الوقود على النار كما قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة. لكنّها لم تبرهن عن شيء ضدّ أنغلتون. حتّى أنّ الحكم على بينيت لم يكن ليضيف شيئًا قاطعًا إلى ملفّه، بل كان الملفّ سيزداد بحادثة غريبة أخرى. وإنّ أيّ سيرة حياة إذا ما خضعت إلى نفس الامتحان المجهريّ كما خضعت لذلك حياة انغلتون لتبيّنت فيها غرابات مشابهة. حتّى أنّ أكثر سير الحياة بساطة يصبح معقّدًا عندما نمرّرها على غربال التحقيق. ونحن نعلم أنّ حياة أنغلتون كانت أساسًا معقّدة.

كم من الغرابات يلزمنا لتصبح جميعها مشبوهة؟ وكم منها يستطيع أنغلتون تفسيره إذا ما طُلب منه ذلك؟ وتحتوي أرشيفاته الشخصيّة على ملفّات كاملة كان الوحيد الذي يعرف محتوياتها. لكن كان من المستحيل الرجوع إلى ذلك الأرشيف دون إذن من أنغلتون. ولو طُلب منه ذلك لاعتبر أنّه موضع الشكّ.

في ربيع عام ١٩٧٤، وبعد ثلاث سنوات من الأبحاث في ما بقي من أرشيف وكالة المخابرات المركزيّة عن كلّ السبل التي يمكن لها أن تصل بين أنغلتون والمخابرات السوفياتيّة، لم يتقدّم التحقيق في تلك المسألة في جهة ما أو في أخرى، وهو لن يتقدّم أبدًا إلاّ إذا افتتح تحقيق نظاميّ بحقّه وأُخضع إلى مراقبة إلكترونيّة

وشخصيّة. ومثل هذا الإجراء مستحيل الحدوث إلاّ إذا سمح المدير نفسه به، عندما يقتنع بمصداقيّة أسس التّهم الموجّهة إلى رئيس قسم التجسّس المضاد. هكذا كان قدر أنغلتون بين يدَي ويليام كولبي الذي وصل إلى منصب المدير بعد مجموعة الاستقالات والعزول الجماعيّة التي اتّسم بها عهد نيكسون. ومن المعروف عن كولبي أنّه شخص شهم وسوداويّ ويمثّل نموذج الموظّف الأمين والمغفْل الذي لم يطمح يومًا إلى مركزه الجديد. حتّى أنّه عبّر صراحة عن ذهوله عندما علم بتعيينه مديرًا لوكالة المخابرات المركزيّة وباعتلائه المفاجئ للمنصب.

بدا كولبي بعيدًا جدًّا عن التجاوب الخفيّ مع هاري ترومان عندما اضطرّ لمواجهة عصيان الجنرال "دوغلاس ماك أرثر". وكان على كولبي أن يقمع الشخصيّة الأسطوريّة في وكالة المخابرات المركزيّة ألا وهي: أنغلتون.

كتب كولبي في مذكّراته: "لقد كانت لي معه محادثات طويلة وبذلت كلّ استعداد لمحاولة فهم وقبول نظريّاته الضبابيّة عن حذق ومقدرة المخابرات السوفياتيّة التي توصّلت، بمهارتها الشيطانيّة، إلى لغم كافّة الاستخبارات السريّة لحلفائنا، وأن توظّف، في كلّ الأمكنة، منشقّين مزيّفين وعملاء محرّضين لا تحصى أعدادهم، ثمّ أخذت تستعملهم للتأثير على السياسة الأميركيّة ومعارضتها. وإنّني لأعترف بأنّي لم أتوصّل إلى فهم ذلك، ولم تكن تفسيرات أنغلتون مستحيلة المتابعة فقط بل كان يستخلص نتائج من أدلّة غير كافية مطلقًا".

كان كولبي قد حاول التخلّص من أنغلتون عام ١٩٧٣ عندما كان يدير قسم العمليّات، فطلب من المدير حينذاك شليسنغر أن يحيل على التقاعد رئيس قسم التجسّس المضادّ الذي أصبحت أفكاره تآمريّة جدًّا وأكثر خطرًا من أيّ شيء على الوكالة. لكنّ شليسنغر، المنبهر بالمثقّف اللامع الذي لا تُدحض أفكاره، تردّد، فما كان من كولبي إلاّ

أن حصل على موافقة الرؤساء على إيقاف مشروع HT/ Lingual الذي كان أنغلتون يعلّق عليه آمالا عريضة رغم أنّه كان غير منتج وغير قانونيّ.

بعد أن أصبح كولبي مديرًا راح يفكّر بالتخلّص من أنغلتون وإن بدا متردّدًا في التنفيذ. أمّا أنغلتون فلم يتورّع عن التصريح في مجالسه الخاصّة بضرورة ملاحقة كولبي قضائيًّا من قِبَل مصلحة الضرائب بسبب الأضرار التي سبّبتها فطريّته لوكالة المخابرات المركزيّة.

وأخيرًا، خلال رحلة إلى باريس علم كولبي، من رئيس الاستخبارات الفرنسيّة، أنّ أنغلتون صرّح له بأنّ مورفي عميل للسوفيات. تلك كانت نقطة الماء التي جعلت الكأس تفيض فجعلته يبصق البحصة...

كتب كولبي في مذكّراته: "عندما عدت إلى نفسي من تلك الصدمة استخبرت واكتشفت أنّ الوقائع تعود إلى سنين خلت، وأنّ تحقيقًا شاملاً بيّض، تمامًا، صفحة ذلك العميل الذي يتمتّع بكفاءة عالية، كما أنّ النتائج المهنيّة كانت ممتازة".

حرّر كولبي ملاحظة رسميّة وزّعها على كافّة مصالح وكالة المخابرات المركزيّة عبّر فيها عن ثقته التامّة بمورفي، واتّخذ القرار بالتخلّص نهائيًّا من أنغلتون.

إقترح كولبي عليه أن يسحب منه مسؤوليّة العلاقات مع الإسرائيليّين أملاً منه بأن يستغلّ المناسبة فيطلب إحالته على التقاعد، لكنّ أنغلتون عاند محتجًّا على أنّ الاتّصال مع الإسرائيليّين عظيم القيمة ويجب ألاّ يُسند إلى البيروقراطيّة.

إعترف كولبي بأنّه خضع خوفًا من الاجراءات التي يمكن أن يتّخذها أنغلتون فتمسّ التكامل المهنيّ بسبب طلبه الانفعاليّ في ما لو اتّخذ موقف الإلحاح. كيف ستكون الاجراءات المتّخذة من قِبَل أنغلتون بحقّ "كلير بتّي Claire Petty" من قسم

التجسّس المضادّ الذي عرض على ويليام نلسون، النائب الجديد لرئيس قسم العمليّات، تقريرًا ضخمًا يتّهم فيه أنغلتون بأنّه عميل للروس؟

إنطلق "بيتي" من فرضيّة أنّ الروس نجحوا في لغم وكالة المخابرات المركزيّة. وهو يؤكّد على أنّ جولستين ونوسنكو كانا منشقّين مزيّفين، وعلى أنّ أنغلتون هو الخلد الذي يدير كلّ خيوط اللعبة. وعدّد، بتفاصيل دقيقة، كلّ غرائب مجرى حياة أنغلتون ابتداء من قضيّة كولبي حتّى قصّة بينيت، بالإضافة إلى الدعم غير المنطقيّ الذي منحه لهذيان جولستين عن أفريل هاريمان والقطيعة الصينيّة السوفياتيّة مرورًا بالاتّهامات الوحيدة الجانب ضدّ عملاء ثبتت كفاءتهم مثل مورفي وليجرن، ممّا أساء إلى العلاقات مع الاستخبارات الحليفة. ثمّ نصح "بيتي" باستبعاد المعاونين الرئيسيّين الثلاثة لأنغلتون عن قسم التجسّس المضادّ وهم راي روكّا، ونيوتن ميلر، وويليام هود، رغم أنّهم جميعًا أبرياء لكنّهم يخضعون لميول رئيسهم.

قال بيتي: "إنّ الاتّهام الذي وجّهته لأنغلتون ينبعث من عدد ضخم من الظروف الغريبة والبراهين غير المباشرة، فلم يكن هنالك شيء واحد واضح أو بسيط في تلك القضيّة الكريهة التي تحطّم الرأس المنفرد ومن ثمّ تبقى بلا نهاية".

وضع بيتّي تقريره وغادر وكالة المخابرات المركزيّة دون عودة. لقد كان التقرير مدفوعًا بالروح التآمريّة التي كانت تسيطر على كولبي ضدّ أنغلتون. وقد قال أحد معاوني كولبي عن هذا التقرير: "إنّه نسيج من الفرضيّات والوقائع التي تقبل التأويل بأوجه مختلفة، ولقد كان بالإمكان التوصّل إلى نتائج مختلفة تمامًا. أمّا النتائج المدوّنة فيه فهي حقًّا مسحوبة كالشعر، وكان بيتّي انفعاليًّا ومؤمنًا بفكرته بحيث أنّ مَن يقرأ تقريره بجد لنفسه عذرًا عندما يتساءل هل كان حقًّا سيّد أحكامه وواعيًا للتأثيرات التي يمكن أن يسبّبها أيّ من أخطائه".

كان بيتّي مملوكًا بنظريّات أخرى، ولا شكّ في أنّه ميّز الغثّ من الثمين في مرّة على الأقلّ، فهو الذي تعرّف على "هينز فلفه" عميل السوفيات داخل جهاز استخبارات ألمانيا الغربيّة. تلك النظريّة التي بدت شديدة الغرابة في حينها أثبتتها رسائل جولينيوفسكي بشكل كامل، فضلاً عن التحقيق الجنائيّ الذي تلاه. وحملت له تلك القضيّة احترام الجميع واعتبارهم، بما فيهم ذلك الضابط الذي كُلّف بإعداد الملفّ النهائيّ لقضيّة "فلفه" فكانت له مع بيتّي محادثات طويلة. وقال في تقريره: "إنّي أشعر بالسعادة للتعرّف عليه رغم أنّي لا أحبّه كثيرًا لكن يجب أن أعترف بأنّه ليس ذلك النوع من الرجال الذين يحبّون الغطرسة، ويمكن للمرء أن يثق بهم".

كان بيتّي هو الشخص الثاني الذي يتّهم أنغلتون بالعمل مع الروس. وكان بيل هارفي ينمّي نفس الشكوك قبل عشرين عامًا وإن كان ذلك بشكل عفويّ وغريزيّ. وهارفي هذا كان انفعاليًّا امتلكته نظريّة حول كيم فيلبي. وهكذا كان متّهما أنغلتون شخصيّتَين ثبتت قدرتهما على اكتشاف العملاء. لكنّ كولبي لم يجد ضرورة للسماح بالتحقيق وقال: "إنّني لم أؤمن قطّ بأن أنغلتون كان يومًا عميلاً سوفياتيًّا، وليس لديّ أيّ ريب تجاهه". لكنّ الأسباب التي دفعت كولبي للتخلّص من أنغلتون كانت نفسها التي هدف إليها التحليل الجذريّ لبيتّي، حيث أنّ تطبيق خطّ جولستين أصبح بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة مسبّبًا للشرّ أكثر من الخير.

في شهر كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٧٤، بعد أن نشرت صحيفة نيويورك تايمز تحقيقًا مفاده أنّ وكالة المخابرات المركزيّة قامت بالتجسّس على معارضي الحرب، صرّح كولبي لأنغلتون عن قراره. وفي نفس الوقت أخبر معاونيه الثلاثة بأنّه سيتمّ نقلهم. واختار الثلاثة، مع رئيسهم، الإحالة على التقاعد. وجرى تضافر في الظروف كان عفويًّا تمامًا، فاجتمع في نفوس البشر موضوعا استقالة أنغلتون والتحقيق الذي

نشرته نيويورك تايمز. وكتب كولبي يقول: "لا يريد أحد من الناس أن يعتقد بأنّ خروج أنغلتون لم يكن بسبب تحقيق نيويورك تايمز، كما أنّ كلّ الأشخاص الذين يعرفون تقرير بيتّي أو سمعوا بنتائجه أمسوا قانعين بأنّ عزل أنغلتون مرتبط بالشكوك التي حامت حوله".

لقد قيل إنّ كولبي استغلّ، بلباقة، فضيحة ليستر بها أخرى أشدّ بشاعة. لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا.

أعلن "نيلسون" نبأ استقالة أنغلتون في اجتماع مسؤولي الوكالة الذي كان ينعقد كلّ صباح، فسكت الجميع فجأة منزعجين، أمّا أنغلتون فبقي هادئ الأعصاب يدخّن سيجارته في الوقت الي كان نلسون يشرح عدم وجود علاقة بين الاستقالة ومقال صحيفة نيويورك تايمز. ثمّ وقف أنغلتون وألقى خطبة عن طبيعة التهديد فكانت مجموعة من التنبّؤات والتحذيرات، كلّ واحدة منها أشدّ خطورة من الأخرى. فعمّ الغمّ الجميع ورُفعت الجلسة، وتدافع الكلّ إلى الأبواب وكأنّ الأمر هروب إلى أبواب النجاة.

في ذلك المساء التقى دافيد فيلبس، رئيس قسم نصف الكرة الغربيّ، بأنغلتون في مرآب السيّارات، وتحدّث فيلبس عن هذا اللقاء الأخير قائلاً: "لم أر في حياتي قدرًا من التعبير عن الاجهاد والحزن. لقد تصافحت أيدينا وصعدت إلى سيّارتي وتوجّهت نحو المخرج وعيناي مثبّتتان على المرآة الخلفيّة وأنا أرى طيفه المماثل لطريدة الطير وهي تصغر تدريجًا عبر المرآة أمامي".

***

"هل قدّرت عواقب ما فعلت؟ لقد أحرقت تمويهي، هل كان مقالك ضروريًّا؟ لقد كشف عن فعاليّتي الحقيقيّة أمام زوجتي بعد واحد وثلاثين عامًا من الزواج؟"...

هذا ما قاله أنغلتون يومًا عندما قابل "سيمور هيرش" كاتب مقال نيويورك تايمز.

كان أنغلتون يقول لمعارفه إنّه يعمل في البريد، وذلك لم يكن بعيدًا عن الصحّة تمامًا لأنّه كثيرًا ما كان يتولّج فتح الرسائل. ومع أن تلك هي طرفة من طرائف أنغلتون لأنّ زوجته كانت تعلم تمامًا وظيفة زوجته. وهل يُعقل أن يضع موظّف بريد على صيوان مدفأته رسم ريتشارد هيلمز؟ كما أنّ ميول أنغلتون كانت معروفة لأيّ امرئ تكبّد مشقّة قراءة مذكّرات فيلبي التي ظهرت عام ١٩٦٨ وذكر فيها أنّ أنغلتون كان حلقة اتّصاله مع وكالة المخابرات المركزيّة، وشكا فيها من السهولة التي انخدع فيها. وقد ألقى، تحقيق صحافيّ في الواشنطن بوست، الضوء على الحقائق التي كشفها فيلبي حتّى أنّ أنغلتون الذي شعر بالمساس من ذلك قطع علاقاته مع صديقه "بن برادلي" مدير الصحيفة. لكنّه بقي على علاقاته الوثيقة مع "شالرز مورفي" من مجلّة التايم، وبنجامين وليز" من نيويورك تايمز، و"جوزف ألسوب" و"جيمس ترويت" من مجلّة نيوزويك.

لم يكن أنغلتون مموّهًا كما كان يدّعي لكنّ صورته كانت تتّفق فعلاً مع ما يتخيّله أيّ من الناس عن العميل السريّ. ولو جمع الرسّامان جون كاري وغراهام غرين موهبتهما لرسم صورة للجاسوس المتفوّق لكانت النتيجة صورة أنغلتون، ذلك الرجل الذي أصبح بين ليلة وضحاها معبود الجماهير، مع أنّه احتفظ بما يكفي من الابتعاد عن فضوليّتهم، لقد كان نموذج البطل لقصّة عنوانها: "الأوركيديا لأمّي". ونشر "رولينغ ستون" رسمه الذي تفنّن به ريتشارد أفيدن، أعظم مصوّر في العالم على صفحة مزدوجة، واشترك في مؤسّسة للنشر ليبقى على اطّلاع على كلّ ما يُنشر حوله، وحاز على هاتف له جهاز للجواب الآليّ لئلاّ يفقد أيّ محاولة للبقاء مع الصحافة، واعتبره الصحافيّون جميعًا مصدرهم الشخصيّ للمعلومات، بينما كان في الواقع على اتّصال

دائم مع دزينة منهم متلاعبًا بهم بعد أن فقد جواسيسه الذين يناور بهم فانكبّ على علاقته معهم.

بعد بضعة اشهر من إحالته على التقاعد عاد أنغلتون إلى لانغلي ليتقلّد أعظم أوسمة وكالة المخابرات المركزيّة، واختير لتلك المناسبة يوم لم يكن فيه كولبي موجودًا. وبتقليده الوسام اعترفت وكالة المخابرات المركزيّة بأنّ مجرى حياة أنغلتون كان سليمًا وإن انتهى نهاية سيّئة، لكنّه احتوى على أيّام مجيدة. ولم يكن أنغلتون يبغي الاكتفاء بالوسام بل أراد مناصرة قضيّته وطريقته في رواية الأشياء، ويثبت أنّ كولبي ليس إلاّ مرائيًا أو أسوأ من ذلك.

وصل الخبر إلى نيويورك تايمز بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة تتجسّس على المواطنين الأميركيّين من مصدر في وزارة العدل، لكنّ كولبي أكّد بنفسه، بناء على رغبة هرتش، على كلّ عناصر القضيّة. وكان ذلك بالنسبة للصحيفة المذكورة بمثابة إعطاء الضوء الأخضر الذي بدونه لم تكن الصحيفة لتخاطر بسمعتها، ولم يمكن للمرء من حاجة لأن يكون متآمرًا في روحه.

ليس من الضروريّ أن يكون المرء ذا نفسيّة تآمريّة حتّى يرتاب بأنّ كولبي فعل كلّ ذلك لإزاحة أنغلتون.

من جهة أخرى سبّب المقال فيضًا من التحقيقات من قِبَل البيت الأبيض والكونغرس والجماهير، كان يمكن أن يسيء إلى كلّ أسرار وكالة المخابرات المركزيّة. فهل كان كولبي يريد ذلك أيضًا؟ لا شكّ في أنّ أنغلتون وأركان قيادته غذّوا الشكوك حول كولبي منذ الستّينات، فمنذ ذلك الحين لم يذكر في تقريره للإدارة أيّ شيء عن علاقاته مع أحد الفرنسيّين الذين كان ولاؤهم لأميركا غير قابل للشكّ. كما انّه استنتج، خلال ثلاث مرّات متتالية، أنّ كولبي هو عميل مستبسل للسوفيات ضدّ

الوكالة وذلك يتضمّن قفزة منطقيّة شديدة الخطورة لكنّها لم تكن الأولى من نوعها. ورغم ذلك فإنّ أنغلتون لم يوجّه أيّ اتّهام، في لقاءاته مع الصحافيّين، بل كان يشكو دائمًا من أن تكون سذاجة كولبي بمثابة مدخل لمقلب سوفياتيّ، ويدلّل على ذلك بذكر حالة ليبافسكي، إذ كان هذا جرّاحًا عصبيًّا ومنشقًّا يهوديًّا عرض خدماته على الأميركيّين عام ١٩٥٧، وبعدما استقال أنغلتون لم يكن الحذر واردًا، ومن ثمّ فإنّه جُنّد. وبعد عامَين من ذلك أفشى النشاطات التي كلّفته بها وكالة المخابرات المركزيّة، ووشى علنًا بزميله تشارانسكي مع منشقّين آخرين. فكان لا بدّ من الاعتراف بأنّ ليبافسكي عاد مكلّفًا بتبديد سمعة حملة حقوق الإنسان في أعين الروس.

إستعاد أنغلتون اعتباره لنفسه، بشكل مذهل، عام ١٩٧٩ وكذلك عام ١٩٨٦ عندما قرّرت الصين وروسيا إجراء مباحثات لتسوية الخلاف بينهما.

فهل كان الفخّ، الذي تحدّث عنه جولستين قبل ستّة عشر عامًا، قد وصل إلى مرحلة الانغلاق؟

ومَن لم يكن مطّلعًا على نظريّات جولستين فإنّه يفسّر تلك البوادر الأولى للمصالحة وكأنّها تأرجح بسيط في لائحة حرارة التاريخ بسبب تنظيم العلاقات بين الصين والولايات المتّحدة الأميركيّة. أمّا بالنسبة لأنغلتون فإنّ التاريخ هو التآمر.

وعندما احتلّت إسرائيل جنوب لبنان، عام ١٩٧٨، انتقامًا من الهجوم الذي شنّته منظّمة التحرير الفلسطينيّة على الباص المحمّل بالإسرائيليّين، أعلن أنغلتون، لأحد أصدقائه، بأنّ الهدف من العمليّة كلّها هو حفر قناة تحت الأرض لجرّ مياه الليطاني نحو المنطقة المحتلّة من فلسطين. وعندما احتلّت القوّات الإسرائيليّة بيروت، في حزيران - يونيو ١٩٨٢، وبعد توقيع اتّفاقيّة ١٧ أيّار - مايو، صرّح أنغلتون بأنّ ما

تهدف له إسرائيل هو الحصول على المياه اللبنانيّة لتوسيع مساحة الأراضي المرويّة من شمال الكيان المحتلّ.

كما نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً في ١٨ شباط ـ فبراير ١٩٨٦، بعد انسحاب الإسرائيليّين من لبنان في حزيران ـ يونيو ١٩٨٥ قالت فيه إنّ كلّ المناورات العسكريّة الأميركيّة في المتوسّط تهدف إلى حماية المواصلات الجويّة الإسرائيليّة والقضاء على مساندي الإرهاب في منطقة الشرق الأوسط. وعلى رأس المقال ظهرت صورة لزهرة الأوركيديا وكأنّما أراد بها كاتب المقال أن يظهر بأنّ مصدر معلوماته هو أنغلتون نفسه.

يبدو من هذه المقالات ومن أمثالها أنّ كافّة المسؤولين الأميركيّين عندما يكونون في السلطة لا يستطيعون الجهر بآرائهم في ما يختصّ بالدولة العبريّة إلاّ إذا كانت هذه الآراء متّفقة مع رأي الاستخبارات العسكريّة الإسرائياليّة. ويمكننا أن نشاهد أمثلة متعدّدة عن ذلك في ما يختصّ بجيرالد فورد ونيكسون وجيمي كارتر.

وإذا صرّح أحد المسؤولين بعكس ذلك، فإنّ مصيره يكون الدمار التامّ أو الاستقالة من منصبه، كما حصل مع أندرو يانغ وغيره من المسؤولين الأميركيّين.

لم يظهر في الصحافة إلاّ القليل ممّا قاله أنغلتون للصحافيّين. فالمؤامرات والمكائد التي كان يراها في كلّ مكان، كانت بالغة الغرابة وذات سند بالغ الضعف حتّى يمكن للمرء أن يشكّل منها معلومات حقيقيّة. لكنّه، من وقت إلى آخر، وكتعويض على مستمعيه على الإصغاء إلى اللغو في كلامه وأحكامه الملتوية، كان يكشف عن واقعة بسيطة مبهرة ثمينة كالماس.

مع ذلك لم يكن أنغلتون بل الرئيس فورد نفسه هو الذي فلّت أكبر خبر في شلال الإفشاءات التي تلت مقال هيرتش، وذلك خلال الاجتماع الإعلاميّ مع محرّري نيويورك تايمز عندما أعلن بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد تورّطت في محاولات اغتياليّة. وربّما كان هذا أكبر خبر تلقّفته الصحافة الأميركيّة في ما يخصّ السياسة الداخليّة لحكومة الولايات المتّحدة.

أمّا الخلد، فبقي يحفر تحت سطح أرض وكالة المخابرات المركزيّة حتّى آخر أيّام الإتّحاد السوفياتيّ دون أن يتمكّن أحد من اصطياده[١].

---

١ ـ رصاص، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة... ص٣٥٤ ـ ٣٧٨.

فلاديمير فيترُوف و"الخَطّ إكس" السوفيَاتيّ

لم يكن حدوث القتل أمرًا عاديًّا في موسكو في شباط ـ فبراير ١٩٨٢، ولذلك فحينما وصل رجال البوليس إلى موقف السيّارت ورأوا جثّة رجل طُعن بالسكّين حتّى الموت وامرأة أصيبت بجروح بالغة، عرفوا أنّهم أمام أمر غريب. وأصبحت القضيّة حتّى أشدّ غرابة حينما عرفوا أنّ الرجل الميت كان مسؤولاً كبيرًا في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، بينما كانت المرأة سكرتيرة في الجهاز نفسه.

بكلمات أخرى، فقد كانت قضيّة محفوفة بتعقيدات سياسيّة. وقلّما استوعب رجال البوليس حقيقة تلك التعقيدات حينما اصطدموا بتعقيدات أخرى: بعد ساعة من وصول رجال البوليس إلى مكان الحادث الذي اندفع إليه عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بأعداد كبيرة، ظهر في مكان الحادث كولونيل في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، في الرابعة والخمسين من العمر، يدعى "فلاديمير فيتروف". وأشارت سكرتيرة جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB التي أصيبت بجروح بأصابعها، وأعلنت أنّه الرجل الذي قام بطعن الرجل الميت بالسكّين وحاول قتله. وألقى رجال البوليس القبض عليه، ووجدوا سكّينًا ملطّخة بالدماء في جيبه...

كانت تلك واحدة من الجرائم المتميّزة بالعواطف الإنسانيّة التي تحدث بين الحين والآخر حتّى في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وعمل الجهاز جاهدًا على جعل القضيّة بعيدًا عن عيون العامّة. وقدّم فيتروف اعترافًا كاملاً، وفي غضون ذلك اعترف

أنّه أقام من قبل علاقـة جنسيّة غير مشروعة مـع سكرتيرة فـي جهـاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وذات ليلة، كانا يجلسان في سيّارته في موقف السيّارات ويتناولان الشمبانيا، وفجأة خبط مسؤول آخر فـي جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، كان يتجوّل مشيًا على الأقدام في موقف السيّاران، على شبّاك السيّارة... ذلك المسؤول كان تعرّف إلى زميله في العمل وأراد تبادل تحيّات وديّة معه، وربّما الحصول على رشفة من الشمبانيا... ولكن لسبب غريب، شعر فيتروف بالذعر، ولاعتقاده على ما يبدو بأنّ هذا الرجل التابع لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB كان يهمّ بإلقاء القبض عليه، سحب سكّينًا وطعن بها الرجل حتّى الموت... وحينما هربت السكرتيرة في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB من مكان الحادث، اقتفى فيتروف أثرها، وطرحها أرضًا، وطعنها بالسكّين عدّة مرّات... وافتراضًا منه أنّها ماتت، غادر المكان، ولكنّه عاد بعد ساعة للتأكّد من ذلك...

بدأت العقول المتشكّكة في دائرة مكافحة التجسّس التابعة لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في التفكير مليًّا في هذا السيناريو... لماذا شعر فيتروف بمثل هذا الذعر حينما رأى مسؤولاً آخر في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB؟ والحقيقة هي أنّ محاولة فيتروف المتزوّج إقامة علاقة جنسيّة غير مشروعة مع سكرتيرة في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، لم تكن حادثة لم يسبق لها مثيل... وحتّى لو اكتشف رؤساؤه أمر هذه العلاقة، فما كان يمكن أن يؤدّي ذلك إلى فرض أيّ عقوبات شديدة عليه. إذن ما الذي كان يحدث بالضبط لهذا المسؤول الكبير في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB؟ وما هي الضغوط الشديدة التي كان يتعرّض لها؟

حتّى تلك اللحظة، لم يكن المسؤولون في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يملكون الإجابة، ولكنّهم عقدوا النيّة على وضع فيتروف تحت مراقبة وثيقة. واتُّهم

بالقتل وحُكم عليه بالسجن لمدّة ١٢ عامًا. وأدّت المراقبة الوثيقة التي فرضها جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB على حركاته وأفعاله داخل السجن، بالإضافة إلى فتح وقراءة رسائله البريديّة، إلى ظهور دليل في نهاية الأمر. وفي إحدى رسائله التي بعث بها إلى زوجته، ألمح فلاديمير فيتروف إلى أنّ قضيّة القتل حملته على التخلّي عن "أمر كبير".

عندئذ، بدأت دائرة مكافحة التجسّس التابعة لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB العمل في قضيّة فيتروف. ومن غير المعروف ما إذا كان تعرّض لأعمال التعذيب. ولكنّ النتيجة كانت عبارة عن وثيقة كتبها فيتروف بخطّ يده تحت عنوان: "إعترافات خائن". هذه الوثيقة تسبّبت في حدوث صدمة قاتلة في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، ذلك أنّ فيتروف كشف النقاب عن أنّه كان جاسوسًا يعمل في الظلام لحساب الاستخبارات الفرنسيّة منذ عدّة سنوات. والأسوأ من هذا، أنّه أفشى سرًّا من أعظم أسرار جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وهو إفشاء لم يتخلّص جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وكذلك الاتّحاد السوفياتي، من نتائجه.

كانت الصدمة الأولى هي أنّ فيتروف، الذي كان يُعتبر واحدًا من أشدّ المخلصين في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB قام بإفشاء أسرار بلاده. ومن واقع كونه واحدًا من ألمع المهندسين، قام جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بتجنيده بعد انتهائه من دراسته الجامعيّة. وعُهدت إليه مهمّة وضع القواعد الأساسيّة لواحدة من أشدّ الوحدات سريّة في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وهي الوحدة المعروفة باسم "الخطّ إكس"، ورسالتها المعلنة لم تكن تقلّ عن إنقاذ الاتّحاد السوفياتيّ.

مع حلول العام ١٩٦٤، حينما وضعت القواعد الأساسيّة لوحدة "الخط إكس"، كان المسؤولون في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB وأعضاء المكتب السياسيّ في

الكرملين يعرفون جيّدًا أنّهم الخاسرون في الحرب الباردة مع الغرب. وكانت المشكلة هي التكنولوجيا: النظام السوفياتي الضعيف متخلّف أكثر فأكثر عن ركب الغرب في كلّ من التكنولوجيا والعلوم، وعلى الأخصّ التكنولوجيا العسكريّة، وقد أبلغ خبراء الكومبيوتر السوفيات المكتب السياسيّ أنّ التكنولوجيا السوفياتيّة متخلّفة بحوالى ٣٠ عامًا عن الولايات المتّحدة الأميركيّة، وهي فجوة آخذة في الاتّساع في كلّ لحظة... وكانت النتيجة النهائيّة حتميّة: الاتّحاد السوفياتيّ سوف يتخلّف عن الركب كثيرًا، والتكنولوجيا الغربيّة المتفوّقة سوف تملك اليد الطولى وربّما تحوّل الاتّحاد السوفياتيّ إلى نمر من ورق.

في ظلّ وجود اقتصاد سوفياتيّ ضعيف، ووجود حتّى قاعدة صناعيّة عسكريّة أضعف، لم يكن هناك أدنى أمل بإماكانيّة قيام السوفيات باللحاق بركب التقدّم، حتّى من خلال تطبيق برنامج شامل وعاجل. وكان الحلّ هو إعادة توجيه الاستخبارات السوفياتيّة نحو هدف واحد وهو سرقة كلّ قطعة من تكنولوجيا غربيّة تقع بين أيديهم. وكان ينبغي أن يقوم الخطذ إكس، من خلال موقعه في مقدّمة هذا التوجّه الجديد، بتجنيد جيش جديد من عملاء الاستخبارات، من الفنيّين، والمهندسين والعلماء، الذين يعرفون ما يبحثون عنه وكيفيّة الحصول عليه.

نجحت عمليّة الخطّ إكس على نحو لافت للنظر. وفي غضون عام، سرق جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB أكثر من ٥٠٠ قطعة ممّا اعتُبر على نحو متفائل "عيّنات صناعيّة"، من الولايات المتّحدة والبلدان الغربيّة الأخرى. وشعر الخبراء العسكريّون الغربيّون بالذهول تجاه السرعة التي تمكّن السوفيات من خلالها من الحصول على أكثر التكنولوجيا تطوّرًا واستخدامها العاجل في صناعتهم الخاصّة بهم. وكلّ ما لم يتمكّن أعضاء الخطّ إكس والرفاق المساعدون في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU

من سرقته، قاموا بشرائه، وأصبحت وكالات الاستخبارات الغربيّة شيئًا فشيئًا عارفة بالعمليّة الهائلة لنقل التكنولوجيا: شبكات من شركات وهميّة لنقل التكنولوجيا المتطوّرة المحظورة من التصدير إلى الكتلة الشرقيّة، وعمليّات مدروسة لرشوة المهندسين والعلماء مقابل إفشاء أسرار برامج العمل، وأعمال تسلّل إلى الوكالات لتسهيل نقل التكنولوجيا المتطوّرة.

ومع هذا ففي غمرة هذا النجاح الواضح، بدأ فيتروف في إفساح المجال أمام شكوكه الخاصّة به. ومع أنّه أحد أبناء الطبقة العليا، فهو أبدى اهتمامًا شديدًا بالمواطن السوفياتيّ العاديّ. وكان يعقد الأمل دائمًا على أنّ التقدّم التكنولوجيّ يمكن أن يؤدّي في غاية الأمر إلى تحسين حياة الشعب الروسيّ، ولكن برغم دوران محطّات الفضاء السوفياتيّة حول الأرض وتعاظم البناء العسكريّ السوفياتيّ الهائل، فهو رأى أنّ الشعب لا يشاطر الدولة هذا التقدّم. وكان الاتّحاد السوفياتيّ، الواقع تحت تأثير هاجس القوّة العسكريّة، يستخدم كلّ موارده في تكديس الأسلحة. وبينما كان يقوم بتحريك الصواريخ السوفياتيّة الضخمة على دواليب في عيد العمّال أمام مبنى الكرملين في استعراض عسكريّ، فإنّ الناس كانوا يقفون في طوابير لمدّة ساعات لشراء رغيف الخبز...

أبقى فيتروف هذه الشكوك لنفسه، ولكن في العام ١٩٦٥، حينما تقرّر إرساله إلى باريس للإشراف على عمليّات الخطّ إكس في أوروبّا الغربيّة، بدأ في التفكير مليًّا في ذلك التناقض القائم بين مستوى حياة المواطن الفرنسيّ العاديّ والمواطن السوفياتيّ في بلده. وحتّى العائلة الفرنسيّة الأشدّ فقرًا، كما عرف فيتروف، كانت تعيش حياة لم تكن تخطر على بال أهل بلده في الخيال. وتعاظمت شكوكه... وأصبحت الاستخبارات الفرنسيّة عارفة بهذه الشكوك من خلال واقعة غريبة برهنت على كونها ذات دلالة هامّة...

كان فيتروف ذات يوم تورّط في حادث سيّارة خطير... ولم يُصب بأذى، ولكنّ سيّارة الرجل الفرنسيّ لحقت بها أضرار ماديّة جسيمة. وعرض الرجل الفرنسيّ التعويض عن الأضرار، وتعهّد بإجراء التصليحات، وعقد مع فيتروف الشاكر صداقة، وبدأ الروسيّ في التحدّث صراحة عن شكوكه.

ما لم يكن فيتروف يعرف في ذلك الوقت هو أنّ الرجل الفرنسيّ، الذي افترض فيتروف أنّه رجل أعمال، كان أيضًا جاسوسًا نافعًا في وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST، وعرفت وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة أنّ فيتروف لم يكن مجرّد دبلوماسيّ متدنّي المرتبة كما زعم، لذلك فإنّ المسألة اتّصلت بكيفيّة استغلال مشاعر السخط عنده. وقرّر المسؤولون في وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST الشروع بحذر شديد، ذلك أنّ مراقبتهم لأنشطة فيتروف أقنعتهم بأنّه مسؤول رفيع المرتبة في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وربّما كان معنيًّا بعمليّات سرقة التكنولوجيا.

وحينما عرفت وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST ذلك يقينًا، كانت فرنسا في ذلك الوقت تنزف أسرارها التكنولوجيّة الحيويّة إلى ناحية الشرق، ولذلك فإنّ تجنيد فيتروف ربّما كان يعمل على تعطيل حركة ذلك التدفّق...

سنة ١٩٧٠، حين انتهاء مهمّته في العمل في فرنسا، جرى استدعاء فيتروف إلى موسكو للعمل في مقرّ ثيادة جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وأبقى صديقه "رجل الأعمال" الفرنسيّ على اتّصالات وديّة معه، ولكنّه لم يحاول تجنيده على نحو مباشر، مكتفيًا بإقناعه بطريقة مهذّبة بأنّ لديه صديقًا في فرنسا موجودًا في كلّ لحظة لتقديم المساعدة. وحقّق صبر وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST أغراضه سنة ١٩٨٠، حينما كتب فيتروف رسالة مصاغة بحذر شديد إلى صديقه الفرنسيّ، مبديًا رغبة شديدة في عقد اجتماع عاجل، في موسكو...

...وهكذا، قام فيتروف بخطوته في غاية الأمر. وأكّدت اجتماعات لاحقة في موسكو افتراض وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST: فيتروف قال إنّه يمكن أن يكون جاسوسًا يعمل في الظلام داخل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وفي الاجتماعات اللاحقة، تحت جدران الكرملين مباشرة، قام فيتروف بتسليم نسخ من وثائق بالغة السريّة إلى الفرنسيّ، وكلّها مختومة بالتحذير الخطير: "نسخة مصوّرة محظورة".

كشفت الوثائق النقاب عن كلّ ما هو ضروريّ لمعرفة عمليّات الاستخبارات السوفياتيّة لسرقة التكنولوجيا. وفي ذلك الوقت، كان فيتروف، المسؤول الكبير في الدائرة T، وهي دائرة التجسّس التكنولوجي التابعة لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، يملك فكرة شاملة عن طبيعة البرنامج برمّته. ومن واقع شعورهم بالقلق من أنّ الوقت الذي يستغرقه فيتروف بالقرب من ماكينات تصوير الوثائق في مكتب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يمكن أن يثير الشكوك من حوله، فإنّ المسؤولين في وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST قاموا بإعطائه كاميرا خاصّة ذات سرعة عالية بحيث تسمح له بتصوير كلّ ملفّات الوثائق في الخزائن.

شرائط الكاسيت المصوّرة التي قام بتصويرها فيتروف وبتسليمها إلى ضابط الاتّصال الفرنسي، وهو مسؤول في وكالة مكافحة التجسّس الفرنسيّة DST، يعمل تحت غطاء ملحق عسكريّ في السفارة الفرنسيّة، تلك الشرائط، قَدّمت للفرنسيّين ولأجهزة الاستخبارات الغربيّة الأخرى التي دُعيت للمشاركة في هذا الكنز الكبير، فائدة مزدوجة: شرائط الكاسيت المصوّرة لم تكشف فقط عمّا كانت موسكو تبحث عنه في مجال التكنولوجيا، بل وكشفت أيضًا عن ماهيّة المجالات العسكريّة السوفياتيّة الأشدّ افتقارًا للتكنولوجيا المتطوّرة. وبالإضافة إلى ذلك، جرى الكشف عن أسماء حوالى

٣٠٠ شخص من عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB ووكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU من المعنيّين بعمليّات سرقة التكنولوجيا، علاوة على دلائل تشير إلى هويّات أكثر من ١٠٠ جاسوس نافع ساعدوا في تسهيل هذه العمليّات.

بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، فإنّ هذا كان بمثابة كارثة إستخباراتيّة من الدرجة الأولى. وكان يمكن أن تكون هذه الكارثة أشدّ من ذلك لولا أنّ فيتروف، الذي أوشك على الانهيار مع حلول العام ١٩٨٢، بسبب مصاعب حياته المزدوجة، ارتكب عمليّة القتل في موقف السيّارات...

وعلاوة على ذلك، فحالما عرف الفرنسيّون أنّه جرى إلقاء القبض على فيتروف، اتّخذوا مع حلفائهم الغربيّين قرارًا بتجميع أعضاء الخطّ إكس، وهم ٤٧ عميلاً في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، يعملون تحت غطاء دبلوماسيّ، وطردهم من فرنسا، وطُرد ١٥٠ عميلاً آخر من بلدان أخرى... وسارع جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB إلى سحب ٢٠٠ عميل آخر قبل إلقاء القبض عليهم أو طردهم... وجرى إلقاء القبض على عدد من الجواسيس النافعين...

بذلك، فإنّ عمليّات الخطّ إكس انهارت على نحو فعليّ، تاركة الاتّحاد السوفياتيّ أشدّ قابليّة للتعرّض للأخطاء في وقت بدأ فيه البناء العسكريّ الأميركيّ في التعاظم في عهد إدارة ريغن. والسوفيات، الذين اضطرّوا على نحو موقّت إلى الاعتماد على مواردهم الخاصّة بهم، لم يلحقوا بركب التقدّم التكنولوجي، وهذه الجهود حطّمت الاقتصاد السوفياتيّ، وكانت من بين الأسباب الرئيسيّة التي أدّت إلى انهيار الاتّحاد السوفياتيّ بعد عدّة سنوات.

وفي ما يتعلّق بمصير فيتروف، فمن الممكن فقط تصوّر مدى غضب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB عليه، ولم يحدث منذ "أوليغ بنكوفسكي" أن أدّت أفعال

جاسوس يعمل في الظلام لحساب الغرب إلى مثل هذه الأضرار البالغة. وفي بادئ الأمر، وضع جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB خططًا لتقديم فيتروف إلى المحاكمة، والفكرة من وراء ذلك هي أنّ استعراضًا علنيًا لأسلوب حياته الذي اتّسم بالفساد الأخلاقي، إذ يمكن توجيه اللوم إليه بسبب انغماسه في حياة الفسوق في الغرب خلال مهمّته في فرنسا... يمكن أن يشكّل درسًا في علم حقوق المواطنين وواجباتهم... ولكن أيًّا كانت التهديدات التي تعرّض لها، فإنّ فيتروف لم يكن يملك النيّة للمشاركة في أيّ محاكمة... حتّى ولو كان جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB يريد حقًّا إجراء محاكمة له، فهو أوضح أنّه سوف يستخدمها كمنتدى حول مجالات فشل الزعامة السوفياتيّة... وأوضح أيضًا أنّه على استعداد لتوجيه اتّهام إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB الذي قال عنه إنّه خاضع لهيمنة "الإدمان على المسكرات والفساد ومحاباة الأقارب". ومن خلال محاولة لتأكيد اعتزامه عدم القيام بدور الخائن التائب، أصرّ على إضافة هذه العبارة إلى اعترافه: "أسفي الوحيد هو أنّني لم أتمكّن من التسبّب في المزيد من الأضرار للاتّحاد السوفياتيّ والمزيد من الخدمات لفرنسا".

ومن واقع تعاظم يأسه، اتّخذ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB قرارًا نهائيًّا، وهكذا أخرج صاحب الإسم الرمزي المثير للمشاعر "وداعًا" من زنزانته في صباح أحد أيّام ربيع سنة ١٩٨٣، وأُعدم رميًا بالرصاص[١]...

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ص٨١ ـ ٨٨.

لغز اختفاء الجاسوس الأميركي جون آرثر بيزلي

إنشقّ بعد ظهر يوم الرابع والعشرين من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٨ عن ضوء لامع وبريق لصيف هنديّ ضمن كوّة "شيزابيك" حيث ارتطم مركب شراعي وحيد الصاري (سلوب) يبلغ طوله تسعة أمتار بالأمواج. إنّه ذاك المركب المسمّى "بريلينغ"، والعائد إلى "ليفايس كارول"، وهو المركب الذي سيصبح مسرحًا لأحداث واضطرابات، ومستحقًّا لاسم القصيدة الشعريّة التي يحمل إسمها...

ها هو رجل يبلغ من العمر الخامسة والخمسين، يقف على الشاطئ، وتتوضّح ملامحه برأسه الأصلع وذقنه المزيّنة بلحية بيضاء كثيفة ووجهه الضاحك. يبدو أنّ لدى هذا الرجل رغبة في البقاء داخل البحر لوقت آخر. فقد اهتمّ، قبل مغادرة الشاطئ، بالسؤال عن إمكانيّة ترك أضواء الجسور الملاحيّة العائمة مضاءة، وذلك كي يتمكّن من الدخول إلى البحر بمركبه مع حلول المساء للقيام برحلة بحريّة، دون إحداث أيّ أضرار. وفجأة تلقّى الرجل رسالة عبر اللاسلكي، في الساعة الخامسة من بعد الظهر، طرح عليه فيها أحد أصدقائه سؤالاً حول الهدف من رحلته البحريّة هذه. فأجابه قائلاً: "رسيت بالقرب من منارة هوبر، وسأدخل الميناء، لا تنتظرني أبدًا".

كان الصندوق الصغير الموجود بقربه يحتوي على دفتر صغير مليء بالعناوين وعلى مجموعة من الوثائق.

ما لبث الرجل أن راح يطّلع بهدوء وتروّ على الملفّات الممهورة بخاتم "شديد السريّة"، وعلى تقارير على رؤوس صفحاتها النسر الأميركيّ تبرز عنه ثلاثة أحرف هي CIA.

كان البعض من هذه الملفّات عبارة عن تقارير تحليليّة تتحدّث عن القوّة العسكريّة السوفياتيّة.

كان "جون آرثر" يُعتبر بمثابة موظّف كبير في المخابرات الأميركيّة المركزيّة CIA، يقوم بتنظيم عمل محطّة إرسال لاسلكيّة مميّزة جدًّا، ومخصّصة لأعمال وكالة الـ CIA فقط، وقابلة لربط هذه المحطّة مباشرة، ومن خلال خليّة صناعيّة، مثبّتة في المقرّ العام للوكالة في "لانغلي"، داخل ضواحي واشنطن، مع أيّ محطّة تابعة للـ CIA في العالم. إنّه الجهاز المسمّى "المفجّر المرسل المستقبل"، الذي بإمكانه استقبال عشرات الآلاف من الإشارات الإلكترونيّة أو الكلمات في الدقيقة الواحدة، وعلى تردّد اهتزاز معيّن.

كانت أجهزة "المفجّرات المرسلة المستقبلة" مخصّصة حصرًا لاستعمال وكالتي الـCIA والـNSA، إذ كان بإمكانها استقبال الإرسالات الآتية من أقمار المراقبة الصناعيّة وفكّ رموزها، وإتاحة المجال أيضًا للدخول إلى كومبيوتر وكالة الـ CIA المركزي والمسمّى "أوكتوبوس Octopus، ومعنى الإسم "الأخطبوط" في لغة الوكالة الدارجة.

هذا ويبدو أنّ على سفينة الـ Brilling أن تكون مزوّدة بنظام تلغراف ذي سرعة عالية وبمجموعة من السمّاعات الهاتفيّة الشديدة التعقيد، وبإمكان المحطّة التي على متن أحد هذه المراكب أن تستقبل الصور الخاصّة جدًّا الملتقطة في "بيسلي" من قبل أقمار التجسّس الصناعيّة من طراز KH-11... هذا ما جاء على لسان بعض الخبراء

هناك. وما زال الأمر مجهولاً حول إمكانيّة ربط هذا النظام في الاتّصال مع لانغلي نفسها. في حين يبدو أنّ كلّ شيء يشير، حسب رأي شهود عيان يشاهدون مرور الـBrilling من بعيد، إلى أنّ بيسلي ينتظر دخوله إلى البحر. وربّما يعتمد هذا الأمر، دون شكّ، على ظهور بعض الملفّات التي لم يكن لبيسلي الوقت الكافي لدراستها في مكتبه...

هذا ويظهر من على الأرض، سير السفينة عبر البحر دون أيّ مصاعب. كان هذا هو الظهور الجماهيري الأخير للجاسوس المدعو "جون آرثر بيسلي"، وظهوره على الأقلّ بهذه البطاقة الشخصيّة أو بهذا الإسم.

ثمّ ها هو زورق صيد يعترض طريق سفينة الـ Brilling بعد مرور يومين فقط. في حين لم يكن هناك على متن الزورق الأحادي الصواري (سلوب) الموجود في عرض البحر، أيّ كائن حيّ، ذاك الزورق الذي اعترضه خفر السواحل بحذر، ليكتشفوا وثائق شديدة السريّة إضافة إلى جهاز الإرسال الشديد التعقيد، الخاصّ ببيسلي.

بقيت السفينة راسية على الشاطئ ومهملة لفترة غير محدّدة... حيث اكتُشف عدم دخول أحد إليها، وعدم العبث بأيّ من آليّاتها، لدرجة أنّه لم يكشف النقاب عن وجود أيّ أثر يتيح المجال لتخيّل حدوث صدام بين الزورقين... هذا وقام خفر السواحل مباشرة بتنبيه وكالة المخابرات المركزيّة CIA، وذلك بعد اطلاعهم على وثائق تحقيق الوكالة، التي عجّلت في إرسال جنود مكتب الأمن بهدف "تدبير الأمور". ولكن لاحظ رجال شرطة ولاية "ماريلاند" المكلّفين بإجراء التحقيق حول سرّ سفينة "سلوب"، بعد مرور فترة من الزمن، قيام عملاء الـ CIA بأخذ كلّ ما في المركب مباشرة، إضافة إلى سلب شقّة بيسلي أيضًا، لدرجة أنّهم سرقوا حتّى المحطّة المكبّرة الخاصّة به.

وهكذا فقد ساهموا في إخفاء جميع العناصر التي يمكنها أن تعطي توضيحًا أو تفسيرًا حول سفينة الـ Brilling.

بعد مرور زمن قصير، لفظت مياه البحر جثّة منتفخة بالمياه على الشاطئ، ملوّثة بالدماء، ومزوّدة بحزامَي غوص يبلغ ثقلهما ١٣ كلغ، أصيبت، حسب ما جاء في تقرير الطبيب الشرعيّ، برصاصة من عيار ٩ ملم، اخترقت الجمجمة من خلف الأذن اليسرى. لكن لم يكن هناك أدنى شكّ، لدى كلّ من رجال شرطة ولاية ماريلاند والـFBI والـCIA في أنّ هذه الجثّة تعود لجون آرثر بيسلي.

بدأت السلطات الرسميّة تحاول وضع يدها على هذه القضيّة، وذلك بحجّة أنّ جون آرثر بيسلي لم يكن مخبرًا بسيطًا في وكالة المخابرات المركزيّة CIA، وأنّه انتحر غرقًا في مياه البحر لعدم تمكّنه من احتمال مشكلة طلاقه من زوجته "ماريان". وهكذا تمّ إقفال ملفّ القضيّة بالنسبة للمحكمة.

كانت ماريان مطلّقة جون آرثر بيسلي هي أوّل من لاحظ أكاذيب الـ CIA وتنبّه لها، إذ إنّها كانت هي نفسها عميلة سابقة في الوكالة، وهي تعلم جيّدًا أنّ زوجها السابق لم يكن بالمخبر البسيط الذي تحدّثت عنه السلطات، كما أدركت أنّ هذا ليس هو الشواذ الوحيد في هذه القضيّة.

إتّضح أنّ الجثّة لم تكن طبيعيّة وبحالة جيّدة، إذ إنّ قياسات أعضاء الجثّة الغارقة لا تمتّ لشخص بيسلي بأيّ صلة... ذلك أنّ وزن الجثّة وطولها يبلغ أقلّ بكثير من وزنه وطوله! ولكن لن يبعث الأمر على الدهشة عند العلم بأنّ مايو السباحة الذي كان يرتديه الغريق أصغر حجمًا نسبيًّا من حجم بيسلي بمرّتين. إضافة إلى أنّ البحر قد ألقى بجثّة مرداء وملوّثة بأكملها بالدماء، ممّا يؤدّي إلى صعوبة التعرّف على صاحبها. هذا وقد قرّر رجال الشرطة بتر كفّي الجثّة لإرسالها إلى الـ FBI حيث تتمركز

البطاقات التقنيّة لعملاء الـ CIA. أمّا السبب في هذا البتر فيعود إلى عدم تمكّنهم من رفع بصمات الجثّة، إذ كان الجلد يتمزّق عند كلّ محاولة، مع ذلك يبدو أنّه لم تكن هناك أيّ فائدة ترجى لا من بصمة الإصبع ولا حتّى من بصمة الأسنان، إذ ادّعت الـFBI إضاعتها. وهذه هي الحجّة بالنسبة للاستخبارات...

مهما يكن الأمر، فقد نسبت هذه الجثّة إلى جون آرثر بيسلي... ترى من قبل من تمّ هذا التعريف؟

في الحقيقة لا ندري... ما زال الأمر سرًّا غامضًا... في حين ظلّت ماريان مطلّقة بيسلي، تعتقد لمدّة طويلة أنّ هناك واحدًا من أصدقاء بيسلي برتبة كولونيل، هو الذي تعرّف على الجثّة. كما تُرك الأمر للكولونيل ليعتقد هو أيضًا بأنّ مطلّقة بيسلي هي التي تعرّفت على الجثّة...

فات الأوان بعد زمن على ترتيب أمر سوء التفاهم ذاك... إذ تمّ إرسال الجثّة المنسوبة إلى بيسلي إلى مؤسّسة خاصّة بالأمور الجنائزيّة، اختارتها وكالة المخابرات المركزيّة CIA وكلّفتها بحرق الجثّة وتحويلها إلى رماد في إطار من السريّة التامّة. ولم يتمكّن أيّ فرد من أفراد العائلة من رؤية الجثّة قبل الدفن، وذلك بأمر من الطبيب الشرعي وبحجّة الحفاظ على مشاعر المقرّبين منه إذ قد تؤدّي رؤيته إلى الإصابة بالصدمة نتيجة الشكل المؤذي للجثّة.

أمّا الأمر الملفت للنظر، في كلّ هذه القضيّة، فهو إصرار المخابرات المركزيّة CIA على زرع الاعتقاد بأنّ عمليّة الغرق كانت إنتحارًا. هذا ما لاحظه وأشار إليه محامي ماريان بيسلي السيّد "برنارد فينيسترוولد"، حيث ذكر في مرافعته "إثقال الجثّة وربطها بحزامي الغوص، لتغوص في المياه قبل إطلاق الرصاص على الرأس فيها، وهذا ما لا يُعتبر على الأقلّ حالة من الانتحار".

أمّا الأمر الغريب الآخر فيكمن في بذلهم جهدًا كبيرًا للإيهام بأنّ بيسلي، الذي هو يمينيّ اليد، قد أطلق الرصاص على رأسه، في الوقت الذي اخترقت فيه الرصاصة القاتلة جمجمته من اليسار، وما يثر الاضطراب والشكّ بصورة أكبر، هو عدم إخراج الرصاصة من الدماغ، ليستروا بذلك أنّه تمّ إطلاقها من على مسافة تزيد عن المتر.

تكمن حقيقة الأمر في عدم عثور رجال الشرطة على أيّ أثر لدم أو لحم أو حتّى لبودرة على متن سفينة الـ Brilling ، أو أيّ أثر من شأنه أن يؤكّد على حقيقة هذه الجريمة. هذا وقد قُتل الرجل الذي أرادت المخابرات المركزيّة CIA منه أن يعمل لصالح جون آرثر بيسلي بأيّ ثمن كان، وقد تمّ قتل هذا الرجل إمّا على سطح الأرض أو على متن مركب آخر، وقبل إثقاله بربط حزامي الغوص ورميه على حافّة مضيق "شيز ابيك".

تُعتبر حياة جون آرثر بيسلي غريبة كغرابة "موته الرسميّ". إذ ظلّ بيسلي رجلاً معتادًا على البقاء في الظلّ، حيث انضمّ وهو في الثانية والعشرين من عمره إلى الوكالة السابقة للـ CIA، التي كانت عاملة خلال الحرب العالميّة الثانية، وهي وكالة OSS. وما أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره حتّى اشتغل كعامل لاسلكي في مهمّة سلام الأمم المتّحدة في فلسطين، وفي العام ١٩٤٨، لقي رئيسه الكونت "برنادوت" مصرعه اغتيالاً في فلسطين.

بدأ بيسلي عندئذ بالتعرّف على رجل سيلاحظه ويقدّره حقّ قدره، إنّه "جيمس جيزوس أنغيلتون"، الذي كان يعمل آنذاك على توطيد العلاقات بين المخابرات الأميركيّة السريّة ودولة إسرائيل الجديدة المقامة على أرض فلسطين. ثمّ انتقل أنغيلتون هذا ليصبح رئيسًا لمقاومة الجاسوسيّة CIA، ثمّ اهتمّ، وهو في هذا المنصب، بمراقبة الجواسيس والمنشقّين عن حكوماتهم. وما إن جاء العام ١٩٧٤، حتّى ترك بيسلي وكالة

المخابرات المركزيّة CIA، بعد أن ارتقى في هيكليّتها درجة تلو الأخرى سلّم عالم المخابرات الأميركيّة. ولكن هذا لا يعني تخلّي بيسلي التام عن مضمار العمل كعميل سرّي، فلقد كان ذلك مجرّد تغيير ظاهريّ في المناصب... إذ ها هو بيسلي يعمل بعد ذلك التاريخ كمستشار للـ CIA لصالح شركة "كوبر ليبراند" التي كانت تدفع له ٢٠٠ دولار يوميًا، تلك الشركة التي تُعتبر شركة استشاريّة حسابيّة مقرّبة من الـ CIA... وكان من بين المتعاملين معها شركة الطيران الأميركيّة "إير أميركا" التي ملأت شهرتها الآفاق على أنّها كانت واحدة من شركات النقل الجوّي التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة CIA خلال حرب فيتنام.

يمكن القول إنّ سر غموض اختفاء بيسلي ربّما يكمن في العودة إلى ماضيه... حيث بالإمكان التساؤل عمّا إذا كان قد "أُعدم" بسبب طاقاته التقنيّة. إذ قام بيسلي بلعب دور هامّ وأساسيّ في تطوير مبادئ الأنظمة التي أوجدتها وكالات التجسّس الأميركيّة بدءًا من طائرة التجسّس ذات الطراز U-2 وانتهاء بالأقمار الصناعيّة التجسّسيّة الشديدة السريّة KH-11 مرورًا بطائرة التجسّس SR-71 المسمّاة Black Bird... وتكمن حقيقة الأمر في تعامل بيسلي مع مجموعة "عمّال الرصاص" الخاصّة بفضيحة "ووتر غيت"، هذا التعامل الذي دفع إلى التفكير بأنّ اختفاء بيسلي مرتبط بتلك الفضيحة، في حين أنّه قام في الواقع بلعب دور هام ضمن مسار هذه القضيّة، وذلك باعتبار أنّه كان يزوّد مجموعة "عمّال الرصاص" بما تحتاج إليه من معلومات، إضافة إلى تكليفه في بعض الأحيان، بالكشف عمّا يتسرّب إلى الصحف من معلومات.

ولكن لم يكن هذا يكفي بطبيعة الحال لتفسير الغموض المصاحب لـ"موته" المزعوم، حتّى ولو ذهب بعض الشائعات بعد إعلان نبإ وفاته إلى الادّعاء بأنّ جون آرثر بيسلي هو نفسه الرجل الغامض "ديب ثرووت" الذي استُخدم كمخبر

للصحافيّين في كلّ من صحيفة "واشنطن بوست" وصحيفة "وود ورد" وصحيفة "بيرنشتاين".

هذا وقد ارتبط إسم بيسلي أيضًا بواحة من أخطر القضايا المتعلّقة بالـ CIA، ألا وهي تلك الخاصّة ببنك "نوغان هاند" الأسترالي، علمًا بأنّ هذا البنك قد قام بالإشراف على عدد من الصفقات التجاريّة السريّة التي تنظّمها هذه المؤسّسة الماليّة ذات النوعيّة الخاصّة، وقد عُرف، في ما بعد، بتقدّم بيسلي قبل مرور عدّة أيّام على اختفائه، بطلب مباشر إلى مستشار بنك "نوغان هاند" للعمل معه في شركة "كوبر وليبراند". ولكن يبدو، رغم كلّ ذلك، عدم ارتباط الغموض الكامن وراء بيسلي ببنك "نوغان هاند"، بصورة مباشرة؛ إذ كانت جميع الأمور ما تزال تسير نحو الأفضل بالنسبة لمدراء البنوك غير المستقيمين ولتجّار الأسلحة والمخدّرات التابعين للـCIA، وهذا يعني أنّ الفضيحة لم تكن قد انتشرت بعد في أستراليا.

وهكذا، بدأت الأحداث مع بداية الثمانينات بالتلاحق وراء بعضها البعض، دون إدراك السبب في هذا التوالي... حيث قام سارقون غير معروفين بزيارة مكان إقامة ماريان بيسلي ومغادرته من دون سرقة أو حمل أيّ شيء معهم... كانوا يتركون فقط آثارًا واضحة تدلّ على مرورهم من هذا المكان... لدرجة أنّ راود مطلّقة بيسلي شعور بأنّ هاتفها كان مراقبًا إضافة إلى مراقبة أقلّ حركة تقوم بها...

ثمّ ها هي عائلة بيسلي بأكملها، تتلقّى، بعد مدّة قصيرة، بطاقات بريديّة مرسلة من جهات العالم الأربع، الكتابة عليها ليست حتمًا بخطّ العزيز المختفي، ولكنّها موقّعة باسم مصغّر غريب بعض الشيء.

أمّا ما يثير القلق أكثر فأكثر، فهو اكتشاف رجال الشرطة، في خلال شهر نيسان ـ إبريل ١٩٨٠ لجثّة صديق "بيسلي" "رالف مادين"، حيث ظهرت آثار لكمات متوالية

على جثّة هذا الرجل الذي ظلّ يعمل لسنوات عديدة مع بيسلي كعميل للمخابرات المركزيّة CIA، وخاصّة في نطاق العمليّات الخاصّة بالتجسّس الإلكتروني...

أهو توافق عاديّ؟... لكن ليست هي حقيقة الأمر.

ثمّ ها هي "إيرين ياسكوفيتش" تلاقي حتفها من خلال رصاصة أطلقت عليها من بندقيّة قنّاص من الخارج وهي جالسة تكتب على آلتها الطابعة بالقرب من نافذة منزلها...

لن يكون في الأمر غرابة عند معرفة أنّ إيرين ياسكوفيتش كانت واحدة من المقرّبات جدًّا من بيسلي والمتعاملات معه. لذا اعتُبر مقتلها أوّل مرحلة جديدة بإمكانها أن تتيح المجال لحلّ لغز اختفاء هذا العميل السرّي.

لقد كانت السوفياتيّة إيرين ياسكوفيتش تعمل مع بيسلي كناسخة في أغلب الأحيان للوثائق الشديدة السريّة والدقّة.

إنّ بالامكان اعتبار أنّ جون آرثر بيسلي هو الأخصّائي الأساسيّ في الـ CIA بموضوع التسلّح النوويّ السوفياتي، حيث كان بيسلي منذ عام ١٩٧٦ واحدًا من مجموعة خبراء خاصّة مكلّفة بتحديد السياسة الأميركيّة في مراقبة التسلّح النوويّ الاستراتيجي في إطار مناقشات ومباحثات "سالت Salt"، وذلك باعتباره خبيرًا لا ينافس في مادّة الأسلحة النوويّة، والحواسب والأقمار الصناعيّة. وقد أُطلق على هذه المجموعة من الخبراء إسم "مجموعة ب"، وكانت مهمّتها تقدير القدرات العسكريّة الخاصّة بالاتّحاد السوفياتي، بغية مقارنتها مع تقديرات لجنة من الخبراء تابعة للـ CIA، وهي المسمّاة "مجموعة أ". وكان بيسلي يعمل أيضًا كعميل وسيط بين المجموعتين "أ" و"ب". وبذلك يبدو اختفاء بيسلي بمثابة كارثة حقيقيّة لسياسة الردع

الأميركيّة إذ لم تتوصّل إدارة الرئيس كارتر، حسب ما ورد على لسان سيناتور أميركي، إلى الحصول على تصديق معاهدات "سالت" من قبَل الكونغرس، والسبب هو أنّ اختفاء بيسلي أدّى إلى تعريض وسائل وطرق مراجعة الاتّفاق لخطر الحدّ من الاسلحة الاستراتيجيّة...

هنا فقط تظهر يد المخابرات السوفياتيّة KGB وراء الغموض المرافق لحادثة مضيق شيزابيك... وبالتالي لم يعد هناك إلاّ خطوة واحدة للوصول إلى حقيقة الأمر، ولكن قد يكون من المفروض الاحتفاظ بها في حال كون الـ KGB من المؤيّدين والمناصرين لهذه القضيّة المروّعة، ولو لغاية واحدة، فلن يكون لهذا الأمر حتمًا أيّ علاقة مباشرة باتّفاقيّات "سالت".

هكذا توصّلتِ ماريان بيسلي إلى قناعة تامّة بأنّ نهاية زوجها السابق مرتبطة تمامًا بقصّة لا تصدّق، ألا وهي حكاية المنشقّ السوفياتي "يوري نوسينكو"... لذا ها هي تشير ضمن رسالة موجّهة إلى رئيس المخابرات المركزيّة CIA آنذاك، الأميرال "ستانسفيلد تورنر"، إلى أنّ كبرى العناوين في الصحف كانت مخصّصة لقضيّة "نوسينكو"، وذلك قبل تسعة أيّام فقط من اكتشاف سفينة Brilling داخل مضيق شيزابيك، إذ قام جندي من الـ CIA يدعى "جون هارت" بالإدلاء بشهادته أمام لجنة من شؤون الاغتيالات تابعة للكونغرس ومكلّفة بشؤون قضايا المخابرات السريّة...

قامت السيّدة بيسلي بكتابة ما يلي:

"إنكّم تعلمون تدخّل جون بيسلي بالاستجواب الخاصّ بنوسينكو ببراعة لا توصف"... ووجّهت السيّدة بيسلي ما كتبته لتثير انتباه المستجوبين الموهمين الذين اتّبعوا خطّ سير عمل نوسينكو في الغرب، وأضافت بيسلي في رسالتها قائلة: "لقد خطر في بالي إمكانيّة كون مصير زوجي مرتبطًا بطريقة أو بأخرى، بقضيّة نوسينكو،

إذ إنّ موت أو اختفاء جون يتطابق مع العناوين الكبرى للصحف المخصّصة للحديث عن قضيّة نوسينكو في جميع أنحاء العالم".

هذا وقامت زوجة جون بيسلي بذكر إسمي اثنين من عملاء الـ CIA طلبًا لشهادتهما بهدف إثبات ودعم أقوالها... وتُعتبر "كاترين هارت" واحدة من هذين الاثنين، وهي زوجة "جون هارت" الذي سبق الحديث عنه، كما وأنّها الرئيسة السابقة لماريان بيسلي في الوكالة.

أمّا المعرفة بين بيسلي ويوري نوسينكو فقد تمّت بسبب عضويّة الأخير في قسم "الكتلة السوفياتيّة SB"، عندما بدأ نوسينكو، وهو الجندي المكلّف بالحفاظ على أمن الوفد السوفياتي خلال مباحثات نزع السلاح، بالاتّصال مع المخابرات المركزيّة CIA خلال ربيع عام ١٩٦٢. وتمّ اللقاء بينهما خلال إقامة الوفد السوفياتي في جنيف، حيث وافق نوسينكو على العمل لصالح الأميركيّين، ولكنّه اقترح عليهم في المرحلة الأولى أن يصبح عميلهم في موسكو قبل أن ينتقل للعمل في الغرب، حيث ادّعى وجود أسباب عائليّة. وهكذا غادر الوفد السوفياتي إلى موسكو مع نوسينكو، وقبل مجيء ردّ الـ CIA، اقتنع "المراقب الأوّل" لنوسينكو المدعو "بيتر باغلي"، والجندي العامل في المخابرات المركزيّة CIA والمسؤول عن العمليّة بأكملها بحسن نيّة العميل السوفياتي. حتّى أنّه تمّ استقباله في ٢٠ كانون الثاني - يناير ١٩٦٤ لدى عودته إلى جنيف، ليعاود اتّصاله مع الـ CIA، حيث استقبل هناك بذراعين مفتوحتين لدرجة أنّه أثار اهتمامهم وعاطفتهم تجاهه. بل إنّه ادّعى أنّه هو نفسه جندي المخابرات السوفياتيّة KGB المكلّف بإقامة العلاقات مع "لي هارفي أوزواد"، ذاك الذي سبق له أن اغتال الرئيس جون كينيدي قبل شهرين... وهذا ما كان نعمة حقيقيّة غير متوقّعة بالنسبة للـ CIA! والأكثر من ذلك، هو موافقة نوسينكو على

المجيء إلى الغرب، بهدف الشهادة أمام لجنة "وارن" المكلّفة بقضيّة مقتل الرئيس كينيدي...

قام نوسينكو في الرابع من شهر شباط ـ فبراير ١٩٦٤ بالطيران من قاعدة أميركيّة في جمهوريّة ألمانيا الاتّحاديّة، متوجّهًا إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. وبذلك بدأت الأمور تفسد. إذ لم يكن تصريح نوسينكو حول العلاقات بين "أوزولد والـKGB يتعلّق أبدًا بالفكرة التي نتج عنها وضع رئيس مقاومة التجسّس في الـ CIA جيمس أنغلتون...

كانت المخابرات السوفياتيّة KGB تعتبر، حسب ما ورد على لسان يوري نوسينكو، أنّ لي هارفي أوزولد لم يكن إلاّ لاعبًا لاهيًا، عمل ما بوسعه ليتملّص من جميع التزاماته. إذ من المعلوم هبوب رياح الرعب والخوف في الـ KGB مباشرة بعد قتل أوزولد لكينيدي، كما وُضع نوسينكو رهن التحقيق، وذلك بسبب علاقته مع القاتل. ولكنّنا نجد من غير المفيد القول بأنّ التفسير الذي أدلى به نوسينكو لم يكن يسير مع تحليلات "جيمس أنغلتون" وحلفائه في الـ CIA حول هذه القضيّة إذ كانت المهمّة الأولى الموكلة لخدمة الاستخبارات في مجابهة رجل منشقّ، هي تقدير مدى إخلاصه وصدقه، وهو ما كان بعيد الوضوح والإثبات. في حين كان هناك منشقّ مزوّر بإمكانه أن يدلي بالمعلومات السريّة التي تتيح المجال لتحديد هويّة بعض من زملائه السابقين، وذلك بهدف إثبات صحّة صدقه وإخلاصه، ليصل، في ما بعد، إلى الاستسلام للقيام بنشاطات غاية في الشؤم.

كان بإمكان نوسينكو أن يكون عميلاً يعمل لثلاث جهات، موفدًا من الـ KGB ليجعل الاعتقاد يسود بأنّ المخابرات السوفياتيّة غريبة تمامًا وبعيدة كلّ البعد عن أحداث "دالاس"، وذلك لدى انشغال الـ CIA، بعد حادث مقتل كينيدي. على كلّ حال

فسيكون هذا هو الإثبات الذي سيؤكّد عليه جيمس أنغلتون بهدف إثبات تعامل نوسينكو في حقيقة الأمر مع الـ KGB.

وهكذا سيتعرّض هذا الرجل السوفياتي إلى السجن الإنفرادي مدّة ١,٢٧٧ يومًا، وإلى استجواب طويل ودقيق لمدّة ٢٩٢ يومًا، كما سبق وذكرنا في سرد روايته، إذ في حال اعتبار كلّ من جيمس أنغلتون وقسم مقاومة الجاسوسيّة أنّه تمّ حلّ جميع الأمور، فإنّ هذا لم يكن رأي إدارة وكالة المخابرات المركزيّة CIA. لذا ها هو نوسينكو يفرّ في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٧ من زنزانته الانفراديّة ليهرب إلى شقّة تابعة للـ CIA وموجودة في واشنطن.

بذلك لم يعد زملاء أنغلتون هم المسؤولين عن نوسينكو، حيث سيتمّ استجوابه، من الآن فصاعدًا، من قبل عميل آخر هو "بروس سولي"، الذي سيطرح عليه الاسئلة بطريقة أكثر لباقة ولطافة.

لم يكن هدف الـ CIA مضايقة نوسينكو، لإثبات تعامله مع الـ KGB، بل استخدامه أيضًا للحصول على أكبر كميّة من المعلومات الخاصّة بعملاء وعميلات الـ KGB المنتشرين في جميع أنحاء العالم.

كانت المفاجأة في الحصول على نتيجة غير متوقّعة، حيث قام سولي بعد مرور تسعة أشهر من الاستجواب والعمل، أي في شهر آب - أغسطس ١٩٦٨، بكتابة تقرير مؤلّف من ٢٨٣ صفحة، يؤكّد فيه على أنّ نوسينكو منشقّ حقيقيّ عن المخابرات السوفياتيّة. عندئذ قامت الـ CIA بإعطائه بطاقة شخصيّة جديدة، وبإلحاقه في شهر آذار - مارس ١٩٦٧ بمنصب مستشار خبير بما يتعلّق بالمخابرات السوفياتيّة KGB، وأخيرًا بشهادة بروس سولي على عقد زواجه.

أمّا بالنسبة إلى بيسلي، فقد كان واحدًا من مسؤولي الـ CIA الذين قاموا باستجواب نوسينكو آنذاك. ومجهولٌ تمامًا وقت دخوله مسرح التحقيق في قضيّة العميل السابق للـKGB، إذ ربّما يكون أنغلتون قد كلّف هو أيضًا بالقيام بالعمليّة... وبالتالي فهذا يمكن استنتاجه من رسالة ماريان بيسلي الموجّهة إلى مدير المخابرات المركزيّة CIA والتي تؤكّد فيها على تدخّل زوجها في "الاستجواب الممتع ببراعة لا توصف"، ذاك الاستجواب الخاصّ بنوسينكو، نوسينكو الذي لم يكن يريد من بيسلي، بصورة خاصّة، أن يشترك في عمليّات الاستجواب "العضليّة" التي جرت معه. وذلك باعتبار أنّهما سيصبحان مقرّبين جدًّا من بعضهما البعض، لدرجة قيام نوسينكو وزوجته بعدّة رحلات ترفيهيّة سويّة مع بيسلي وزوجته، وعلى متن سفينة Brilling.

هذا وأجبر جيمس أنغلتون والعشرات بل المئات من زملائه عملاء الـ CIA على تقديم استقالتهم بحجّة الإقلال من الموظّفين، أمّاعمليّة تطهير الوكالة فتمّت على يد مدير الوكالة وليام كولبي.

قام بيسلي أيضًا بترك الوكالة، بصورة رسميّة، خلال الفترة نفسها، ولكن كان تركه لها عبارة عن تغيير في المنصب فقط. هذا ولا يُعرف في ما إذا استمرّت علاقة الرجلين بيسلي ونوسينكو ببعضهما البعض. ولكنّ المؤكّد هو مصيرهما الغريب المشترك، تلك الملاحظة التي أشارت إليها ماريان بيسلي، إذ تمّ اختفاء جون بيسلي خلال الفترة نفسها التي بدأ فيها يوري نوسينكو يتصدّر صفحات واحدة من الصحف... وبذلك يبدو أنّ الحدثين كانا حقًّا مرتبطين ببعضهما البعض.

لقد لعب بيسلي لفترة طويلة دورًا أساسيًّا في شبكة مقاومة التجسّس الأميركيّة، حتّى أنّه كان وراء حالة نوسينكو وقصّته. إذ إنّه هو ذاك الذي كان مكلّفًا بمطاردة

العديد من الجواسيس المتخفّين وراء أعلى المناصب في المخابرات المركزيّة CIA، إذًا، فقد كان بيسلي هو المسؤول عن المنشقّين عن الشرق...

مع نهاية خمسينات القرن العشرين وصلت رسالة ممهورة بخاتم صادر من زوريخ إلى السفارة الأميركيّة في بيرن. كانت هذه الرسالة مكتوبة باللغة الألمانيّة وموقّعة باسم "فرانك تيرور"... وتعرض هذه الرسالة على الـ CIA جملة من المعلومات المحصودة من الأراضي البولونيّة. ثمّ وصلت ثلاث عشرة رسالة جديدة تتيح المجال للتعرّف في أوروبّا الغربيّة على العديد من العمليّات التي كانت قيد التنفيذ والعديد من موظّفي الاستخبارات البولونيّين السوفيات، ومن بين هؤلاء الكولونيل "ستيغ فينر ستروم"، الذي شغل منصب الملحق العسكري السويدي في موسكو في المدّة الواقعة بين العامين ١٩٤٨ و١٩٥١... وهناك أيضًا "هاينز فيلف"، المسؤول عن العمليّات المنفّذة ضدّ الاتّحاد السوفياتي والتي تقوم بها استخبارات ألمانيا الغربيّة BND، وأخيرًا نجد أيضًا "غوردون أرنولد لونسدال"، موظّف المخابرات السوفياتيّ "غير الشرعي" الموجود في لندن... وما إن جاء شهر كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٦٠، حتّى تمّ استقبال كلّ من فرانك تيرور ورئيسته في برلين الغربيّة، ومن قبل الـ CIA، ليطيرا مباشرة متوجّهين إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة.

كان الإسم الحقيقي لفرانك تيرور هو "ميخائيل غولنيفسكي"، وكان يشغل منصب جندي ذات رتبة عالية في سلك الاستخبارات البولونيّة العسكريّة. وقد قدم إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة من دون أيّ حقائب، ولكن بالطبع لم يأت بيدين فارغتين، إذ إنّه ترك ٣٠٠ نسخة مصوّرة لوثائق سريّة، خلف إحدى الأشجار في وارسو، تلك الوثائق المصوّرة التي ستتمكّن الـ CIA، في ما بعد، من اكتشافها والاستدلال إليها.

لقد أتاحت هذه المعلومات المجال أمام شبكة مقاومة التجسّس البريطانيّة MI-5 لنزع القناع عن واحد من الجواسيس الواسعي النطاق، ألا وهو "جورج بلاك"، الجندي في المجموعة MI-6 التابعة لصاحبة الجلالة البريطانيّة.

ظلّ بلاك أهمّ موظّف في الاستخبارات السوفياتيّة ولم يتمكّن البريطانيّون من توقيفه أبدًا، ولكنّه نال حكمًا قاسيًا بحقّه هو السجن لمدّة ٤٢ عامًا. وقد تمكّن السوفيات بفضل بلاك من الكشف عن شخصيّة المايجور "بوبوف" الجاسوس الأساسي في الـCIA والمدسوس ضمن استخبارات الجيش الأحمر GRU، كما توصّل بلاك أيضًا إلى تحذير الـ KGB ولفت نظرها إلى قيام المخابرات الأميركيّة السريّة بالتجسّس على جميع المحادثات التي تمّت في برلين ابتداء من تلك المتعلّقة بالأنفاق المحفورة لهذه الاجتماعات والمحادثات.

أمّا بالنسبة لشبكة الـ MI-5، فتعتبر أنّ توقيف كلّ من لونسدال وبلاك هو ثمرة للتحقيق الأكثر نجاحًا منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية. ولكن ها هو بلاك يفرّ هاربًا بصورة غامضة وسريّة من سجن "ورم وود ستوبس"، وذلك بعد مرور أربع سنوات على سجنه، أي خلال شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٦. وهنا يكمن، حسب رأي الخبراء، الخطأ الفظيع والمدمّر الذي لا يغتفر للجهات الأمنيّة، إضافة إلى حصول الجواسيس المتخفّين على ذروة آمالهم. ومع ذلك، يعتبر "غولينيفسكي"، حسب رأي جندي في الـ CIA، أفضل منسّق أمضى حياته إلى جانب الولايات المتّحدة الأميركيّة. ولكن، يوضح جندي أميركي يعمل في شبكة مقاومة الجاسوسيّة أنّ مفتاح مشكلة غولينيفسكي يكمن في أنّ السوفيات اكتشفوا لعبته، ولكنّهم لم يقوموا بإيقافه إذ أخذوا، خلال تلك الفترة، بإتمام وتصحيح المعلومات المرسلة أو المصوّرة من قبله...

أمّا بالنسبة لجيمس أنغلتون، رئيس شبكة مقاومة التجسّس في الـ CIA، فقد كان مقتنعًا، على أيّ حال، بنفاق ورياء المنشقّ الذي يحقّق معه وهو غولينيفسكي، حيث اعتبر لعبته بمثابة تبليغ عن بعض من موظّفي المخابرات السوفياتيّة الذين يعملون للجهتين، وذلك بهدف حماية الجواسيس الأكثر أهميّة من جميع المجموعات التي تعمل تحت إمرة الـ CIA، مع وجود الهدف أيضًا في تخريب المخابرات الغربيّة.

يجب الاعتراف بأنّ عمليّة توقيف الجاسوس الألماني الغربي التي أبلغ عنها غولينيفسكي وهاينز فيلف قد تسبّبت بإحداث فضيحة كبرى في جميع أنحاء ألمانيا الغربيّة، أوقعت من خلالها شبكة خدمة مقاومة التجسّس في جمهوريّة ألمانيا الاتّحاديّة، المسمّاة BND في مشكلة حلّ هذه الشبكة من قريب أو من بعيد... خاصّة وأنّ لعبة غولينيفسكي تلك، وتلاعبه، أدّيا إلى تفشّي مرض خطير معدٍ ضمن مخابرات الغرب ألا وهو مرض الشكّ والريبة... إذ إنّه يعتبر، على سبيل المثال، أوّل من تحدّث عن وجود جاسوس سوفياتيّ ضمن التسلسل الوظيفيّ العلويّ لهيكل الـ CIA.

خلال شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦١، واجهت المخابرات الغربيّة، قبل حصولها على الوقت الكافي للعودة إلى قضيّة غولينيفسكي، مرتدًّا آخر يدعى "أناتولي غوليتزين"، يعمل كجندي في المخابرات السوفياتيّة KGB ويختصّ بالعمل مع شبكة مقاومة التجسّس. ويرمز اسمه في الـ CIA بالأحرف AEILADLE، في حين يرمز له في شبكة الـ MI-5 بالأحرف KAGO. وقد قدم غوليتزين ببطاقة شخصيّة تحمل إسم "أناتولي كليموف"، جاء مع زوجته وابنته إلى المنزل الخاصّ لرئيس فرع الـCIA في هلسنكي. كان يحمل تحت إبطه رزمة من الوثائق السريّة. وتمّ تفسير الأمر لوكالة المخابرات المركزيّة CIA وشرحه على أساس أنّ غوليتزين قدّم خلال الـ ٤٨ ساعة التي تلت فراره من بلاده، كميّة من المعلومات الاستخباراتيّة، كالخطّة الكاملة لمعركة

الـ KGB في هلسنكي، تلك المعلومات التي أقنعت معظم عملاء الـ CIA بصدق نيّته. في الواقع فإنّ إخلاص وصدق غوليتزين لم يكونا، منذ البداية، موضع السؤال أو الشكّ. بل على العكس تمامًا فإنّ سلوكه وتصرّفه هو ما أثار المشكلة. إذ رفض غوليتزين التعامل والتعاون مع معظم جنود المخابرات المركزيّة CIA، بل إنّه كان يعاملهم بحماقة وبلاهة تدريجيّة، أو على أساس أنّه واحد من موظّفي المخابرات السوفياتيّة KGB، وذلك في حال تحدّثه معهم باللغة الروسيّة. كما وكان يحترس جدًّا ويراقب كلّ من يريد الانصات إليه ليثير المؤامرات والدسائس حوله، وكان يقوم بذلك بمهارة وحذاقة شيطانيّتين، اشتهرت المخابرات السوفياتيّة بالقدرة على القيام بهما.

أدّت بلاغات غوليتزين المتعلّقة بجاسوس يحتلّ مركزًا مرموقًا في المخابرات الأميركيّة CIA إلى إحداث حالة من الركود الكامل في جميع عمليّات الوكالة داخل البلدان الشرقيّة، لدرجة أنّ مدير قسم "الكتلة السوفياتيّة SB" "دايفيد مورفي" اقترح إيقاف جميع الاتّصالات مع المخبرين السوفيات، سواء كانوا جواسيس يسعون لبثّ سموم الفساد في المخابرات الأميركيّة CIA، أو عملاء حقيقيّين للوكالة معرّضين لخطر الإخبار والوشي عنهم من قبل الجاسوس السوفياتي...

كانت قيمة المنشقّ أو الجاسوس الفار من بلاده على علاقة مباشرة بالخلاف الناتج عن هذه البلاغات، وهو يعتمد هنا على تقرير شبه متناسب طردًا، حيث تزداد صعوبة تصديق البلاغات، كلّما ازدادت أهميّتها. كما يزداد الشكّ في المموّن لهذه التصريحات بإرادته كلّما ازدادت صعوبة تصديق هذه البلاغات، وبالتأكيد، فإنّ فعاليّة العدوّ تزداد كلّما ازداد الوصول إلى هذه المخابرات... وهكذا فقد كان الجواسيس هم بشكل عام، عبارة عن أفراد يصعب التعامل معهم، وذلك بهدف تعقيد هذه الحلقة المفرغة. هذا ولم يكن بالإمكان، في معظم الأحوال، التوصّل إلى الكشف عمّا يكتمون عنه من أسرار أو

عن خوفهم إلاّ من خلال تناول جرعات كبيرة من الكحول... ولكن ربّما بالإمكان أن يدفع هذا الحال إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ بلغ ثمن "إيغور كوزينكو"، على سبيل المثال، حتّى عام ١٩٨٠، ما يقارب السبعة ملايين دولار كندي... لقد كان بإمكانه إنفاق مئات من آلاف الدولارات دفعة واحدة...، هذا ما جاء على لسان واحد من جنود المخابرات المركزيّة CIA. أمّا بالنسبة لغوليتزين، فقد كان "أقلّ سعرًا"، ولكن ما صرّح به محلّل نفسي وطبيب نفسي، كلّ على حدة، هو أنّه كان يعاني حالة الذهان الهذياني، والواضح أنّ هذا التشخيص المرضي لم يكن مبالغًا فيه.

أصبح غوليتزين بسرعة الصديق المخلص الأكثر تقرّبًا من "جيمس أنغلتون"، إذ ذهب الإثنان في تعاونهما بعيدًا جدًّا، حيث فكّر الاثنان بأنّ الانفصال الصيني – السوفياتي قد يكون ناتجًا عن عمل قامت به الـ KGB لخداع الغرب ولجعله يصدّق تفجّر العالم الشيوعي... كما وأنّ "دوبيك" والمنشقّين التشيكوسلوفاكيّين لن يكونوا إلاّ هالة من الدخان موجّهة للغربيّين... إذ قد يصبح هدف السوفيات هو جرّ الغرب إلى خدعة، وبذلك يُدفع إلى اكتشاف الاضطرابات الداخليّة داخل الكتلة السوفياتيّة، تلك الاضطرابات التي لم يكن لها في حقيقة الأمر أيّ وجود...

أمّا بالنسبة لغوليتزين، فقد "حصل حتّى على معلومة تقول إنّ السوفيات لن يجتاحوا تشيكوسلوفاكيا أبدًا". هذا ما جاء على لسان واحد من جنود المخابرات الأميركيّة CIA. في حين صرّح غوليتزين، وبنفس الشجاعة، عن نهاية الـ"رومانوف"، أي الرومانيّين، كما وأكّد على أنّ "هنري كيسنجر" ما هو إلاّ عميل سوفياتي...

ترك أنغلتون المجال أمام غوليتزين للاطلاع على الملفّات السريّة لجميع الجنود الذين يتكلّمون اللغة الروسيّة، والذين يديرون عمليّات ضدّ السوفيات، إضافة إلى الجواسيس المشكوك في أمرهم من قبل مخابرات أنغلتون. كلّ ذلك بهدف مساعدة

غوليتزين في الكشف عن الجواسيس السوفيات المتعاملين مع المخابرات الأميركيّة CIA.

لقد انقلب العالم... وأصبح عميل سابق في المخابرات السوفياتيّة KGB يراجع ملفّات موظّفي المخابرات الأميركيّة CIA، بهدف الإعلان عن موقفه ورأيه بكلّ صدق وأمانة! ولكن، سيذهب أنغلتون أيضًا إلى ما هو أبعد من ذلك... إذ إنّه سيقوم بإقناع بعض من الاستخبارات السريّة الحليفة، منها الـ MI-5 البريطانيّة، بعمل ما هو أكثر من ذلك... حيث أتاح المجال أمام غوليتزين للتحدّث بوجود البعض من الـ CAZAB، وهي الاجتماعات السريّة لزعماء المنظّمات الأنغلو ساكسونيّة التابعة لشبكة مقاومة التجسّس.

في الختام، كانت قائمة جوائز غوليتزين ملفتة للنظر: إذ إنّه أبلغ عن وجود عميلين سوفياتيّين هما السفيران الكنديّان "جون واتكينز" و"هيربير نورمان". كان يقوم الأوّل بإعطاء المعلومات للغربيّين عن وجود مجموعة مؤلّفة من خمسة جواسيس تعمل ضمن المخابرات البريطانيّة. وفي ما بعد، جاء اكتشاف شخصيّات كلّ من "بورغيس" و"ماكلين" و"فيلبي" و"بلانت" في حين ظلّ الجاسوس الخامس مختفيًا غير مكشوف الهويّة، ولم يكن يُعلم عن إسمه إلاّ رمزه فقط وهو "ساشا"... وبذلك نجد أنّ بلاغات غوليتزين مسّت جميع الاستخبارات الغربيّة بدقّة مذهلة، وذلك في توصّلها حتّى إلى معرفة وصول عدد آخر من الجواسيس ولكنّهم في هذه المرّة، جواسيس مزيّفون، مكلّفون بإثارة الشكّ والريبة في معلومات غليتزين نفسها.

لقد قام كلّ من جندي يعمل في المخابرات السوفياتيّة KGB وآخر يعمل في الـGRU، وهي الاستخبارات العسكريّة السوفياتيّة، التي تعمل داخل مبنى الأمم المتّحدة في نيو يورك، بعرض خدماتهم على الأميركيّين، وذلك بعد مرور عدّة أشهر على

فرار وارتداد غوليتزين، حيث قامت المخابرات الأميركيّة CIA بمنحهم أسماء ذات رموز خاصّة على الشكل التالي: "سكوتش" بالنسبة للرجل الذي يعمل مع الـ KGB، و"بوربون" بالنسبة لذاك الذي يعمل مع الـ GRU، وكان إسم سكوتش الحقيقي "فيكتور إم ليسيوفيسكي"، عمل ما بين ١٩٦٣ و١٩٦٦ مدير مكتب المساعد الشخصي لـ"يو ثانت" أمين عام مجلس الأمن، كما وقام بإعطاء معلومات إلى الـ FBI على مدى ستّ سنوات، وقبل عودته إلى الاتّحاد السوفياتي بناء على طلبه الخاصّ... ولكنّ تحقيقًا داخليًّا أجرته الـ FBI عام ١٩٨٠، توصّل إلى نتيجة مفادها أنّ سكوتش هذا لم يكن إلاّ عميلاً سوفياتيًّا يعمل لثلاث جهات...

لم يعد هناك أدنى شكّ في اشتراك جون آرثر بيسلي بالاستجواب الخاصّ لجميع هؤلاء المنشقّين المخلصين أو الخائنين... يبقى أن نعرف ونكشف عن الإسم الذي يعمل به. إذ لم يظهر اسمه ولا في أيّ من الكتب المخصّصة لهذه المشكلة، إضافة إلى أنّ جيمس أنغلتون نفسه ادّعى بعدم وجود أيّ تعامل لبيسلي مع شبكة مقاومة التجسّس في المخابرات الأميركيّة CIA... إلاّ أنّه لم يكن لهذا الإنكار والنفي أيّ تأثير، إذ تمكّن بيسلي من أن يصبح جزءًا من المجموعات السريّة الخاصّة بشبكة مقاومة التجسّس التابعة للـ CIA، تلك المجموعات التي لم يتجرّأ أنغلتون الانتساب إليها.

أمّا ما هو شديد الغرابة في هذه القصّة، فهو استمرار بيسلي صائد الجواسيس، وشاطر المنشقّين، في لعب دور الجاسوس لصالح وكالة المخابرات المركزيّة CIA، حيث بدأ بيسلي هذا بالتقرّب، مع بداية اتّفاقيّات "سالت"، من عملاء وموظّفي المخابرات السوفياتيّة KGB، الذين اقترحوا عليه العمل لصالحهم هم، عندئذ، قام بيسلي بالاتّصال برؤسائه من المخابرات الأميركيّة وبإخبارهم بالاقتراح المعروض عليه، وقد أرغمه رؤساؤه هؤلاء على الموافقة على عرض المخابرات السوفياتيّة

KGB. أمّا الهدف من هذه العمليّة فبسيط جدًّا وسهل: تضليل المعلومات. ويقدّر بعض الخبراء استمرار لعب بيسلي لدور الجاسوس هذا لما يزيد عن عشرين عامًا.

يبقى علينا أن نعلم، أنّه في حال توقّفه هنا، أو في حال استمراريّته واندماجه في اللعبة، لم يكن بيسلي ليصبح جاسوسًا لثلاثة أطراف ولصالح الـ KGB هذه المرّة، إذ كانت لعبته، في حقيقة الأمر، شديدة الخطورة... حيث كان المبنى الذي يقطن فيه، في شارع "١٥٠٠ ماساشوسيتس" بواشنطن، يضمّ عددًا لا بأس به من موظّفي السفارة السوفياتيّة قد يقارب ١١ موظّفًا، يعيش ثمانية منهم فقط في الطبقة نفسها التي فيها بيسلي، ويعملون كجنود في المخابرات السوفياتيّة KGB.

وهكذا نجد أنّ ظروف اختفائه تدفع إلى الظنّ بوجود ما يختبئ وراء سرّ فتحة شيزبيك... إنّها قصّة غامضة تتحدّث عن منشقّ أو جاسوس متخفّ إذ ألم يكن هناك وجود للمخابرات المركزيّة داخل فيلاّ سريّة تملكها في "هووبر أيسلاند" حيث تواجه سارية سفينة السلوب، خلال بعد الظهر من يوم ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٨؟ ثمّ ألم يمتلك السوفيات، من جهة أخرى، مكان إقامة سريًّا يتواجد في مواجهة المكان الذي شوهد فيه "جون آرثر بيسلي" لآخر مرّة؟

هذا وقد لاحظ المسؤولون في المخابرات المركزيّة CIA اختفاء عدد لا بأس به من الوثائق "الشديد السريّة" وذلك قبل مرور عدّة أشهر على تاريخ اختفاء بيسلي، تلك الوثائق المتعلّقة بنظام قمر التجسّس الصناعي KH-11 الذي يعتبر واحدة من لعب وبدع التجسّس الإلكتروني التابع للـ CIA، وهو القادر، حسب ما يقال، على تصوير كرة الغولف على مسافة مئات الكيلومترات، أو حتّى على قطع محادثة هاتفيّة... من هنا ندرك سبب تحرّك السلطات نحو وضع يدها على الفاعل. ولكن، بما أنّ بيسلي لم يعمل داخل الفرع العام لوكالة المخابرات المركزيّة CIA، منذ عدّة سنوات، لذا لم يكن

بإمكانه تقديم أيّ معلومة أو خدمة، إلاّ أنّ هناك بعض الأخصّائيّين الذين لاحظوا اهتمام بيسلي المستمرّ، خلال تلك الفترة، بالأقمار الصناعيّة بل وحتّى بتشغيلها والعمل فيها... إذ من المحتمل أن يكون قد أوفد من قبل المخابرات المركزيّة CIA إلى وكالة التجسّس الأميركيّة الألكترونيّة الرئيسيّة المسمّاة NSA ولفترة عامين فقط.

ولكن ما أن جاء خريف ١٩٧٨، حتّى تمّ اكتشاف الفاعل، كان جنديًّا شابًّا يعمل في وكالة المخابرات المركزيّة ويدعى "وليام كامبيلس"، تمّ إيقافه آنذاك لمحاولته سرقة مختصر تقنية عمل الـ KH-11، بهدف إعادة بيعه إلى السوفيات، على ما يبدو. أمّا بالنسبة لكلّ من الـ FBI والـCIA، فقد اقتنعتا بعدم قيام كامبيلس بالتحرّك لتنفيذ هذه العمليّة وحده، ولكن حتمًا بتحريض من عميل آخر في الوكالة، لم تتمكّنا على الإطلاق، من التوصّل إليه والكشف عن هويّته، ولكن يظلّ هذا الجاسوس السرّي مخفيًّا في أعلى المناصب بالمخابرات الأميركيّة المركزيّة CIA.

لم يكن البلد الذي يحتوي المنشقّين والجواسيس، إلاّ بلدًا مليئًا بالمشاكل... تُرى هل كان بيسلي جنديًّا صادقًا ومستقيمًا في عمله مع المخابرات المركزيّة CIA، عندما جاءت المخابرات السوفياتيّة KGB وخطفته بهدف استجوابه وتعذيبه؟ ثمّ، بكلّ بساطة، القضاء عليه؟ أم هل كان بيسلي جنديًّا لامعًا في المخابرات المركزيّة CIA عندما جاء زملاؤه وخطفوه بهدف حمايته من احتمال وجود مؤامرة سوفياتيّة تحاك ضدّه؟ مهما كان الأمر، فإنّ عمل بيسلي الوظيفيّ قد انتهى مع المخابرات المركزيّة CIA، وذلك في حال اختطاف المخابرات السوفياتيّة له ووقوعه بين أيديهم... إنّه لم يعد موضع ثقة من قبل رؤسائه. ومع ذلك، يبقى هناك في إطار جميع الافتراضات المركّبة حول اختفائه، أمر واحد، لو قام بعمله على الوجه الأكمل، لربّما تسبّب في إحداث كارثة للـCIA، إذ ربّما يكون بيسلي صائد الجواسيس السابق هو نفسه الجاسوس المشهور

الذي تحدّث عنه المنشقّون عن المخـابرات السوفياتيّة KGB خلال استجوابهم. ولكن مهما كان الحال، فإنّ بإمكان بيسلي أن يكون مبعدًا من قبل المخابرات المركزيّة CIA، والمخابرات السوفياتيّة KGB... وإذا كان بيسلي هو حقًّا الجاسوس الذي تبحث عنه الـCIA، فإنّه قد يكون الرجل الذي يطمح إلى القضاء على مؤلّف حياته، رئيسه الأسبق، جيمس أنغلتون، الذي كان يسعى بعشقه للشعر، إلى الحصول على عبارة أطلقها عليه واحد من رؤسائه: "إنّه حقًّا رجل غريب الأطوار". علينا القول إنّ صائد الجواسيس في وكالة المخابرات المركزيّة CIA، بدأ حياته العمليّة بشكل عادي ومبتذل جدًّا، إذ كان مشكّلاً، مثله مثل عدد من العملاء الأميركيّين، للعمل مع واحد من مسؤولي الـ MI-6 البريطانيّة، الذي يحمل إسم كيم فيلبي. لم يلاحظ جيمس أنغلتون أنّ فيلبي موظّف في المخابرات السوفياتيّة، بل ذهب حتّى إلى الحديث لمدّة طويلة عن شرف صداقته لهذا الإنسان...

اعتاد كلّ من أنغلتون وفيلبي على اللقاء صدفة خلال تنقّلهما من روما إلى لندن، مرورًا بواشنطن، وكان فيلبي متحصنًا بشكل جيّد وراء شخصيّته الجديدة، في حين سينتاب الشكّ أنغلتون أخيرًا في أن يكون صديقه موظّفًا في المخابرات السوفياتيّة...

ما أن جاء ربيع عام ١٩٧٨ حتّى لفظ جيمس أنغلتون أنفاسه الأخيرة حاملاً معه سرّ الجواسيس المتعاملين مع المخابرات السوفياتيّة KGB، وبالتالي، فهذا يعني بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة CIA الشكّ في كلّ عمل قدّمه بيسلي على مدى ما يزيد عن عشرين عامًا، واعتباره ملاحظة لا تقدّم ولا تؤخّر... ألم يكن لدى جيمس أنغلتون الحقّ في الحديث عن الباليه الغريب للجواسيس والمنشقّين مع تذكّر "إنقاذ المرايا"[1]؟

---

١ ـ كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة (دار الجيل،بيروت١٩٩٨) ص١٦٤ وما يليها.

"العُظَمَاء الخَمسَة"... وقضيَّة غورديفسكي

قد تسنح الفرصة لمعظم المؤلفين أن يقوموا يومًا بتنبؤات صحيحة، إنما يجب ألا يتوقعوا أن تتكرر هذه الظاهرة بانتظام. هذا ما حدث لـ"كريستوفر أندرو" في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٥ حين نشر كتابه "الجهاز السري". فقد حمله عمله على هذا الكتاب إلى التشكيك بالفكرة المتعارف عليها والتي تقول بأن البلدان الغربية هي أكثر عرضة من الكرملين لمشاكل الارتداد والاختراق على أرفع المستويات. وكانت هذه الفكرة قائمة بشكل أساسي بسبب الاهتمام الذي أولته أجهزة الإعلام كافة للجواسيس العاملين لحساب الاتحاد السوفياتي والذين تابعوا دراستهم في جامعة كامبردج حيث يدرّس أندرو نفسه مادة التاريخ. فبالنسبة له لم تشكل مسيرة "أوليغ بنكوفسكي"، الجاسوس الذي عمل لصالح الإنكليز والأميركيين لدى جهاز الـ G.R.U ، الاستخبارات السرية للجيش السوفياتي، والذي اضطلع بدور حاسم خلال أزمة الصواريخ في كوبا. وقد كتب في الطبعة الأولى من كتابه "الجهاز السري":

"إننا نخطئ إذا استنتجنا بأنه منذ ذلك الحين لم يكن هناك جواسيس على طرازه لمجرد أن الصحافة لم تكشف عن أسمائهم"... بالفعل وعشية إصدار هذا الكتاب تم الإعلان عن أن المدعو أوليغ غورديفسكي قد فاق بنكوفسكي نجاحًا، ولكن هذه المرة، بعمله لدى الـ K.G.B.

كان غورديفسكي قد عين ممثلاً للـ K.G.B المقيم في لندن (أي رئيسًا للقسم) وذلك قبل بضعة أشهر من فراره من الاتحاد السوفياتي خلال صيف عام ١٩٨٥. وكان يعمل منذ العام ١٩٧٤ لدى الـ S.I.S (قسم الاستخبارات البريطانية المعروف تحت اسم MI - 6 كعميل اختراق لجهاز الـ K.G.B. وبعد قراءته لكتاب "الجهاز السري" خلال صيف ١٩٨٦ اتصل بأندرو، واستمرت مباحثاتها طوال العام التالي واسترعى اهتمامهما تطابق فهمهما ورؤيتهما لعمليات الـ K.G.B منذ تأسيسه ـ تحت اسم تشيكا ـ بعد ثورة أكتوبر بستة أسابيع.

لقد كان أندرو يهتم بشكل خاص في أبحاثه بفكرة ثابتة عن هذا الجهاز وهي فكرة مهووسة بالمؤامرات الوهمية قدر هوسها بالأعداء الحقيقيين لهذا الجهاز. وكان غورديفسكي قد خبر ذلك شخصيًا: فأكثر اللحظات خطورة في عمله كضباط للـ K.G.B إنما تعود لبداية ثمانينات القرن العشرين حين شعر الكرملين بالقلق إزاء مشروع غربي مزعوم للقيام بهجوم نووي وقائي، فوجد نفسه متورطًا في أوسع عملية تجسس في التاريخ السوفياتي. وقامت هذه العملية على تنسيق لا سابق له بين الـ K.G.B والـ G.R.U على المستوى العالمي وحملت اسم الشيفرة RYAN. وهدفت العملية إلى تعطيل المؤامرة الذرية للغرب بوسائل غريبة مثل مراقبة احتياط بنوك الدم البريطانية وعدد الحيوانات المذبوحة في المسالخ وعدد اللقاءات بين الملكة ومرغريت تاتشر....

كل المؤرخين الذين اهتموا، مثل أندرو، بالعمليات الخارجية للـ K.G.B اصطدموا بمشكلة أساسية وهي استحالة الحصول، حتى في عهد غورباتشيف، على وثائق قسم الاستخبارات الخارجية أي المديرية العامة الأولى P.D.G. لقد مثل غورديفسكي بالنسبة لأندرو الحل المنشود لهذه المشكلة المستعصية، وقد قُدّر له خلال ٢٣ عامًا

الاطلاع على العديد من هذه الوثائق. ومنذ لقائهما الأول لاحظ أندرو أنه يهتم منذ فترة طويلة بتاريخ الـ K.G.B بقدر اهتمامه بعملياتها الراهنة. وكـان غورديفسكي قد كلف عام ١٩٨٠ بتحضير الفصول المتعلقة ببريطانيا وإيرلندا واسكندنافيا واستراليا ضمن إطار كتابة تاريخ سرّي لعمليات الـ P.D.G، وقد أثارت الأبحاث التي قام بها حول هذا الموضوع شغفه أكثر من عملية الكتابة ذاتها. وبغض النظر عن مدى الطابع السري الذي تحمله الوثيقة فإن الكثير من الأشياء لا يستحسن نشرهاحول عمليات التجسس في الخارج. ولا تنطبق محظورات من هذا النوع على الكتاب الذي قام بتأليفه أندرو وغورديفسكي معًا منذ نهاية صيف ١٩٨٧. وقد فاجأ صراحة الكتاب ضباط الـ K.G.B الذين وجدوا فيه من المعلومات ما يفوق تلك الخاصة المتوفرة باستعمالهم الداخلي في الكراسات.

ويخلص المؤلفان إلى استنتاجات مشتركة بالرغم من كون الكتاب وضع بقلم كريستوفر أندرو وحده، وهو ثمرة أبحاث مشتركة ومناقشات مستفيضة بينهما. ويستقي الكتاب معلوماته من السجلات السرية للـ K.G.B ومن وثائق متفرقة مصدرها المكتبات والسجلات الغربية ومن سنوات الخبرة الثلاث والعشرين التي أمضاها غورديفسكي في وكالات الـ P.G.D والـ K.G.B في الخارج. وكان قد عمل، بعد سنة من الإعداد (١٩٦٢ ـ ١٩٦٣) داخل "المركز" (التعبير المألوف لمركز الـ K.G.B. الرئيسي) في موسكو (١٩٦٣ ـ ١٩٦٥ و ١٧٠ ـ ١٩٧٢) وفي وكالة كوبنهاغن (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠) كما نظم نشاطات العاملين غير الشرعيين في الـ K.G.B (أي العملاء العاملين تحت هويات مزورة وغير المزودين بالحصانة الدبلوماسية). ثم عمل لمدة ثلاثة عشرة عامًا لدى الاستخبارات السياسية P.R، في كوبنهاغن أيضًا، (١٩٧٣ ـ ١٩٧٨) وفي المركز في موسكو (١٩٧٨ ـ ١٩٨٢) ثم في لندن (١٩٨٢ ـ ١٩٨٥).

وبلغ نفور غورديفسكي من الـ K.G.B والنظام السوفياتي نقطة اللاعودة إبان صيف ١٩٦٨ عندما اجتاحت جيوش حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا وقضت على حركة التحرر في "ربيع براغ".

إن قناعاته قريبة من تلك التي انتشرت بعد سنوات في أوروبا الشرقية والتي وجدت تعبيرًا لها خلال ثورات العام ١٩٨٩: إن نظام الحزب الواحد يقود حتمًا إلى الاستبداد والوحشية وانعدام الحريات. وكان عليه، كأي منشق آخر في عهد بريجنيف أن يواجه المعضلة التالية: كيف يمكن النضال من أجل الديمقراطية في ظل نظام بارع للغاية في إضعاف خصومه وشل قدراتهم؟ إن أفضل سبيل لممارسة هذا النضال بالنسبة له كضابط في الـ K.G.B يكمن في العمل لصالح الغرب. لذا بدأ بالبحث عن قنوات للاتصال بمسؤولين غربيين. وبدأ عمله الفعلي مع الـ S.I.S نهاية عام ١٩٧٤، بعد فترة متبادلة من المراقبة والحذر.

وما إن بدأ عمله لصالح الغرب حتى انهمك غورديفسكي قدر استطاعته ولكن بحذر وحيطة في ملفات الـ P.D.G. وأتاحت أبحاثه المعمقة حول تنظيم شبكات الـ K.G.B أن تُنشر في كتابه، ضمن ملحق خاص، لوائح تكشف للمرة الأولى ممثلي الـ K.G.B المقيمين في العواصم الأوروبية الكبرى. وكانت له أيضًا محادثات مطولة مع ضباط رفيعي المستوى في الـ K.G.B إضافة إلى دبلوماسيين وأعضاء في الحزب. وكان مندهشًا لكثرة ما اطلع عليه من معلومات بمجرد جلوسه خلف مكاتب موظفي الدولة الكبار والذين تقاس أهميتهم بعدد أجهزة الهاتف الموجودة أمامهم. وخلال الثمانينات كان يلتقي باستمرار بفيكتور غروتشكو المدير المساعد للـ P.D.G والمسؤول عن عمليات التجسس في أوروبا.

وكان عليه أحيانًا، أن ينتظر من أجل مقابلته لعشر دقائق، ساعة كاملة في مكتبه. كان غروتشكو خلالها، يعالج القضايا المهمة الراهنة عبر دزينة من أجهزة الهاتف. وكان أقدم عضو حزبي قدر لغورديفسكي أن يطلعه على مجريات الأمور هو ميخائيل غورباتشيف. فلمناسبة زيارته الأولى لبريطانيا في كانون الأول ١٩٨٤ (ثلاثة أشهر قبل أن يصبح سكريتيرًا عامًا للحزب) كان هذا الأخير يتسلم يوميًا من ثلاثة إلى أربعة تقارير من الاستخبارات، كانت تقريبًا معدة من قبل غورديفسكي. وكان غورباتشيف يعطي بالمقابل رأيه حول الأولويات التي يتعين على السفارة السوفياتية وممثلي الـ K.G.B المقيمين في لندن اتباعها في المستقبل. ومن سخرية القدر أن يكون أول خطاباته الموجهة إلى أوروبا الغربية قد أوحى له بها ضابط في الـ K.G.B يعمل لصالح الـ S.I.S.

إن أكثر الجوانب التي أثارت اهتمام أندرو وغورديفسكي، قبل أن يتعاونا سويًا، في تاريخ الـ K.G.B، هي قصة العملاء المزدوجين الذين درسوا في كامبردج. فجامعة كامبردج لها الامتياز الوحيد (وإن كان موضع جدل) في تأمين أفضل العناصر للاستخبارات البريطانية خلال القرن العشرين، وفي نفس الوقت لعدوها الرقم واحد أي الـ K.G.B. وفي المركز، كان لقب أفضل العناصر العاملة لدى الـ K.G.B في كامبريدج "العظماء الخمسة" في إشارة إلى فيلم رعاة البقر الشعبي "العظماء السبعة" الذي أنتج عام ١٩٦٠. وتتصدر في الصالة السرية صور الذين وجهوا عملاء كامبريدج المزدوجين، حيث يحتفل الـ P.D.G بذكرى أبطاله. كما تابع غورديفسكي خلال السنة الأولى لإعداده في سلك الاستخبارات باهتمام خاص سيرة ألمع واحد بين هؤلاء كيم فيلبي الذي ارتد ولجأ إلى الشرق في كانون الثاني ١٩٦٣. وفيما كان يعمل غورديفسكي في كوبنهاغن، أي عشر سنوات بعد ذلك التاريخ، اشترى نسخة من كتاب

باتريك سيل وموررين ماكونفيل "فيلبي. الطريق الطويل إلى موسكو". وبعث بها إلى الجاسوس الإنجليزي عن طريق صديق في المركز يدعى كوزلوف. وأعاده إليه فيلبي بعد قراءته وكتب له على الصفحة الأولى.

إلى زميلي العزيز أوليغ:

لا تصدق كلمة واحدة مما ورد عني في هذا الكتاب.

كيم فيلبي

لم يكن غورديفسكي مقتنعًا بتاتًا بالصورة اللامعة للجاسوس الممتاز التي حاول الـ K.G.B أن يشيعها لدى الجمهور. فخلال عطلة له في موسكو عام ١٩٧٧ حضر المحاضرة الأولى التي ألقاها فيلبي في المركز أمام جمهور يقارب الثلاثمئة شخص. تكلم فيلبي بالإنكليزية واستهل قائلاً: "إننا ندخل سنة استثنائية تتميز ليس فقط بالذكرى الستين لثورة أكتوبر بل أيضًا بالذكرى الخمسين لتأسيس جمعية كرة القدم السوفياتية". فتجاوب الجمهور ضاحكًا لهذه النكتة مع فارق طفيف في سرعة التجاوب بين الذين يفهمون الإنكليزية والذين لا يفهمونها. وبعد أن استمال جمهوره بهذا الأسلوب تابع فيلبي بتوجيه انتقاد عنيف لكن غير مباشر لتصرف الـ K.G.B تجاهه خلال السنوات الأربع عشرة التي تلت ارتداده ولجوئه إلى الشرق، قائلاً: "زرت خلال ممارستي لمهنتي المركز الرئيسي لبعض أكبر أجهزة الاستخبارات في العالم إنما كان علي أن أنتظر أربعة عشر عامًا لأرى مركزكم!".

وعندما كان فيلبي يلتقي من حين لآخر بالصحافة الغربية كان يتجنب الاعتراف بمرارته العميقة حتى عند انتقاده أحيانًا لإهمال الـ K.G.B له، وكان يحاول أن يعطي انطباعًا بأنه يتمتع بمنصب رفيع في الجهاز. وخلال المقابلة الأخيرة التي أجراها مع

فيليب نايتلي قبل بضعة أشهر من وفاته، أكد أنه كان يتمتع برتبة كولونيل عندما ارتـد. ولكن عندما سأله نايتلي بعدها بقليل إذا كان قد وصل إلى رتبة جنرال في الـ K.G.B كان رده غامضًا إذ قال: "ليس هنالك من رتـب عسكرية بـالمعنى الحقيقـي للكلمـة فـي الـ K.G.B. لكنني أتمتع في الواقع بجميع مزايا الجنرال". إلا أنه كان يعلم جيدًا بوجـود رتب في الـ K.G.B (غورديفسكي مثـلاً كـان كولونيـل عندمـا ارتـد) وأنـه يوجـد حتـى جنرالات. وبالرغم من أنه حظي بحياة مميزة إلا أنه أسف لكونه بقي حتى مماته مجرد عميل عادي. فعند وصوله إلى موسكو في كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ أمل فـي قـرارة نفسه بتبوّئ منصب هام في هرمية المركز.

لكنه ما لبث أن اكتشف الحقيقة المرة. فـالغربيون ومهمـا كـانت مواهبهم يبعثـون عملاء عاديين مثله، لا يحظون أبدًا بالرتب الرفيعة. وبقي يدعى "بـالعميل تـوم" (اسـمه الشيفري) لدى المركز حتى وفاته عام ١٩٨٨.

فهم فيلبي بعد فوات الأوان أن الـ K.G.B لا يثـق بشـكل كـامل بعملائـه الغربييـن. فعندما ارتد في كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ كان صديقه الأعز غـي بورغيـس، والـذي كـان نمـط حياتـه الغريـب مصـدر متـاعب للـ K.G.B أكـثر منـه لـوزارة الخارجيـة البريطانية، يموت من آثار الإدمان على الكحول. وبالرغم من طلباته المتكررة للمركـز لم يحصل فيلبي على الإذن برؤيته قبل وفاتـه فـي شـهر آب ـ أغسـطس ١٩٦٣. وقـد أورثـه بورغيس فـي وصيتـه مكتبتـه ومعاطفـه الشـتوية وبعـض الأثـاث وألفـي جنيــه استرليني.

خضع فيلبي من جهة أخرى إلـى مراقبـة مشـددة عندمـا كـان يسـافر داخـل الكتلـة السوفياتية. فعندما ذهب إلى كوبا أجبر على السفر بالباخرة لتجنب خطـر، ولـو بسـيط، تبديله لطائرته خلال إحدى محطات الـترانزيت. وفـي بدايـة إقامتـه فـي موسـكو تمكـن

جزئيًا من تجاوز خيبة أمله خلال فترة "تقديم التقرير" وهي كناية عن عملية طويلة ومعقدة تتضمن بيانًا بكل ضباط الاستعلامات الذين التقى بهم وحول كل العمليات التي شارك بها بالإضافة إلى استجواب حول نقاط أخرى. كما أنه تم تشجيعه على المشاركة شبه الرسمية في كتابة مذكرات الجاسوس السوفياتي "مولودي"، الذي اشتهر في فترة ما بعد الحرب... والتي صدرت في الغرب عام ١٩٦٥، وأيضًا من أجل الدعاية السياسية على كتابة مذكراته الشخصية التي استدعت مداولات طويلة في المركز إلى أن صدرت عام ١٩٦٩. ولتعويضه عن عدم منحه الرتبة العسكرية عمد الجهاز إلى تقليده عددًا من الأوسمة ومن بينها وسام لينين عام ١٩٦٥، ليصبح طبقًا لما قاله لنايتلي نوعًا من "السير" على الطريقة السوفياتية. مضيفًا أن هنالك العديد من الأوسمة ومن جميع الأنواع إلا أن وسام لينين هو الأبرز.

وبعد انقضاء هذه المرحلة عام ١٩٦٧ انتابت فيلبي موجة من الإحباط. لأنه شعر بأن الـ "K.G.B" لا يقدر قيمته الحقيقية وتعتبر حياته الخاصة أيضًا كارثة. منذ وصوله إلى موسكو ارتبط بـ"دونالد ماكلين" الذي لم يكن قد رآه منذ رحيله عن كامبريدج. لكن هذه الصداقة انتهت عندما أتت "مليندا ماكلين" مع فيلبي بعد أن هجرته زوجته الثالثة. لكن علاقتهما انتهت بعد عام تقريبًا، ليستسلم بعدها عبر تجواله في روسيا إلى نوبات سكر شبه انتحارية. فكان يتعذر عليه أحيانًا أن يتعرف إلى نفسه أو أن يميز النهار من الليل. وعلى العكس من ماكلين الذي غرق في الكحول إلى أن مات، بسرعة أقل من بورغيس... فإنّ من أنقذ فيلبي من الانحطاط كانت "فوفا": المرأة التي طالما انتظرها، فتزوجها عام ١٩٧١.

كان لاتصالات غورديفسكي مع فيلبي أثر في تعزيز قراره في بداية السبعينات بالعمل لصالح الغرب. فعندما كان فيلبي يتفرج على موسكو عبر نوافذ منزله، كان

يحاول يائسًا، كما أكد في مذكراته، رؤية "الأسس الصلبة للمستقبل الذي كان يتراءى له في كامبريدج" وعلى النقيض من ذلك كان غورديفسكي يعتقد بوجود هوة كبيرة بين الصورة الأسطورية لمجتمع سوفياتي متكافئ - التي ألهمت فيلبي عندما كان طالبًا في كامبريدج - وبين الواقع البائس لروسيا في عهد بريجنيف[1]. وكان يبدو على فيلبي في بعض الأحيان أنه وعى هذه الحقيقة. فعندما كان ينتقد سوء أداء النظام السوفياتي كان يجيبه ضباط الـ K.G.B في معظم الأحيان بأنهم غير مسؤولين، مما يدفعه إلى الرد: "غير مسؤولين؟ هذا ما يدعيه كل مواطن سوفياتي، في الحقيقة إنكم جميعًا مسؤولون".

وبالرغم من أن المركز حاول الترويج لقصة فيلبي وسيرته لدى القراء الغربيين، إلا أنه تجنب فعل الشيء نفسه عام ١٩٧٩ مع "أنتوني بلانت"، العضو الرابع من "العظماء الخمسة" ودهش في الثمانينات لرؤية الإعلام الغربي يتعقب أثر الرجل الخامس بناءً على معلومات كاذبة.

لقد كشف عدد من الكتب الرائجة، اللثام عن عملاء مزدوجين وهميين بالإضافة إلى بعض العملاء السوفيات الحقيقيين.

وكان من بين الفئة الأولى "فرانك بيرتش"، "سفتون دملر"، "أندرو غاو"، "سير روجر هوليز"، "غي ليدل"، "غراهام ميتشل" و"آرثر بيغو"... هؤلاء، لم يبق أحد منهم على قيد الحياة. هنالك أيضًا "سير رودولف بيرلز" الذي ظهر علنًا برغم الشائعات التي روجت خبر موته وربح دعوى القدح والذم وبرّأ ساحته. ثم "اللورد روتشليد" الذي بقي حتى مماته عام ١٩٩٠ ضحية لتلميحات أكثر من اتهامات مباشرة والذي أقام

---

١ - Philby Kim, *My Silent War*, Pantheon Books, (Londres, 1969) p. 17.

دعوى هو الآخر . أما بالنسبة لِـ "ولفرد مـان" فهو لم يلجأ إلى القضاء بل نشر في الإعلام دفاعًا مقنعًا عن نفسه.

ولو كان الـ K.G.B أقل هوسًا بفكرة المؤامرة ضده لكانت أعجبته الفوضى والبلبلة التي خلقتها ملاحقة الجواسيس هذه والتي ألحقت ضررًا كبيرًا بالـ MI - 5 الذي أصبح هدفًا للسخرية. عن طريق تشبيهه بفرع صغير للـ K.G.B. لكن على العكس من ذلك كانوا يرددون غالبًا في المركز بأن تعقب الجواسيس هذا هو مجرد عملية تمويه بريطانية بائسة. وكان غورديفسكي قد استلم لتوه منصبه في القسم البريطاني في الدائرة الثالثة عام ١٩٨١ عندما نشرت الصحف البريطانية في صدر صفحاتها الأولى أنه بناءً للتصريحات المثيرة التي أدلى بها "تشابمان بينشر" فإن الرجل الخامس هو "السير روجر هوليز" المدير العام للـ MI -5 من العام ١٩٥٦ إلى العام ١٩٦٥. وكان هوليس في حقيقة الأمر معاديًا للشيوعية ومتعجرفًا. وكان قد أرسل خلال الحرب رسائل هامة يقول فيها إنه لا يمكن الوثوق بستالين. أمّا غورديفسكي فكان يعرف الهوية الحقيقية للرجل الخامس منذ أن قام بأبحاث لكتابة التاريخ الرسمي للـ P.D.G عام ١٩٨٠. إلا أنه بعد الاتهامات التي سيقت ضد هوليز أمضى غورديفسكي ساعات طويلة في مناقشة قضيته مع "إيفان شيشكين" رئيس الدائرة الثانية للتجسس المضاد في معهد أندروبوف الذي يؤهل عناصر الـ P.D.G. وكان "شيشكين" من أكبر أخصائيي الـ P.D.G للشؤون البريطانية، وكان أيضًا مساعدًا مقيمًا ورئيس الـ K.R أي "التجسس المضاد"، في لندن بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٠، ولم يكن مقتنعًا بتاتًا بصحة الاتهامات الموجهة ضد هوليز.

كما أن "ألبير كوزلوف" أحد أصدقاء غورديفسكي في المركز ورئيس قسم في الدائرة الثالثة، نظر أيضًا في قضية هوليز فوجدها غير معقولة. إلا أن القضية أثيرت

من جديد عام ١٩٨٤ وعلى صدر صفحات الجرائد البريطانية، واتهم هوليز مجددًا خلال مقابلة تلفزيزنية مع "بيتر رايت" أحد ضباط الـ MI - 5 المتقاعدين وشديدي التعلق بنظرية المؤامرة، وكان شخصيًا وراء ادعاءات "تشابمان بينشر" قبل ثلاث سنوات.

أخذ غورديفسكي إجازة من عمله في لندن وذهب إلى موسكو، حيث اطّلع خلال زيارته لـ"إيغور تيتوف"، وهو مسؤول سابق للاستخبارات السياسية ومساعد مقيم في لندن إلى أن طُرد قبل عام، على برقية للـ K.G.B بخصوص إدعاءات رايت. وقال له تيتوف: "إنها قصة غير معقولة... لا بد أن وراءها دسيسة غامضة للاستخبارات البريطانية". وقد وافقه على رأيه هذا، "دميتري سيفتتكو" مستشاره، والمدير المساعد للدائرة الثالثة في الـ P.D.G.

كان يحلو لغورديفسكي أن يرى وسائل الإعلام البريطانية تهتم لهذه الدرجة بعميل سوفياتي مزدوج، وهمي، وفي الوقت الذي بلغ فيه اختراق الـ K.G.B لبريطانيا مستواه الأدنى منذ أكثر من نصف قرن. بالفعل كانت ملفات مقر الـ K.G.B في لندن تشير إلى أن الجهاز فقد كل مصدر للمعلومات داخل الـ MI - 5 أو الـ S.I.S منذ توقيف جورج بلايك عام ١٩٦١. ولم يخطر ببال بيتر رايت أن السبب الأصح الذي دفع بالحكومة إلى رد الاتهامات ضد هوليز بكل ثقة هو أن الـ S.I.S نفسه كان يمتلك مصادر قيمة للمعلومات داخل الـ K.G.B.

بلغ غورديفسكي الذروة في عمله، في الاستخبارات عام ١٩٨٥. فهو عميل اختراق للـ S.I.S منذ أحد عشر عامًا وفي الوقت نفسه كان التقدير المحاط به في المركز في أعلى درجاته. فقد قدم بحكم عمله كمسؤول عن الاستخبارات السياسية ومساعد مقيم في لندن منذ العام ١٩٨٣ تقارير أثارت ثناءً شديدًا. وكانت الاقتراحات

التي قدمها في كانون الأول - ديسمبر ١٩٨٤ خلال زيارة غورباتشيف للندن قد كرست نجاحه فيها. فاستدعي إلى المركز في كانون الثاني - ينـاير ١٩٨٥ ليتبلـغ قـرار تعيينـه مقيمًا في لندن مكـان مسؤول الـ K.G.B فـي ذلـك الوقـت ليونيـد نيكيتنكـو. واستلامه منصبه حالما يرجع هذا الأخير إلى موسكو في شهر أيار - مايو. واطّلع خلال زيارتـه على الشيفرة الخاصة بالمقيم والتي لا بد منها من أجل الاتصالات "السرية للغاية".

وفي السابع عشر من أيار - مايو ١٩٨٥، تلقى برقية في لندن تدعوه للمجيء إلـى موسكو مـن أجـل تثبيتـه فـي مهامـه الجديـدة كممثـل مقيم للـــ K.G.B فـي العاصمـة البريطانية. ولو كان غورديفسكي أقل براعة لما أمكنـه، ربمـا، اجتيـاز الأزمـة القادمـة بسلام.

لم تكن الرسالة تحمل أي طابع مثير للقلق برغم قصرها. كـل مـا فيهـا دعـوة إلـى غورديفسـكي للتبـاحث مـع "فيكتـور تشـيبريكوف" رئيـس K.G.B فـي وعضـو المكتـب السياسي للحزب الشيوعي، ومع الجنرال "ألكسندروفيتش كريوتشكوف" رئيس المديرية العامة الأولـى منذ زمـن بعيـد، والـذي خلـف تشـيبركوف عـام ١٩٨٨. كـان لمحتـوى البرقية الأثر البليغ على السفير السوفياتي الحاد الطبـاع، فـي لنـدن "فيكتـور بوبـوف". فبدا عليه السرور لدى قراءتها.

ورغم بعض الخلافـات القديمـة بيـن الرجليـن أغدق علـى غورديفسـكي النصـائح لكيفية التصرف خلال هذه المباحثات الهامة. إنما كأي عميل سـري، كـان هـذا الأخـير يمتلك حاسة سادسة دفعته للتيقظ. فعند استلامه البرقية جمد الـدم فـي عروقـه وزاغـت عيناه.

استلم غورديفسكي بعد مقابلته لبوبوف بقليل برقية ثانية حددت له المواضيـع التـي يرغب تشيبريكوف وكريوتشكوف في تناولها معه.

ارتاب في الأمر، فهل كانوا ينصبون له فخاً في موسكو؟ لكنه بدافع من كبريائه المهني كعميل بريطاني لاختراق الـ K.G.B أسكت شكوكه مبررًا إياها بالقلق والإرهاق الذي يعانيه كعميل مزدوج، وقرر العودة إلى موسكو.

كان نهار السبت ١٨ أيار ـ مايو ١٩٨٥، من دون أي شك، اليوم الأكثر اضطرابًا خلال السنوات الثلاث التي أمضاها غورديفسكي في لندن. فكان عليه تنظيم ذهابه وتحضير التقارير التي سيقدمها إلى تشيبركوف وكريتشكوف بالإضافة إلى تسليم مبلغ خمسة آلاف جنيه إلى أحد العملاء "غير الشرعيين" للـ K.G.B. قام أحد التقنيين العاملين في ممثلية الـ K.G.B بوضع قطعة قرميد فارغة بإمكانها احتواء علبة محشوة بـ ٢٥٠ ورقة نقدية من فئة العشرين جنيهًا، وضعها غورديفسكي لاحقًا في كيس من البلاستيك واصطحب ابنتيه "ماريا" و"آنّا" للتنزه في "كورام فيلدز" في حي "بلومسبوري" قرب مستشفى للأطفال المرضى في شارع "غريت أورموند". وأثناء لعبه مع طفلتيه أوقع قطعة القرميد على جانب الطريق قرب السياج عند أقصى شمال المنتزه.

يوم الأحد ١٩ أيار ـ مايو صباحًا، أقلّته سيّارة "فورد غرانادا" تابعة للسفارة السوفياتية، من مسكنه في شارع "كننغتون" إلى مطار "هيثرو" حيث كانت في انتظاره طائرة "أيروفلوت". لم تصحبه عائلته لأنه كان من المفترض ألا يدوم غيابه طويلاً. بعد هبوطه في مطار "شرمتيوفو" في موسكو ثبت لديه للمرة الأولى بما لا يدع مجالاً للشك أن الأمور لا تسير على ما يرام. فمسؤول الـ K.G.B أطال التدقيق في جواز سفره الدبلوماسي وقام باتصال هاتفي في حضوره للإعلان عن وصوله. ثم شعر ببعض القلق لعدم وجود أي سيارة للـ K.G.B في انتظاره، إلا أنه علم فيما بعد أنهم أرسلوا سيارة لكنها ذهبت خطأ إلى محطة أخرى في المطار. استقل إذن سيارة أجرة

كانت تقل دبلوماسيَّين ألمانيَّين غربيَّين عائدَين إلى عملهما في موسكو، وعندما عرّف عن نفسه بأنه دبلوماسي سوفياتي اضطربا، وخوفاً من مكيدة ما طلبا إيصالهما مباشرة إلى سفارة بلادهما، فتساءل غورديفسكي عما إذا كان مراقبو الـ K.G.B المولجون حراسة السفارة سيستغربون وجوده مع دبلوماسيَّين من ألمانيا الغربية.

فهم غورديفسكي قبل أن يدخل شقته الكائنة عند الرقم ١٠٩ من جادة لينين أنها تعرضت "لزيارة" ما، إذ كان من عادته وزوجته أن يغلقا قفلين من الأقفال الثلاثة للباب أما هذه المرة فكانت الأقفال الثلاثة مغلقة. فأيقن أن ذلك من عمل الـ K.G.B لأن عملاءه المسؤولين عن مهمات كهذه معروف عنهم إلى جانب مهاراتهم التقنية، إفراطهم في شرب الخمرة وإهمالهم. تفقد البيت بسرعة فلم يلاحظ ما يثير الارتياب. إنما لدى مروره مرة ثانية بالحمام اكتشف ثقبًا صغيرًا في غلاف "السلوفان" الذي يغطي علبة محارم جديدة، وقد أدخل فيه مسبر للتنصت. كان غورديفسكي يعلم أن تفتيش منزله لم يوصلهم إلى أي نتيجة باستثناء مجموعة كتب مشتراة في الغرب ومخبأة تحت السرير وتتضمن أغلب مؤلفات "سولجنتسين" التي، وإن كانت ما زالت تعتبر محرّضة ضد النظام رسميًا، إلا أنها كانت في قائمة مشترايات الكثير من الدبلوماسيين السوفيات. وقبل خلوده إلى النوم اتصل هاتفيًا بـ"نيكولاي غريبين" رئيس الدائرة الثالثة في المديرية العامة الأولى ليعلمه بعودته. لم يقل غريبين الكثير لكنه بدا أكثر برودة من العادة.

في صباح اليوم التالي، ٢٠ ايار ـ مايو، أتاه "فلاديمير تشيرنوف"، وهو عميل صغير الرتبة لدى الـ K.G.B طرد من بريطانيا منذ عامين، في سيارته الـ"لادا" لاصطحابه إلى مركز المديرية العامة الأولى في "أياسينيفو" في ضواحي موسكو، حيث أعطي مكتبًا فارغًا في الدائرة الثالثة. وعندما كان يستعلم عن اللقاءات المرتقبة مع

"تشبريكوف" و"كريوتشكوف"، كان يُجاب بأن عليه الانتظار إلى أن يتمكنا من استقباله.... وهكذا طوال أسبوع كامل، كان ينتظر يوميًا إلى الساعة الثامنة مساءً تقريبًا الاتصال الهاتفي الذي سيحدد له الموعد، لكنه لم يحصل سوى على أعذار واهية، فكريوتشكوف مثلاً لديه أسبوع حافل بسبب سلسلة من المحاضرات في المركز الرئيسي للـ K.G.B وفي اللجنة المركزية... ويتعذر على تشبريكوف استقباله قبل أن يرى كريوتشكوف... فما كان عليه لقتل الوقت إلا أن يشتغل من جديد على تقاريره حول عمليات الـ K.G.B في بريطانيا وعلى التدقيق في إحصائيات حول الاقتصاد والقوات الحربية البريطانية.

حاول غربيين إقناعه بتمضية عطلة نهاية الأسبوع معه ومع زوجته في منزل ريفي يخص الـ K.G.B لكنه، ورغم أسف صديقه، فضل البقاء في منزله في موسكو لرؤية والدته وشقيقه.

استأثرت أخبار من تبقى من العائلة في لندن بمعظم الأحاديث خلال هذه العطلة، فـ"ماريّا" في السنة الأولى في المدرسة الإنكليزية الابتدائية في "كننغتون هايغ"، و"غورديفسكي" فخور جدًا في مستواها في اللغة الإنكليزية. وروى لوالدته وشقيقته كيف أنها تلت في أحد الأيام صلاة "أبانا الذي في السموات" من دون أية غلطة...

أما الأسبوع الثاني لغورديفسكي في موسكو فكان أكثر اضطرابًا. فنهار الاثنين ٢٧ أيار ـ مايو ظهرًا، استقبل في مكتبه في الدائرة الثالثة اتصالاً من الجنرال "غروتشكو" المدير المساعد للمديرية العامة الأولى يدعوه فيه إلى المشاركة في اجتماع هام لبحث استراتيجيّة جديدة للتسلل والاختراق داخل بريطانيا عن طريق عملاء من طراز رفيع. اقتادتهما سيارة غروتشكو الفولغا السوداء إلى منزل ريفي يخص الـ K.G.B على بعد كيلومترات من الدائرة الثالثة، حيث وجدا أن غداءًا مكونًا من

ساندويتشات قد أُعد لهما. سأله غروتشكو إذا كان يحب أن يشرب شيئًا فتردد لحظة إذ تذكر حملة غورباتشيف ضد الإدمان على الكحول، لكنه عاد وقبل كي لا يخيب غروتشكو. فأتى خادم بِليتر من الكونياك الأرمني وسكب كأسًا لكل منهما. فوجئ غورديفسكي عندما بدأ غروتشكو يطرح أسئلة عن عائلته، وفيما هما يتحادثان، انضم إليهما الجنرال "غولوبيف" والكولونيل "بودانوف" من إدارة K للتجسس المضاد التي من إحدى مهامها مراقبة "التسريب" الداخلي للمعلومات. فُتحت زجاجة كونياك ثانية وقُدم كأس آخر لغورديفسكي الذي أيقن للحال أنه تحت تأثير المخدر. "شعرتُ أنني إنسان مختلف كليًا" يتذكر قائلاً. تحدث بسرعة وأصبح أكثر ميلاً للكلام وكأنّ جانبًا منه يحاول أن يحافظ على السيطرة على نفسه... بينما الجانب الآخر ينصحه بالاستسلام. شعر بالدوران في رأسه ولاحظ أن غروتشكو خرج من الغرفة فيما أخذ غولوبيف وبودانوف يمطرانه بالأسئلة.

استجوباه حول خونة سوفيات سابقين وبالأخص عن عميل مزدوج عمل لحساب فرنسا في الإدارة T المسؤولة عن التجسس العلمي والتقني التابعة للمديرية العامة الأولى، والمعروف عند الفرنسيّين تحت اسم الشيفرة "ميزويل" والذي جرت تصفيته قبل عامين. ثم أخذت الأسئلة منحى شخصيًا. سئل فجأة: "كيف أمكنك الاستماع إلى ابنتك وهي تتلو أبانا الذي في السموات؟". فقال غورديفسكي في نفسه: "لقد تمّ تحذيري ولم أعد مسيطرًا على نفسي إلا أنني أكيد من شيء ما، وهو أنهم على علم بالحوار الذي جرى مع والدتي وشقيقتي خلال العطلة، إذن كانت شقتي خاضعة للتنصت". ثم سئل بعدها عن مؤلفات سولجنتسين وحول مطبوعات غربية أخرى مخبأة تحت سريره. "كيف أمكنك اجتياز الحدود وفي جعبتك هذه الكتابات المعادية للسوفيات؟". ثم أصبح الاستجواب أكثر عدائية فاتهماه مباشرة بأنه عميل للبريطانيّين. حتى أن

غولوبيف أعطاه اسم دبلوماسي بريطاني مضيفًا: "إنه هو الذي جنّدك أليس كذلك؟ فضلاً عن أنك قابلت أصدقاءك الإنكليز قبل عودتك إلى موسكو!". بقي غورديفسكي وحده للحظة ثم عاد غولوبيف قائلاً بلجهة آمرة: "اعترف الآن. أذكرك أنك بدأت بذلك منذ ساعة وعليك بالمتابعة". انتاب غورديفسكي الدوار وبالكاد أمكنه أن يقول لا، ليس لديه شيء ليعترف به. "لا شيء إطلاقًا!" رددها بشكل آلي. ولا يذكر شيئًا مما حدث حتى صباح اليوم التالي حين استيقظ في إحدى غرف المنزل وهو يعاني من صداع شديد.

كان يقوم بخدمته امرأة ورجل، يقدمان له القهوة فيشرب الفنجان بعد الآخر ويظل صداعه على حاله. عندما تذكر أحداث البارحة أول ما تبادر إلى ذهنه هو أن يقول "لقد انتهيت، لا يوجد أي مخرج"، لكن شيئًا فشيئًا لاحت له بوادر الأمل. حوالي التاسعة والنصف وصل غولوبيف وبودانوف إلى المنزل وتصرفا كأن استجواب البارحة مجرد محادثة اجتماعية عادية، وما لبث أن ذهب غولوبيف فيما بقي بودانوف.

ويتذكر غورديفسكي هذا الأخير كواحد من أفظع ضباط الـ K.G.B مع أن أسئلته في البداية كانت غير عدائية. كما لا بد أنه عمل في وقت من الأوقات في لندن لكي يسأله عن الأمكنة التي زارها هناك. فأجابه غورديفسكي أنه نظرًا لتحديد حرية التنقل المفروضة على الدبلوماسيين السوفيات، وعلى ضباط الـ K.G.B ذوي الصفة الدبلوماسية، خارج حدود لندن، فإنه اكتفى بحضور مؤتمرات الحزب في بلاكبول وبرايتون وهاروغيت. "هاروغيت؟" أجابه بوادنوف... "إنني لا أعرفها". ثم قال له بنبرة مختلفة "لقد كنت بالغ الثقة بنفسك ومتعجرفًا البارحة"... فاعتذر غورديفسكي وأضاف بودانوف: "لقد قلت نعيد خلق الأجواء نفسها التي سادت إبان موجة

التطهيرات وتصيّد الجواسيس عام ١٩٧٣، وهذا غير صحيح. وسأثبت لك خطأك، ستأتي سيارة لتعيدك إلى منزلك بعد قليل".

إثر عودته لمنزله اتصل غورديفسكي بغروتشكو قائلاً: "إنني أشعر بالقلق الشديد ولن أستطيع المجيئ إلى العمل اليوم". فأبدى غروتشكو تعاطفاً مع حاله... ثم أضاف غورديفسكي: "كما إنني أعتذر في حال بدرت مني البارحة أقوال في غير محلها... فإنّ بودانوف وغولوبيف شخصان غريبان فعلاً". فأردف غروتشكو: "أبدًا، لقد وجدتهما لذيذين جدًا". شعر غورديفسكي أن كلمات غروتشكو هذه غير عفوية وبأن هذا الأخير يعتقد بأن مخابرتهما يجري التنصت عليها. في ذلك اليوم وفي نهار الأربعاء الذي تلاه حاول غورديفسكي تجاوز الأمر والتغلب على محنته وطبقًا لتعبيره "فكر إلى ما لا نهاية". تحسن حاله في المساء فأحداث اليومين الماضيين وكونه لم يستسلم تجاه الاتهامات جعلته يأمل بفترة لالتقاط الأنفاس قبل أن يحكم عليه بالموت. "في النهاية ربما هنالك مخرج" قالها في قرارة نفسه. فلو انتمى إلى الجيل السابق لكان أعدم في الحال. أما اليوم فإن الـ K.G.B بحاجة إلى إثباتات.

يوم الخميس ٣٠ أيار ـ مايو، عاد غورديفسكي إلى مكتبه في الدائرة الثالثة، ولم يلبث أن استدعاه غروتشكو. فوجده بصحبة غولوبيف وغريبين التعيس رئيس الدائرة. بادره غروتشكو: "تباحثنا طوال البارحة في قضيتك مع الرفيق كريوتشكوف، أنت تدرك بدون شك، أنك تخيب آمالنا منذ فترة. لذا قررنا وضع حد لمهمتك في بريطانيا. وستعود عائلتك حالاً إلى موسكو. نعتزم الاحتفاظ بخدماتك في الـ K.G.B ولكن من غير المرجح أن تبقى في المديرية العامة الأولى. فما رأيك؟".

كان غورديفسكي متأكدًا من أن هذا الاقتراح ينطوي على خدعة لتوريطه أكثر. إنه يعلم أن الموت يتهدده لكن بما أن الاستجواب لم يؤد إلى نتيجة أعطيت له فترة

زمنية على أمل أن يُضبط وهو يحاول الاتصال بأجهزة الاستخبارات البريطانية أو أن يتورط بشكل أو بآخر. وعندما يسترجع ما حدث معه يتبين له أن تشديد غولوبيف على التفاصيل، مثل تلاوة ماريا للأبانا والكتب المخبأة تحت السرير، تدل على أن الدلائل الموجودة ضده غير مباشرة.

وبما أن فرص استمراره على قيد الحياة كانت مرتبطة بكسبه للوقت، قرر غورديفسكي التظاهر بالتعاون، فأبدى أسفه لكونه استسلم للنوم خلال الاستجواب وأضاف بخبث: "لكن كان هنالك شيء غير طبيعي في طعامي"... فاحتج الجنرال غولوبيف بحدة إذ لم يكن يتمتع بمقدار كبير من روح الدعابة، حتى بالنسبة لمقاييس الـ K.G.B. ودافع عن نوعية السندويتشات واحدًا واحدًا، فالجامبون كان ممتازًا، وبيض السومون كذلك بالإضافة إلى الجبن...

لم يعترض غورديفسكي وانتقل إلى موضوع عمله: "أما بالنسبة إلى اتهاماتكم فإنني لا أعلم إلى ماذا ترمي. لكن إذا أحببتم أن تضعوا حدًّا لخدماتي في المديرية العامة الأولى فإنني سأتصرف كضابط ورجل شرف". وتبدو له اليوم هذه الجملة، بالإضافة لإطراء غولوبيف على السندويشات، كفاصل مضحك بالرغم من أنه عندما تفوه بها كان يخوض نضالاً يائسًا لإنقاذ حياته.

بدا على غروتشكو الارتياح لردة فعل غورديفسكي وكان ممنونًا له لأنه لم يحرجه بمزيج من الاعترافات والاحتجاجات العنيفة ضد الافتراء. وقال له مرتين "شكرًا" مصافحًا إياه ورجاه أن يسلم الكتب المعادية للاتحاد السوفياتي المخبأة تحت سريره إلى مكتبة المديرية العامة الأولى. فلو أحيل إلى المحاكمة لكانت هذه الكتب بمثابة أدلة ثبوتية.

وتجنب غريبين رئيس الدائرة الثالثة مصافحة غورديفسكي بالرغم من أنه كان شديد الإعجاب به لأشهر خلت ولم يدر بماذا ينصحه بإستثناء أن "يتصرف بصبر وحكمة". وعندما لجأ غورديفسكي إلى انكلترا فيما بعد كان على وشك أن يتصل بغريبين ليبلغه "لقد اتبعت نصيحتك وتصرفت بصبر وحكمة".

وبما أن عطلته كانت ستدوم إلى الثالث من آب ـ أغسطس فقد قدّر غورديفسكي أن لعبة الفأر والقط هذه قد تستمر على الأقل حتى ذلك التاريخ. وأمضى في شهر حزيران ـ يونيو خمسة عشر يومًا غلب عليها مزيج من العذوبة والمرارة مع ليلي وماريا وآنّا في شقته في موسكو متمتعًا أقصى ما يمكن بصفاء الأجواء العائلية لعلمه أن الفراق وشيك. فكانت زوجته وابنتاه ينوين الذهاب في العشرين من حزيران ـ يونيو إلى ما وراء القوقاز حيث يملك والد ليلي منزلاً صيفيًّا. كان يود مرافقته لكنه كان بحاجة إلى الوقت لكي ينظم عملية هروبه. فقبل أن يعمل في "مصح" للـ K.G.B كان في السابق منزلاً صيفيًا لستالين. ثم تحول إلى فندق لتمضية العطلات، ويقع في "سميونوفسكوي" على بعد مئة كيلومتر من موسكو. قبل قليل من انتقاله إلى هناك التقى في البناية التي يسكن فيها زميلاً قديمًا يدعى "بوريس بورنتشاروف" الذي سأله "ماذا حدث في لندن يا صاحبي؟ لقد تم استدعاء كل العملاء "غير الشرعيين" وألغيت كل عملياتنا وسمعت أن مساعدك لجأ إلى الغرب". وعندما التقاه مرة أخرى تجنب بونتشاروف مكالمته لأنه أحيط علمًا، بالتأكيد، بما حصل مع غورديفسكي.

في سميونوفسكوي أمضى غورديفسكي وقته بممارسة بعض الرياضة والقراءة والتحضير لعملية هروبه. كان معظم النزلاء موجودين في غرف ذات أسرّة متعددة. فهل كان مجرد صدفة أو عن قصد أن يوضع لوحده في نفس الغرفة مع حارس حدود يعمل لدى الـ K.G.B.

كان القائمون على مراقبته أقل كفاءة بكثير من الذين في موسكو. فكلما أراد ممارسة رياضة الركض كان نفس الأشخاص يلاحقونه، وكلما التفت إلى أحدهم كان يختبئ وراء الأشجار متظاهرًا بالتبوّل.

في مكتبة المصح درس غورديفسكي أكبر عدد ممكن من الكتب والخرائط المتعلقة بالمنطقة الحدودية التي كان ينوي اجتيازها، لكنه تجنب استعارتها لكي لا يثير الشبهات، بل تفحصها واقفًا أمام رفوف المكتبة. وكان يعتمد استعارة الكتب التي لا علاقة لها إطلاقًا بخطة هروبه. وعندما سأله آخر ضابط K.G.B رآه قبل رحيله عن المصح، ماذا يفيده كتاب حول الحرب الروسية ـ التركية التي جرت عامي ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ أجابه بأنه يريد سد ثغرات في ثقافته التاريخية. ومنذ فراره قلّب الكتاب من جميع أوجهه بحثًا عن إشارة أو دليل...

أرجئ رحيل عائلة غورديفسكي إلى ما وراء القوقاز حتى الثلاثين من حزيران ـ يونيو فسُمح لطفلتيه بتمضية يوم معه. كانت المرة الأخيرة التي يراهما فيها. وفي المساء عندما أزفت ساعة عودتهما إلى موسكو عانقهما طويلاً لدرجة أنه كاد أن يُغلق عليه باب القطار الذي سيقلهما إلى العاصمة.

خلال وجوده في المصح تمكن غورديفسكي من اختلاق الأعذار مرتين للذهاب إلى موسكو للاتصال بالـ S.I.S (الاستخبارات البريطانية). وكان يجتاز على الأقدام مسافة الخمسة عشر كيلومترًا التي تفصله عن أقرب محطة للقطار. وهذه المسيرة هي بمثابة تمرين للمسافة الأكثر طولاً التي كان عليه اجتيازها على طول الحدود عند فراره. ولحسن حظه لم يلاحظ الـ K.G.B الاتصالات التي أجراها مع الـ S.I.S في موسكو. خلال أولى هاتين الزيارتين للعاصمة رأى زوجته للمرة الأخيرة قبل فراره، أما ماريّا وآنّا فكانتا عند جدتهما في منزلهما الصيفي قرب موسكو. ودع ليلي في أحد

متاجر موسكو حيث اشتريا بعض الأغراض في انتظار القطار الذي سيقله إلى المصح. نادرًا ما عاش لحظات أكثر إيلامًا. ومما يزيد الفراق صعوبة هو أن ليلي تجهل كل شيء عن خطته للفرار. قبلته ليلي بسرعة على شفتيه فلاحت عليه ابتسامة وتمتم بنعومة "المزيد من الحنان كان ليسرني أكثر". تذكّر هذه الكلمات مرات عديدة منذ فراره، ومن المؤكد أن ليلي قد فعلت الشيء نفسه. وكانت تحضيرات الرحيل موجعة لأنه اضطر إلى كتمان الأمر عن عائلته، ولعلمه أن سنوات طويلة قد تمر قبل أن يلتئم شملهم من جديد... لكن لم يكن هنالك خيار آخر، فلو بقي لتمتع ببضعة اسابيع من الحرية قبل أن يُعدم بتهمة الخيانة وتقع الكارثة على عائلته.

غادر غورديفسكي المصح يوم الأربعاء في العاشر من تموز ـ يوليو وعاد إلى شقته في موسكو. وخلال الخمسة عشر يومًا التي سبقت فراره إلى الغرب قام بتحضير سلسلة من الدلائل والآثار المُضلِلَة لإحباط مراقبة الـ K.G.B له. وقد رتب عدة مواعيد للقاء أصدقاء وأقارب في الأسبوع الذي يلي التاريخ المحدد لفراره. كما أمضى وقتًا في تصليح سيارته التي كانت ستخضع لفحص تقني إجباري. وكان من عادة مراقبيه أن يروه مغادرًا شقته في جادة لينين عندما يحين موعد ممارسته لرياضة الركض ولم يكن من المعتاد أن يتعقبوه خلال ذلك. يوم الجمعة، ١٩ تموز ـ يوليو، خرج عند الساعة الرابعة، مرتديًا بذلة رياضية هي عبارة عن بنطلون قديم وبلوزة يرتديها لهذا الغرض، حاملاً بيده كيس بلاستيك أثار محتواه حيرة المركز فيما بعد. خرج ولم يعد. وبعد بضعة أيام من رحلة صعبة ومعقدة اجتاز الحدود السوفياتية. ويفضل غورديفسكي أن يحتفظ بتفاصيل الرحلة ومسارها لأن آخرين قد يضطرون يومًا ما إلى سلوك الطريق ذاته.

يشبّه غورديفسكي الإحساس الذي انتابه حال وصوله بأمان إلى الغرب باللحظة التي تتقلب فيها الصورة فجأة في فيلم "ساحر الأوز" من الأبيض والأسود إلى الألوان. لقد سنحت له فرصة ذهبية بفراره من أيدي الـ K.G.B. فهي المرة الأولى في التاريخ السوفياتي الي يستطيع فيها ضابط في هذا الجهاز يعمل لحساب الغرب اجتياز الحدود. وأول ما فكر فيه، عندما هنأهُ أصدقاؤه، هو الأسرة التي تركها هناك، والتي احتجزها جهاز الـ K.G.B، وكانت ليلي وماريا وآنا من عدادهم[١]...

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، (دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٥ ـ ٢٠.

الـ CIA والعملاء المزدوجون

إنّ واحدة من أخطر المشاكل التي واجهت وكالـة المخـابرات المركزيّـة CIA هـي احتماليّة أن يكون العميل مزدوجًا أي أنّه يعمل لكـلا الطرفَين. لقد حصـل هـذا الأمـر فعلاً في كوبا، حين تجلّى أنّ معظم العملاء الذين جنّدتهم وكالة المخـابرات المركزيّـة منذ مطلع الستّينات، كانوا (شتلات) تتسلّم تعاليمها من الرئيـس الكوبـيّ فيدل كاسـترو. وظلّ الحال هكذا حتّى عام ١٩٨٧ عندمـا ارتـدّ "جـون أنطونيـو رودرلـز" الـذي عمـل لصالح المخابرات الكوبيّة والمخابرات المضادّة لها، فبدأت وكالة المخابرات المركزيّـة تتعلّم أسلوب الخدعة. أمّا الصدمة الحقيقيّة فقد وقعت فـي السـنة التاليـة، عندمـا ارتـدّ الرائد "فلورنتينو اسبيلاها لمبارد" الذي عمل أيضًا لصالح المخابرات الكوبيّة. كانت في جعبته تفاصيل أعظم من تلك التي يخبرهـا رودلـرز، وشـخّص ثمانيـة وثلاثيـن عميـلاً مزدوجًا يعملون ضمن قائمة عملاء وكالة المخابرات المركزيّة. فأُخضع كـلّ العمـلاء تقريبًا لاختبار كشف الكـذب وتخطّـاه أغلبهم، بينمـا كـانت نتـائج الاختبـار لأكـثر بقيّـة العملاء غير نهائيّة، الأمر الذي يعني أن ليس ثمّة دليل يؤكّد على ريـائهم. أرسـل هـذا التجلّي موجات اهتزاز عنيفـة داخـل الوكالـة سيّما داخـل شـعبة أميركـا اللاتينيّـة التـي تضطلع بقضيّة كوبا. وهنا أعاد بعضهم إلى الأذهان التحذيرات المسبقة التي كـانوا قد أدلوا بها. إذ عبّر، على سبيل المثال، كادر المخابرات المضـادّة فـي وكالـة المخـابرات المركزيّة في مطلع عام ١٩٧٦، عن خشيته من أن يكـون بعـض الكوبيّيـن الموجوديـن ضمن جدول رواتب وكالة المخابرات المركزيّـة عمـلاء مزدوجيـن. فالمعلومـات التـي

قدّموها كانت جدّ سطحيّة وغير نافعة. وكانوا، كذلك، على اطّلاع عظيم بجميع عمليّات محطّة مدريد التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة التي كانت، على مدى السنوات الماضية، منطلقًا للعمليّات التي استهدفت كوبا. وتلك دلالة على أنّ تلك العمليّات قد تعرّضت للمساومة عليها أو أنّها أمست تحت السيطرة الكوبيّة. بيد أنّ أيًّا من هذه التحذيرات لم تطرق مسامع أحد، ولم يحرّك أحد صوبها ساكنًا.

لقد تلقّى العملاء الكوبيّون، كما يذكر رودلرز، تدريبًا مكثّفًا في كيفيّة التغلّب على جهاز كشف الكذب بعد أن أعلمهم مدرّبوهم أنّ اختبارات كشف الكذب لا تعمل مطلقًا، وإذا ما فشلوا في الاختبارات فبإمكانهم على الدوام إقناع ضبّاط عمليّات وكالة المخابرات المركزيّة بأنّ عطلاً ما أصاب الجهاز. لذا لن يُظهر أكثرهم إمارات التوتّر التي يترجمها الجهاز بالكذب.

يعلّل رودلرز المشكلة في أنّ ضبّاط العمليّات الأميركيّين الذين استخلصوا المعلومات من الكوبيّين لم يكونوا أنفسهم على اطّلاع بطبيعة الكوبيّين، ولم يفقهوا الكثير عن ثقافتها كي يتيسّر لهم التحقيق مع أولئك العملاء بشكل فعّال. وقارن رودرلز هفوات الوكالة بالتصعيد لعمليّة غزو خليج الخنازير، ويضيف: "إنّهم لم يتعرّفوا إلى الكوبيّين بعد، فليس بغير الأحمق مَن يظنّ أنّ الناس، عام ١٩٦١، سيخرجون عن دين فيدل كاسترو".

ويقول ساندرس: "ليس غريبًا لضابط قضيّة أن يقع في غرام عميل. فبمجرّد أن تتطوّر علاقة خاصّة بين ضابط وعميل تنشأ بينهما تركيبة كيماويّة فريدة، حتّى ليرفض التصديق أنّ العميل كذّاب أو مزدوج وإن اتّضحت الحقيقة لديه". كان مخاض الخداع الكوبيّ أنّ وكالة المخابرات المركزيّة قد أهدرت عظيم وقت وأنفقت كثير مال وظلّت، مع هذا، مشلولة لا تقدر أن تنال المعلومات التي كانت بحقّ في فاقة إليها.

وأكثر المعلومات التي زوّد العملاء المزدوجون بها وكالة المخابرات المركزيّة كانت صحيحة لكنّها لم تضمر، في الجانب العمليّ، إيذاء لكوبا.

عرض التلفزيون الكوبيّ مسلسلاً أظهر العديد من عمليّات الـCIA على الجزيرة طيلة سنوات مضت. لقد صوّر البرنامج كيف يلتقط ضبّاط عمليّات الوكالة وثائق تركها العملاء المزدوجون في أماكن نائية، أو كيف ألقى الضبّاط بمعدّات اتّصال متطوّرة لعملائهم، أو اللقاء بهم في الدول الأجنبيّة لإملائهم بآخر التعليمات. وفي الوقت الذي ادّعى فيه البرنامج أنّ بعض الدبلوماسيّين الأميركيّين كانوا ضبّاط مخابرات خارج الوكالة، كانوا، في الحقيقة، داخلها. كما عرض البرنامج الخطط الهمجيّة التي كان يناقشها ضبّاط الوكالة كاستبدال الخزانات الرديئة لخزن الأمونيا بحيث تتسرّب منها المادّة الكيماويّة لقتل المحاصيل، على أساس أنّها خطط حديثة ومستمرّة، بيد أنّ الوكالة نبذت، في حقيقة الأمر، مثل هذه الخطط منذ عام ١٩٦٤.

كان "ريتشارد ستولز" يشغل منصب مساعد مدير وكالة المخابرات المركزيّة للعمليّات عندما تمّ الكشف عن العملاء المزدوجين، وهو قد خدم قبل هذا في روما وموسكو وميونيخ واسطمبول وبلغراد ولندن، وكان رئيس شعبة السوفيات في شرق أوروبّا. لقد أعلم ضبّاطه أنّ كوبا نجحت باستغفال وكالة المخابرات المركزيّة بالعملاء المزدوجين، بسبب الضغوط الهائلة التي أحدثها البيت الأبيض والوكالة ذاتها للمضيّ بعمليّة التجنيد. كما أوقع "ستولز" اللوم على مبدأ "الغزو العراقيّ" ذاكرًا أنّ الوكالة قد حطّت من شأن قدرة اللاتينيّين كثيرًا. كما انتقد الاعتماد المفرط على كاشف الكذب موضحًا أنّه فنّ وليس بعلم[١].

---

١ ـ كيولر رونالد، داخل الـCIA، ترجمة مالك البدوي، الأهليّة للنشر والتوزيع (عمّان، لا.ت) ص٧٤ ـ ٧٧.

هيو هامبلتون: الجاسوس الإقتصادي

"هيو هامبلتون"، هو بروفيسور إقتصاد في جامعة "لافال" في "كيبك" بكندا، يحمل الجنسيّتين البريطانيّة والكنديّة. اعتُقل في شهر حزيران ـ يونيو ١٩٨٢ من قبل سلطات الأمن البريطانيّة فور هبوطه من الطائرة الآتية من مونتريال في كندا.

بعد أشهر من التحقيق مع هيو هامبلتون، بدأت محاكمته في أوائل كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨٤، بتهمة "التخابر مع الاتّحاد السوفياتي وفقًا لتعليمات تلقّاها شخصيًّا من الرئيس السوفياتي يوري أندروبوف" الذي كان وقتها رئيس جهاز المخابرات السوفياتيّ KGB.

التهمة الموجّهة إلى هيو هامبلتون بالعمل كجاسوس للاتّحاد السوفياتي لحظت أنّه استمرّ في عمله هذا لمدّة ٣٠ سنة كاملة، مع أنّ عمره لا يتعدّى الستّين.

فبعد الحرب العالميّة الثانية، تمكّن عملاء المخابرات السوفياتيّة في كندا من تجنيده، وبقي على اتّصال مستمرّ بالمخابرات السوفياتيّة حتّى اعتقاله.

لكن البروفيسور هيو هامبلتون كان جاسوسًا من طراز جديد، كما قال ممثّل الادّعاء سير "مايكل هيفرز"، في مرافعته، فهو لم يكن يهتمّ بالنواحي العسكريّة، المجال الأوّل لنشاط الجواسيس عادة، ولا حتّى بالأوضاع السياسيّة أو الداخليّة، بل كان كلّ همّ هامبلتون هو الوضع الاقتصادي الداخلي في دول الكتلة الغربيّة، وتحليلها، وإعطاء نتائج دراسته الدقيقة إلى الاتّحاد السوفياتي.

وقد كان هيو هامبلتون مؤهّلاً لهذه العمليّة، فقد عمل لمدّة عامين في جهاز المخابرات الكنديّة حيث أصبح ملمًّا بفنّ التخابر وأساليبه، ثمّ درس الاقتصاد بعد ذلك في لندن، قبل أن تجنّده المخابرات السوفياتيّة. فأضحى بذلك خبيرًا بارعًا في المجالين: المخابراتي والاقتصادي.

سنة ١٩٥٦، أبلغته المخابرات السوفياتيّة أنّ عليه الحصول على وظيفة في القسم الاقتصادي لمنظّمة حلف شمالي الأطلسي "الناتو"، والتي كان مقرّها في باريس. وححصل هيو هامبلتون على وظيفة مستشار في القسم الإقتصادي، ورتّب له السوفيات طريقة الاتّصال بعملائهم في العاصمة الفرنسيّة، وبدأ هامبلتون في إمداد المخابرات السوفياتيّة بكلّ ما يتعلّق بأوضاع الحلف وأعضائه الاقتصاديّة، وكلّها معلومات وتقارير تحمل خاتم "سرّي" و"سرّي جدًّا".

بقي هيو هامبلتون في منصبه حتّى سنة ١٩٦١، عاد بعدها إلى كندا حيث استمرّ التعامل والتخابر بينه وبين السوفيات في كلّ ما يتعلّق بالأوضاع الاقتصاديّة في الدول الغربيّة، وزوّده السوفيات بكلّ ما يحتاجه من أجهزة إرسال دقيقة، وآلات تصوير الوثائق، وحتّى الحبر الأبيض الذي لا يظهر إلاّ بتعريضه لدخان السجائر.

عام ١٩٧٥، التقى هيو هامبلتون مع أحد عملاء السوفيات في فيينّا، والتي سافر إليها خصيصًا لإتمام الاتّصال بعيدًا عن رقابة رجال الأمن الغربيّين. وتمّت المقابلة في سيّارة على ضفاف نهر الدانوب. وسلّمه مندوب المخابرات السوفياتيّة جواز سفر دبلوماسيًّا، ثمّ اتّجهت به السيّارة إلى السفارة السوفياتيّة في براغ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا، وهناك سألوه أيّ إسم يريده على جواز السفر المزوّر.

ومن مبنى السفارة السوفياتيّة، نُقل هيو هامبلتون إلى مطار حربي سوفياتي قريب من العاصمة، حيث استقلّ طائرة نقل سافرت أوّلاً إلى قاعدة عسكريّة في ألمانيا

الشرقيّة، ثمّ إلى قاعدة أخرى في بولونيا، وانتهت إلى مطار موسكو المدني. وإمعانًا في التنكّر، دخل هيو هامبلتون الاتّحاد السوفياتي بجوازه الدبلوماسي.

من المطار، اصطحبه أحد رجال المخابرات السوفياتيّة إلى شقّة خاصّة حيث أقام مدّة زيارته.

مساء اليوم التالي لوصوله، كان هيو هامبلتون مجتمعًا مع سبعة أشخاص من رجال المخابرات، يتباحثون في تطوير وسائل الاتّصال بهم، ويتفحّصون جهاز الإرسال الجديد الذي زُوّد به، وفجأة دقّ الباب ودخل "شخص أنيق ومهيب المنظر"، وهبّ السوفيات وقوفًا، وقُدّم إليه الزائر بأسم "الرفيق أندروبوف". وعلى مائدة العشاء بدأ أندروبوف يوجّه إليه أسئلة دقيقة بلغة إنكليزيّة سليمة، حول الأوضاع الاقتصاديّة في عدد من الدول الغربيّة، واستفسارات عديدة حول مستقبل السوق الأوروبيّة واحتمال انهيار هذه المنظّمة أو استمرارها. وفي وسط الحديث، سأله أندروبوف: "لماذا لا تصبح عضوًا في برلمان كندا؟ في استطاعتنا مساعدتك على ذلك"... ولم يقبل هيو هامبلتون العرض، ولم يلحّ عليه أندروبوف الذي حوّل الحديث إلى أهميّة التقارير التي يصدرها معهد "هيدسون" الأميركي للأبحاث الاقتصاديّة. واقترح أندروبوف أن يبقى هيو هامبلتون فترة أخرى في موسكو، لكنّه اعتذر لأنّه على موعد مع عشيقته في بلغراد.

عام ١٩٧٩، قامت سلطات الأمن في كندا باعتقال هيو هامبلتون، واكتشفت في منزله أدوات التخابر المختلفة وأجهزة الاتّصال مع السوفيات. ولكنّ المفاجأة كانت بأنّ السلطات الكنديّة أطلقت سراحه، ولم توجّه إليه أيّ تهمة.

ركّز هيو هامبلتون دفاعه عن هذه الواقعة، فسبب الإفراج عنه، حسب قوله، هو أنّه كان يعمل في الواقع عميلاً مزدوجًا لحساب المخابرات الكنديّة والفرنسيّة أيضًا، فقد

كان المسؤولون في الناتو على علم تامّ بنشاطه واتّصاله مع المخابرات السوفياتيّة، وكانوا يزوّدونه بتقارير إقتصاديّة مضلّلة حتّى ينقلها إلى السوفيات. وكان يبلّغ المسؤول عن الاتّصال به في المخابرات الفرنسيّة، "جان ماسون"، عن موعد ومكان كلّ لقاء له مع العملاء السوفيات طيلة سنوات عمله في مقرّ الناتو في باريس، وقال هامبلتون أيضًا أنّ السوفيات صدّقوه عندما أبلغهم ترك عمله في المنظّمة الغربيّة "لأنّ غطاءه الأمين قد كُشف".

وروى هيو هامبلتون كيف التقى بسكرتير أوّل السفارة السوفياتيّة في كندا "فلاديمير بورودين" خلال حفل استقبال أقامته سفارة تشيلي في أوتاوا. ودعاهِ بورودين إلى الغداء في مطعم فاخر في إحدى ضواحي المدينة. وتعدّدت اللقاءات بينهما، لكنّ "بورودين لم يطلب منّي شيئًا بل كان يلحّ عليّ دائمًا أن أركّز دراستي على الشؤون الاقتصاديّة والعلوم السياسيّة".

عام ١٩٥٥، أثناء دراسته في باريس، فوجئ هيو هامبلتون ببورودين على باب منزله، وفي رفقته شخص آخر يدعى "بول"، واقترح الإثنان أن ينضمّ إلى القسم الاقتصادي في حلف الأطلسي. وعاد بورودين بعد ذلك إلى موسكو، واستمرّ هيو هامبلتون في الاتّصال مع بول.

اتّصل هيو هامبلتون، حسب روايته، بالمخابرات الفرنسيّة، وطلب منه "جان ماسون" الاستمرار في الاتّصال مع السوفيات، وساعدته فرنسا في الحصول على وظيفته في حلف الأطلسي. وكان سكرتير عام المنظّمة، حسب قوله، على علم بنشاطه. وبعد ذلك كان ماسون يتولّى إمداده بوثائق مزوّرة عن أوضاع دول الحلف الاقتصاديّة.

رفض الاتّهام تصديق كلمة واحدة من دفاع هيو هامبلتون، وقال إنّ البروفسور لم يذكر كلمة واحدة عن تعامله مع المخابرات الفرنسيّة أو الكنديّة. والمهمّ أنّ بريطانيا قد دخلت دوامة فضيحة تجسّس أخرى بعد فضيحة "جيوفري برايم" في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٢، والذي كان يتجسّس على مركز الاتّصالات البريطاني الذي يتولّى عمليّة التنصّت على السوفيات. وبعد ذلك جاءت فضيحة الجندي البريطاني العامل في مركز المخابرات العسكريّة، وكان يتردّد بصفة منتظمة على السفارة السوفياتيّة. وفي أوائل شهر كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٨٢، وجّهت تهمة "إهمال مخلّ بأمن الدولة" إلى "روبين غوردون ووكر"، إبن وزير الخارجيّة العمّالي السابق "باتريك غوردون ووكر"، الذي يعمل في مكتب الاستعلامات المركزي البريطاني.

قاضي المحكمة العليا "دايفيد كروم جونسون"، الذي ترأس المحاكمة التي دامت سبعة أيّام، أعلن بعد ذلك حكمه مخاطبًا هيو هامبلتون: "لقد مضى وقت طويل على اقترافك هذه الأعمال، لكنّها أوقعت بك في النهاية، وقرار هذه المحكمة هو أن تقضي عشر سنوات في السجن[١]".

---

١ ـ مجلّة "الشراع"، العدد ٤١، الإثنين ٢٧ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٨٢، ص٤٣؛ مجلّة "الحوادث"، العدد ١٣٦٢، الجمعة ١٠ كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٨٢، ص٥١.

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ – ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩)

قبيسي د. بشرى ومخّول موسى، الحروب والأزمات الإقليميّة في القرن العشرين، دار بيسان للنشر والتوزيع (بيروت،١٩٩٧)

كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة (دار الجيل،بيروت١٩٩٨)

كيولر رونالد، داخل الـCIA، ترجمة مالك فاضل البدوي، الأهليّة للنشر والتوزيع (عمّان، لا.ت)

مجلّة "الحوادث".

مجلّة "الشراع".

Page Bruce, Knightley Phillip, Leitch David, *Philby, L'Intelligence Service aux Mains d'un Agent Soviétique*, Ed. Robert Lafont (Paris,1968)

Philby Kim, *My Silent War*, Pantheon Books, (Londres, 1969)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

